الحب والمحبّة الإلهيّة

من كلام الشيخ الأكبر

محيي الدين ابن العربي

جمع وتأليف

محمود محمود الغراب

المقَـدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله رب العـالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، رأس المحبين والمحبوبين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، اعلم وفقك الله تعالى لمحبته، أنه لا يوجد شيء من جوهر ولا عرض، ولا وصف ولا صفة في الوجود الحادث، إلا وهو مستند إلى حقيقة إلهية، من حيث نسبتها إلى الموجود القديم سبحانه وتعالى، ولولا ذلك لما صح لها أن تظهر، ولا أن تُعْلَم، ومن ذلك الحب في الأكوان، فإنه على اختلاف مراتبه يستند إلى حقيقة الحب الإلهي، الذي هو أصل وجود الحب في العالم، ولكن لما طال الأمد وقست القلوب، اختلطت على النـاس الأمـور، فقـد انـدرست المباني، وضاعت المعاني، وغابت الجسـوم، وبقيت الرسوم، وأصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، لا بل أُمِرَ بالمنكر ونُهِي عن المعروف، فأصبحت القيم لا معنى لها، وإن بقيت باهتة، وصارت توزن بموازين الزمان، عندما ضاع الميزان، فلا يفرق الإنسان بين الإيمان العلمي والإيمان الذوقي، ولا بين الحب الحقيقي والحب الوهمي، ولا بين العلم بالصفة وبين قيامها بالموصوف، كما لا يفرق بين الجوع الحقيقي والجوع الكاذب، أو بين الحمل الطبيعي والحمل الكاذب، مثال ذلك الإيمان العلمي، وهو ما أمر به الحق سبحانه وأمر به نبيه ﷺ بقوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ وقوله تعالى: ﴿ وليعلموا إنما هو إله واحد ﴾ والدليل على هذا الإيمان وشاهده، قول العبد «لا إله إلا الله»

قال ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، وحسابهم على الله» أما الإيمان الذوقي فينبه الحق تعالى عليه بقوله ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ وقوله تعالى ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً، لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ فشهد سبحانه وتعالى للمهاجرين والأنصار بالإيمان حقاً، ويقول تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ وأقام الحق الشواهد على الإيمان ولم يتركه دعوى بلا بينة، فقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ ﴿ وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ ﴿ واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ فأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ ﴿ وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ ﴿ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ هذه دلائل وبراهين على الإيمان الذوقي، عرفتها الأمم السابقة، لذلك قال هرقل لأبي سفيان عندما سأله عن أتباع النبي ﷺ، الذين اتبعوه في أول الدعوة، فقال له: «سألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب» وقد صدق هرقل في ذلك، إذ يقول تعالى عندما ذكر لنا قصة أصحاب الأخدود ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ فلم يرتد أحد عن دينه وهو يشاهد بعينيه عذاب النار، كل هذه موازين حسية وقلبية تشهد للعبد بالإيمان، لا يحتاج فيها إلى ميزان من خارج ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ فمن تحقق في باطنه بما

ذكـره الله تعـالى من شروط، وشهد له ظاهره مصدقاً لباطنه، فقد رضي بالله رباً وبـالإسـلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، لذلك قال رسول الله ﷺ «ذاق طعم حلاوة الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً» ـ الحديث، فجعل للإيمان شاهد الـذوق، وشـاهـد الـطعم، وشاهد الحلاوة، فهذا هو الإيمان الذوقي لا ا لإيمان العلمي، فأهل الإيمان الذوقي هم المؤمنون حقاً، الذين ضمن لهم الله تعالى النصر والنصرة فقال تعالى ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ فقابل حقاً بحق، كذلك جميع المقامات، من صحبة وتوكل وزهد وورع وخوف ورجاء وحياء وأمانة، إلى غير ذلك من المقامات، كلها لها موازين وبراهين، غابت عن أكثر الناس، ومن ذلك الحب فله موازينه وشواهده، أتى بذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة، قال تعالى ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فلم يجعل الحق سبحانه حب العبد له دعوى بلا شاهد ولا برهان، كما اشترط في حبه العبد الاتباع للرسول ﷺ، فقد قال ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده وأهله ونفسه التي بين جنبيه» وقال عن ربه في الحديث القدسي: «لا يزال عبـدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه» ـ الحديث، وقد رأى رسول الله ﷺ مولاه ثوبان وقد اصفرَّ وذبل، من فرط حبه لرسول الله ﷺ وظنه أنه لا يجتمع به ﷺ في الجنة، فطمأنه الرسول ﷺ بقوله «المرء مع من أحب» وكذا شاهد محبة أبي بكر الصديق بوضع قدمه على جحر الحية، حتى لدغته حماية لرسول الله ﷺ، إلى غير ذلك مما جاء في الصحاح وكتب الحديث والسير، وقد سمعت شيخي الشيخ أحمد الحارون قدس الله سره يقول: سمعت أحد المجاذيب بدمشق واسمه محمد الساطي ينشد ويقول:

شفـيـعـي مني دمـوع عيـني وحسـن ظني
فبـالـذي قادني إليـك ذليـلاً إلا عفـوت عني

ورحم الله الإمام أبا حامد الغزالي إذ يقول: «إذا قيل لك أتحب الله ورسوله؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، طولبت بالدليل».

لذلك عملت على جمع هذا الكتاب من كلام الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي، في المحبة عموماً والمحبة الإلهية خصوصاً، وأرجو الله تعالى أن يكون فيه بيان للناس وهدى لمن أراد أن يصدق مع نفسه، وهو ميزان عام في الحب أياً كان تعلقه، ولم أجد ما أقدم به لهذا الكتاب أجمل ولا أكمل من كلام محب صادق، فتح الله عليه بالعبارة، وجعل البيان طوع بنانه، ألا وهو الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي الذي يقول:

الحمد لله الذي جعل الهوى حَرَماً تحج إليه قلوب الأدبا، وكعبة تطوف بها أسرار ألباب الظرفا، وجعل الفِراق أمَرَّ كأس تذاق، وجعل التلاق عذب الجنى طيب المذاق، تجلى اسمه الجميل سبحانه فألهى الألباب، فلما غرقت في بحر حبه أغلق دونها الباب، وأمر أجناد الهوى، أن يضربوها بسيوف النوى، فلما طاشت العقول وقيدها الثقيل، ودعاها داعي الاشتياق، وحركتها دواعي الأشواق، رامت الخروج إليه عشقاً، فلم تستطع، فذابت في أماكنها الضيقة ومسالكها الوعرة وجداً وشوقاً، واشتد أنينها، وطال حزنها وحنينها، ولم يبق إلا النَفَس الخافت، والإنسان الباهت، ورثى لها العدو والشامت، فأذابها الأرق، وأتلفها القلق، وأنضجتها لواعج الحرق، وفتك فيها الفراق بحسامه، وجرعها مضاضة كأس مدامه، واستولى عليها سلطان البين، فمحق الأثر والعين، ونزلت بفنائها عساكر الأسف، وجردت عليها سيوف التلف، وأيقنت بالهلاك، وعاينت مصارع الهُلاَّك، وما خافت ألم الموت، وإنما خافت حسرة الفوت، فنادت يا جميل يا محسان، يا من قال: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، يا من تيّمني بحبه، وهيّمني بين بعده وقربه، تجليت فأبليت، وعُشِقت فأرّقت، وأعرضت فأمرضت، فياليتك مرّضت، وأفرطت فقنّطت، وأسست فأسست[1]، وأيّست فأيأست، وقربت فدنوت، وبعدت فأبعدت، وأجلست فآنست، وأسمعت فأطمعت، وكلمت فأكلمت،

(١) هكذا في الأصل.

وخـاطبت فأتعبت، وملكت فهتكت، وأملكت فأهلكت، وأتْهَمْتُ[1] ففـرحت، وأنجدت[2] فأترحت، ونوهت فولّهت، وزيّنت فأفتنت، وألّهت فتيّهت[3]، وفوّهت فتـوهت، وغلطت فنشـطت، وعـززت فعجزّت، وأسلبت فأغفلت، وأمسكت فنسكت، ووسعت فجمعت، وضيقت ففـرقت، وأحـرمت فأحللت، وأحللت فحـرمت، وهـذا كله سهل إذا ما أنت أقبلت، فياليتني لم أُخْلَق، وإذا خلقت لم أتحقق، وإذا تحققت لم أعشَق، وإذا عَشِقتُ لم أُهجَر، وإذا هُجِرتُ لم أقبر، وإذا قُبِرْتُ لم أُنْشَر، وإذا نُشِرْت لم أُحشَر، وإذا حُشِرت لم أُعتَب، وإذا عوتبت لم أُزجَر، وإذا زُجِرت لم أُطرَد، وإذا طُردت لم تُسعَّر بي النار التي فيها على الحجب أن أنظر، فلما سمع ندائي، وتقلبي في أنواع بلائي، بادر الحجَّاب، إلى رفع الحجاب، وتجلى المراد، فنَعِمَت العينُ والفؤاد، جعلنا الله وإياكم ممن عشق فلحق، وصبر فظفر[4].

وهـذا الكتـاب يشرح ويفصل ما أجمله الشيخ الأكبر رضي الله عنه في هذا الكـلام، ويضع بين يدي القارىء ميزاناً يقيمه لنفسه وعليها، ليعلم أين هو من الحب؟ وهل أحب أو عرف الحب؟ فرحم الله عبداً علمني الحب، أو دلني على من يعلمني الحب، لا، لا تتعب نفسك ولا تتعنى، فإنها مواهب لا مكاسب، وهي من فيض العناية الإلهية، جعلنا الله وإياكم أهلاً لها ومحلاً.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

دمشق في ١٠ المحرم عام ١٤٠٤ هـ
الموافق ١٦ تشرين أول ١٩٨٣ م

محمود محمود الغراب

---

(١) أي تنزلت ودنوت.

(٢) تعاليت وارتفعت.

(٣) هكذا في الأصل.

(٤) كتاب التنزلات الموصلية ـ الباب ٥٢.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

أشرف على التصحيح والتدقيق كل من السادة
محمد ماجد الحناوي ـ سعيد الناشي ـ أحمد العاقل

بسم الله الرحمن الرحيم

نسبة الحب إلى الله تعالى

الحب ينسب للإنسان والله | بنسبة ليس يدري علمنا ما هي
الحب ذوق ولا تُدرى حقيقته | أليس ذا عجب والله والله
لوازم الحب تكسوني هويتها | ثوب النقيضين مثل الحاضر الساهي
بالحب صح وجوب الحق حيث يُرَى | فينا وفيه ولسنا عين أشباه
أستغفر الله مما قلت فيه وقد | أقول من جهةٍ الشكرُ لله

(ف ح ٢ / ٣٢٠)

فالحب مقام إلهي، وصف الحق تعالى به نفسه، وتسمى بالودود، وفي الخبر بالمحب، فمما أوحى الله تعالى به إلى موسى في التوراة «ياابن آدم خلقت الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تهتك ما خلقت من أجلي، فيما خلقت من أجلك، ياابن آدم إني وحقي لك محب، فبحقي عليك كن لي محباً» وقد وردت المحبة في القرآن والسنة، في حق الله، وفي حق المخلوقين، وذكر أصناف المحبوبين بصفاتهم، وذكر الصفات التي لا يحبها الله، وذكر الأصناف الذين لا يحبهم الله، فقال تعالى لنبيه ﷺ آمراً أن يقول لنا ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ وقال في ذكر الأصناف الذين يحبهم: إن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب المطهِّرين، ويحب المتوكلين، ويحب الصابرين، ويحب الشاكرين، ويحب المتصدقين، ويحب المحسنين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، كما نفى عن نفسه أن يحب قوماً لأجل صفات قامت بهم لا يحبها، ففحوى

الخطاب أنه سبحانه يحب زوالها، ولا تزال إلا بضدها ولا بد، فقال: ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ و﴿لا يحب الفساد﴾ وضده الصلاح، فعين ترك الفساد صلاح وقال ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ و﴿لا يحب كل مختال فخور﴾ و﴿لا يحب الظالمين﴾ و﴿لا يحب المسرفين﴾ و﴿لا يحب الكافرين﴾ و﴿لا يحب الجهر بالسوء من القول﴾ و﴿لا يحب المعتدين﴾ ثم إنه سبحانه حبب إلينا أشياء: منها بالتزيين ومنها مطلقة، فقال ممتناً علينا ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ وقال ﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾ الآية، وقال في حق الزوجين ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ ونهانا أن نلقي بالمودة إلى أعداء الله فقال ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ - والمحبة الواردة في القرآن كثيرة، وأما الأخبار فقوله ﷺ عن الله أنه قال: « كنت كنزاً لم أعرف فأحببت أن أُعرَف، فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني » فما خلقنا إلا له لا لنا. لذلك قرن الجزاء بالأعمال، فعملنا لنا لا له، وعبادتنا له لا لنا، وليست العبادة نفس العمل، فالأعمال الظاهرة في المخلوقين خلق له فهو العامل، ويضاف إليه حسنها أدباً مع الله، مع كونها كلٌّ من عند الله، لأنه قال ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ وقال: ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ فدخلت أعمال العباد في ذلك، وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول: ما تقرب المتقربون بأحب إلي من أداء ما افترضته عليهم، ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» - الحديث - وفي الخبر «إن الله يحب كل مفتّن تواب» وفي الخبر «وجبت محبتي للمتحابين فيّ» وفي الخبر «أحبوا الله لما أسدى إليكم من نعمه» وفي الخبر «إن الله جميل يحب الجمال» و«إن الله يحب أن يُمْدَح» وقال عليه السلام: «حبب إلي من دنياكم ثلاث» والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً. (ف ح ٢ / ٣٢٢)

الحب سبب وجود العالم:

ورد في الحديث - الصحيح كشفاً غير الثابت نقلاً - عن رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل أنه قال ما هذا معناه: «كنت كنزاً لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني» وذكر الله نفسه بنَفَس الرحمن، فلما ذكر المحبة، علمنا من حقيقة

الحب ولوازمه مما يجده المحب في نفسه، وأن الحب لا يتعلق إلا بمعدوم يصح وجوده، وهو غير موجود في الحال، والعالم محدث، والله كان ولا شيء معه، فكان الحب أصل سبب وجود العالم، والسماع سبب كونه، وبهذا الحب وقع التنفس، وأظهر العالَمَ نَفَسُ الرحمن، لإزالة حكم الحب، وَتَنَفَّسَ ما يجد المحب، وخرج ذلك النَفَس عن أصل محبة في الخلق، الذي يريد أن يتعرف إليهم ليعرفوه، فكان العماء المسمى بالحق المخلوق به، فكان ذلك العماء جوهر العالم، فقَبِل صورَ العالم وأرواحه وطبائعه كلها، وهو قابل لا يتناهى. فالعماء من تنفسه، والصور المعبر عنها بالعالم من كلمة كن، فالمحبة مقامها شريف، وهي أصل الوجود. (ف ح ٢ / ٣٩٩، ٤٢٨، ١١١)

وعن الحب صدرنا وعلى الحب جُبِلْنا
فلذا جئناه قصدا ولهذا قد قُبِلْنا

(ف ح ٢ / ٣٢٢)

ولما لم يكن علم الله تعالى بالعالم إلا علمه بنفسه، إذ لم يكن في الوجود إلا هو، فما ظهر في الكون إلا ما هو عليه في نفسه، فلا بد أن يكون العالم على صورته، وصورة العالم على قدر الحضرة الإلهية الأسمائية، فما في الحضرة الإلهية اسم إلهي إلا وهو على قدر أثره في نشء العالم، من غير زيادة ولا نقصان، فخلق الله العالم في غاية الإحكام والإتقان، كما قال الإمام أبو حامد الغزالي من أنه: لم يبق في الإمكان أبدع من هذا العالم، فأخبر أنه تعالى خلق آدم على صورته، والإنسان مجموع العالم، فطابق العالمُ الأسماءَ الإلهية، وكأنه تعالى كان باطناً فصار بالعالم ظاهراً، فعرف نفسه شهوداً بالظاهر بقوله: فأحببت أن أعرف.
(ف ح ٢ / ٣٣٩، ٣٤٥، ١١١، ٣٩٩)

ولما أظهر تعالى العالم في عينه كان مجلاه، فما رأى فيه غير جماله، فالعالم جمال الله، فهو تعالى الجميل المحب للجمال، ورد في الخبر الصحيح في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال» فأوجد الله العالم في غاية الجمال والكمال خلقاً وإبداعاً، فإنه تعالى يحب الجمال، وما ثَمَّ جميل إلا هو، فأحب نفسه، ثم أحب أن يرى نفسه

في غيره، فخلق العالم على صورة جماله، ونظر إليه فأحبه حب من قيده النظر، فما خلق الله العالم إلا على صورته، فالعالم كله جميل، وهو سبحانه يحب الجمال .

(ف ح ٢ / ٣٤٥ - ح ١ / ٢٦٩)

ومن هنا تعلقت الأسماء الإلهية، فتسمَّى تعالى بالودود، فهو تعالى ثابت المحبة من كونها وداً، كيف لا يحب الصانع صنعته؟!! ونحن مصنوعاته بلا شك، فإنه خالقنا، وخالق أرزاقنا ومصالحنا، والصنعة مُظهِرَةٌ علمَ الصانع لها بالذات، واقتدارَه وجماله وعظمته وكبرياءه، فإن لم نكن، فعلى من؟ وفيمن؟ وبمن؟ فلا بد منا ولا بدّ من حبه فينا، فهو بنا ونحن به، كما قال ﷺ في ثنائه على ربه: «فإنما نحن به وله» فالود حضرة العطف.

فلولا الحب ما عُرِف الوداد ... ولولا الفقر ما عُبِد الجواد
فنحن به ونحن له جميعاً ... فمن ودي عليه الاعتماد
إذا شاء الإله وجود عين ... بها قد شاءها فمضى العناد
فكنا عند كن من غير بطء ... ونعت الكون ذاك المستفاد
فعين الحب عين الكون منه ... وعيَّنه وأظهره الوداد

فلم يزل يحب فلم يزل ودوداً، فهو يوجد دائماً في حقنا، فهو كل يوم في شأن، ولا معنى للوداد إلا هذا، فنحن بلسان الحال والمقال لا نزال نقول له: افعل كذا، افعل كذا؛ ولا يزال هو تعالى يفعل، أترى هذا فعل مُكْرَهٍ؟ ولا مُكرِه له تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل هذا حكم الاسم الودود منه، فإنه الغفور الودود ذو العرش المجيد، الذي استوى عليه بالاسم الرحمن، فإنه ما رحم إلا صبابة المحب، وهو رقة الشوق إلى لقاء المحبوب، وهو طلب كل محب، فإن محبوبه الاتصال بمحبوبه، ولذلك تسمى الحق بالاسم الجامع، فهو الجامع لنفسه بك لمحبته فيك، وأنت المحبوب. (ف ح ٤ / ٢٥٩، ٢٨١)

واعلم أن الحق لا يلقى العالم إلا بصفته، وصفته الوجود، فأعطاه الوجود، ولو كان عنده أكمل من ذلك ما بخل به عليه، ولو كان وادخره لكان بخلاً ينافي الجود، وعجزاً يناقض القدرة، فأخبر تعالى أنه ﴿الغفور الودود﴾ أي الثابت المحبة في غيبه، فإنه عزَّ وجَلَّ يرانا، فيرى محبوبه، فله الابتهاج به، والعالم كله إنسان واحد، وهو المحبوب، وأشخاص

العالم أعضاء ذلك الإنسان، وما وصفَ المحبوبَ بمحبة محبه، وإنما جعله محبوباً لا غير، وإنما قال: ﴿الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد﴾ فهو الودود فهو المحب، وهو فعال لما يريد فهو المحبوب، فعال لما يريد-بمحبوبه، والمحب سامع مطيع مُهيَّأ لما يريد محبوبه، لأنه المحب الودود، أي الثابت على لوازم المحبة وشروطها، والعين واحدة[1]. فإن الودود هنا هو الفعال لما يريد. (ف ح ٤ / ٢٥٩)

إن التي كان الوجود بكونها ... ذات يقدِّس لفظها معناها
إني لأهواها وأهوى قربها ... مني وأهوى كل مَنْ يهواها
ليلى ولبنى والرباب وزينب ... أتراب من حبي لها محياها
لو مت مات وجودها بمماتنا ... فوجودنا عين لها وسواها
عجباً لنا ولها فإن وجودنا ... فرد[2] فلا ثان فمَنْ ثنّاها

(ف ح ٣ / ٣١٤)

المحبة الإلهية:

اعلم وفقك الله أن الحب الإلهي هو أن يحبنا الله تعالى لنا ولنفسه؛ أما حبه إيانا لنفسه فهو قوله: «أحببت أن أعرف فخلقت الخلق فتعرفت إليهم فعرفوني» فما خلقنا إلا لنفسه حتى نعرفه، وقوله: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ فما خلقنا إلا لنفسه، خلق سبحانه الخلق ليسبحوه فنَطَّقهم بالتسبيح له والثناء عليه والسجود له، ثم عَرَّفنا بذلك فقال: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ أي بالثناء عليه بما هو عليه وبما يكون منه، وهذا تسبيح فطري ذاتي عن تجل تجلى لهم، فأحبوه فانبعثوا إلى الثناء عليه من غير تكليف بل اقتضاء ذاتي، وهذه هي العبادة الذاتية التي أقامهم الله فيها بحكم الاستحقاق الذي يستحقه، فالعالم كله في مقام الشهود والعبادة إلا كل مخلوق له قوة التفكر، وليس إلا النفوس الناطقة الإنسانية والجانيَّة خاصة، من حيث أعيان أنفسهم لا من حيث هياكلهم، فإن هياكلهم كسائر العالم في التسبيح له والسجود، فأعضاء البدن كلها بتسبيحه ناطقة، وهذا كله من حكم حبه إيانا لنفسه، فمن وفّى شَكَرَه ومن لم يوف عاقبه، فنفسَه أحب،

(١) يعني أن الحق سبحانه هو من حيث ذاته محب محبوب.

(٢) راجع وحدة الوجود في كتابنا شرح كلمات الصوفية.

وتعظيمَه والثناءَ عليه أحب، وأما حبه إيانا لنا، فلِمَا عرَّفنا به من الأعمال التي تؤدينا إلى سعادتنا ونجاتنا، من الأمور التي لا توافق أغراضنا ولا تلائم طباعنا، وعرفنا بمصالحنا دنيا وآخرة، ونصب لنا الأدلة على معرفته حتى نعلمه ولا نجهله، ثم إنه رزقنا وأنعم علينا مع تفريطنا بعد عِلْمِنا به، وإقامة الدليل عندنا على أن كل نعمة نتقلّب فيها إنما ذلك من خلقه، وراجعة إليه، وأنه ما أوجدها إلا من أجلنا لننعم بها ونقيم بذلك، وتركنا نرأس ونربع، ثم إنه بعد هذا الإحسان التام لم نشكره، والعقل يقضي بشكر المنعم، وقد علمنا أنه لا محسن إلا الله، فمن إحسانه أن بعث إلينا رسولاً من عنده معلماً ومؤدباً، فعلمنا بما لنا في نفسه، فشرع لنا الطريق الموصل إلى سعادتنا وأبانه، وحذرنا من الأمور المردية واجتناب سفساف الأخلاق ومذامها، ثم أقام الأدلة على صدقه عندنا، فجاء بالبينات، وقذف في قلوبنا نور الإيمان وحببه إلينا وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، فآمنا وصدقنا، ثم مَنَّ علينا بالتوفيق، فاستعملنا في محابه ومراضيه، فعلمنا أنه لولا ما أحبنا ما كان شيء من هذا كله، ثم إن رحمته سبقت غضبه وإن شقي من شقي، فلا بد من شمول الرحمة والعناية والمحبة الأصلية التي تؤثر في العواقب، ولما سبقت المحبة وحقت الكلمة وعمت الرحمة، وكانت الدار الدنيا دار امتزاج وحجاب ـ بما قدره العزيز العليم ـ خلق الآخرة ونقلنا إليها، وهي دار لا تقبل الدعاوى الكاذبة، فأقر الجميع بربوبيته هناك، كما أقروا بربوبيته في قبضة الذر من ظهر آدم، فكنا في الدار الدنيا وسطاً بين طرفين: طرفي توحيد وإقرار، وفي الوسط، وقع الشرك مع ثبوت الوجود، فَضَعُفَ الوسط، ولذلك قالوا: ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فنسبوا العظمة والكبرياء إلى الله تعالى في شركهم، ثم أخبرنا تعالى أنه طبع على قلب كل من ظهر في ظاهرٍ لقومه بصفة الكبرياء والجبروت، وما جعل ذلك في قلوبهم إلا بسبب طابع العناية، فهم عند نفوسهم بما يجدونه من العلم الضروري أذلاء صاغرون لذلك الطابع، فما دخل الكبرياء على الله قلب مخلوق أصلاً، وإن ظهرت منه صفات الكبرياء، فثوب ظاهر لا بطانة له منه، وهذا كله من رحمته ومحبته في خلقه، ليكون المآل إلى السعادة، فلما ضعف الوسط وتقوى الطرفان غلب في آخر الأمر، وامتلأت الداران، وجعل في كل واحدة منهما نعيماً لأهلها، يتنعمون به بعد ما طهرهم الله بما نالوه من العذاب، لينالوا النعيم على طهارة، ألا ترى المقتول قوداً كيف طهره القتل من ظلم القتل الذي قَتَلَ من قُتِل

به، فالسيف محاء، وكـذلـك إقـامة الحدود في الدنيا كلها تطهير للمؤمنين، حتى قرصة البرغوث والشوكة يشاكها، وثَمَّ طائفة أخرى تقام عليهم حدود الآخرة في النار ليتطهروا، ثم يرحمون في النار لما سبق من عناية المحبة وإن لم يخرجوا من النار. (ف ح ٢ / ٣٢٧)

لطيفة: كل من أحبك لك فاعتمد على محبته، فإنه الحب الصحيح، وحب الله لخلقه بهذه المثابة، أحبهم لهم لا لنفسه. (كتاب التراجم / ترجمة الوجود)

هل حب الله له بدء وغاية فيتصف بالحدوث:

حب الله عبـاده لا يتصف بالبدء ولا بالغاية من وجه، فإنه لا يقبل الحوادث ولا العوارض، لكن عين محبته لعباده عين مبدأ كونهم، متقدميهم ومتأخريهم إلى ما لا نهاية له، ونسبة حب الله لهم نسبة كينونته معهم أينما كانوا، في حال عدمهم وفي حال وجودهم، فكما هو معهم في حال وجودهم، هو معهم في حال عدمهم، لأنهم معلومون له، وهو مشاهد لهم محب فيهم، لم يزل ولا يزال، لم يتجدد عليه حكم لم يكن عليه، بل لم يزل محباً خلقه كما لم يزل عالماً بهم، فقوله: «فأحببت أن أعرف» تعريفاً لنا مما كان الأمر عليه في نفسه، كل ذلك كمالاً يليق بجلاله، لا يُعْقَلُ تعالى إلا فاعلاً خالقاً، وكل عين فكانت معدومة لعينها معلومة له محبوباً له إيجادها، فكما أنه لا أول لوجوده سبحانه، فلا أول لمحبته عباده سبحانه، وذكر المحبة يحدث عند المحبوب عند التعريف الإلهي لا نفس المحبة، ومن وجه آخر إذا قلنا: إن للحب الإلهي بدءاً، فبدؤه النفس الإلهي عن رؤية المحبوب، فصف الحب بما شئت من حادث وغيره، فليس الحب سوى عين المحب، فما في الوجود إلا محب ومحبوب.

(ف ح ٢ / ٣٢٧، ٣٢٩)

ذكر من أحبهم الله تعالى وآثار المحبة الإلهية فيهم:

حبه سبحانه للتوابين:

التواب صفته ومن أسمائه تعالى، يقول عز وجل ﴿إن الله هو التواب﴾ فما أحب إلا اسمه وصفته، وأحب العبد لاتصافه بها، ولكن إذا اتصف بها على حد ما أضافها الحق إليه، وذلـك أن الحق يرجع على عبده في كل حال، يكون العبد عليه مما يبعده من الله، وهو

المسمى ذنباً ومعصية ومخالفة، فإذا أقيم العبد في حق من أساء إليه من أمثاله وأشكاله، فرجع عليه بالإحسان إليه والتجاوز عن إساءته، فذلك هو التواب؛ ما هو الذي رجع إلى الله، فإنه لا يصح أن يرجع إلى الله إلا من جهل أن الله معه على كل حال، وما خاطب الحق بقوله: ﴿ ترجعون فيه إلى الله ﴾ إلا من غفل عن كون الله معه على كل حال.

فإذا كنت من التوابين على من أساء في حقك، كان الله تواباً عليك فيما أسأت من حقه، فرجع عليك بالإحسان، وقد جاء ذكره تعالى لهذه المحبة في التوابين عقب ذكر الأذى الذي جعله في المحيض، وكذلك قال عليه السلام: «إن الله يحب كل مفتن تواب» أي مختبر، يريد أن يختبره الله بمن يسيء إليه من عباد الله، فيرجع عليهم بالإحسان إليهم في مقابلة إساءتهم وهو التواب، لا أن الله يختبر عباده بالمعاصي، حاشا الله أن يضاف إليه مثل هذا. (ف ح ٢ / ٣٤١)

حبه سبحانه للمتطهرين:

قال تعالى: ﴿ ويحب المتطهرين ﴾ فالتطهير صفة تقديس وتنزيه، وهي صفته تعالى، وتطهير العبد هو أن يميط عن نفسه كل أذى لا يليق به أن يُرى فيه، وإن كان محموداً بالنسبة إلى غيره، وهو مذموم شرعاً بالنسبة إليه، فإذا طهر نفسه من ذلك أحبه الله تعالى، كالكبرياء والجبروت والتفخر والخيلاء والعجب، وكل إنسان يعلم عجزه وذلته وفقره لجميع الموجودات، وأن قرصة البرغوث تؤلمه، والمرحاض يطلبه لدفع ألم البول والخراءة عنه، ويفتقر إلى كسيرة خبز يدفع بها عن نفسه ألم الجوع، فمن صفته هذه كل يوم وليلة، كيف يصح أن يكون في قلبه كبرياء وجبروت؟! ولذلك طبع الله على القلب فلا يدخله شيء من ذلك، فإن كل إنسان يعرف ذلك من نفسه، وأما ظهوره على ظاهره فمُسَلَّم، ولكن جعل الله مواطن للعبد يظهر فيها بهذه الصفات ولا يكون مذموماً، وجعل لها مواطن يذمه فيها، فمن طهر ذاته عن أن تُرى عليه هذه النعوت في غير مواطنها، فهو متطهر ويحبه الله، كما نفى محبته عن كل مختال فخور، فإنه لا يظهر بهذه الصفة إلا من هو جاهل. والجهل مذموم، فإنه لا يخلو أن يفتخر على مثله أو على ربه وخالقه، فإن افتخر على مثله فقد افتخر على نفسه، والشيء لا يفتخر على نفسه، ففخره واختياله جهل، ومحال أن يفتخر على خالقه، لأنه لا بد أن يكون عارفاً بخالقه أو غير عارف بأن له خالقاً، فإن عرف وافتخر عليه

فهو جاهل بما ينبغي أن يكون لخالقه من نعوت الكمال، وإن لم يعرف كان جاهلاً، فما أبغضه الله ولم يحبه إلا لجهله، إذ لم يكن هذا في غير موطنه إلا لجهله، فالمتطهر من مثل هذه النعوت محبوب لله. (ف ح ٢ / ٣٤٢)

حبه سبحانه للمطهرين:

قال الله تعالى ﴿ والله يحب المطهرين ﴾ وهم الذين طهروا غيرهم كما طهروا نفوسهم، فتعدت طهارتهم إلى غيرهم، فقاموا فيها مقام الحق نيابة عنه، فإنه المطَهِّر على الحقيقة والحافظ والعاصم والواقي والغافر، فمن منع ذاته وذات غيره أن يقوم بها ما هو مذموم في حقها عند الله، فقد عصمها وحفظها ووقاها وسترها عن قيام أمثال هذه بها، فهو مطهر لها بما علَّمها مِنْ عِلْم ما ينبغي، لينفِّر عنه بنور العلم وحياته ظلمةَ الجهالة وموتها، فيكون في ميزانه يوم القيامة، ومن الأنوار التي تسعى بين يديه، وهو محبوب عند الله، مخصوص بعناية ولاية إلهية واستخلاف، والولاة الخلفاء من المقربين ممن استخلفهم عليهم، لأنهم موضع مقصور على من استخلفهم دون غيرهم، وكل إنسان والٍ على جوارحه فما فوق ذلك، وقد أعلمه الله بما هي الطهارة التي يطهر بها رعاياه.

(ف ح ٢ / ٣٤٢)

حبه سبحانه للصابرين:

وهو قوله تعالى: ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ وهم الذين ابتلاهم الله، فحبسوا نفوسهم عن الشكوى إلى غير الله الذي أنزل بهم هذا البلاء، ﴿ وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا ﴾ عن حمله، لأنهم حملوه بالله وإن شق عليهم، لا بد من ذلك، وإن لم يشق عليهم فليس ببلاء، ﴿ وما استكانوا ﴾ لغير الله في إزالته، ولجؤوا إلى الله في إزالته، كما قال العبد الصالح ﴿ مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ فرفع الشكوى إليه لا إلى غيره، فأثنى الله عليه بأنه وجده ﴿ صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ مع هذه الشكوى، فدل أن الصابر يشكو إلى الله لا إلى غيره، بل يجب عليه ذلك، لما في الصبر إن لم يشك إلى الله من مقاومة القهر الإلهي، وهو سوء أدب مع الله، والأنبياء عليهم السلام أهل أدب، وهم على علم من الله، فإنك تعلم أن صبرك ما كان إلا بالله، ما كان من ذاتك ولا من حولك ولا قوتك، فإن الله يقول: ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ فبأي شيء تفتخر وهو ليس

لك؟! فما ابتلى الله عباده إلا ليلجؤوا في رفع ذلك إليه، ولا يلجؤوا في رفعه إلى غيره، فإذا فعلوا ذلك كانوا من الصابرين وهو محبوب الله، ومن أسمائه تعالى النعتية «الصبور» فما أحب إلا من رأى خلعته عليه، ثم إن هنا سراً، وأقامك فيه مقامه، فإن الصبر لا يكون إلا على أذى، وقد عرّفنا أن في خلقه من يؤذي الله ورسوله، ونعتهم لنا لنعرفهم، فندفع ذلك الأذى عنه تعالى بمقاتلتهم، أو بتعليمهم إن كانوا جاهلين طالبين العلم، وقد سمى نفسه صبوراً، وقد رفع إلينا ما أوذي به وعرفنا بهم، لنذب عنه وندفع الأذى، مع الاتصاف بالصبور، لنعلم أنا إذا شكونا إليه ما نزل من البلاء، وسألناه في رفعه عنا ـ وسؤالنا إياه ـ لا يزول عنا اسم الصبر، فلا تزول عنا محبته، كما لم يزل عنه اسم الصبور بتعريفه إيانا من آذاه، حتى ندفع عنه، فإنه ورد في الصحيح: «ليس أحد أصبر على أذى من الله».

(ف ح ٢ / ٣٤٢)

حبه سبحانه للشاكرين:

وصف الحق نفسه في كتابه أنه ﴿ يحب الشاكرين ﴾ والشكر نعته فإنه شاكر عليم، فما أحب من العبد إلا ما هو صفة له ونعت، والشكر لا يكون إلا على النعم، لا على البلاء كما يزعم بعضهم ممن لا علم له بالحقائق، لأنه تعالى أبطن نعمته في نقمته، ونقمته في نعمته، فالتبس على من لا علم له بالحقائق ـ أي بحقائق الأمور ـ فتخيل أنه يشكر على البلاء وليس بصحيح، كشارب الدواء المكروه وهو من جملة البلاء، ولكن هو بلاء على من يهلك به، وهو المرض الذي لأجله استعمله، فالألم هو عدو هذا الدواء، إياه يطلب، ولكن لما قام البلاء بهذا المحل الواجد للألم، ورد عليه المنازع الذي يريد إزالته من الوجود، وهو الدواء، فوجد المحل لذلك كراهة، وعلم أن في طي ذلك المكروه نعمة لأنه المزيل للألم، فشكر الله تعالى على ما فيه من النعمة، وصبر على ما يكره من استعماله، لعلمه بأنه طالب ذلك الألم حتى يزيله، فما سعى إلا في راحة هذا المحل، فتفطن لهذا، فلهذا كان شاكراً، فلما شكره على ما في هذا المكروه من النعمة الباطنة، زاده نعمة أخرى، وهي العافية، وإزالة المرض وتصبره الدواء الكره عليه، ولذلك قال: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ فزاده العافية، وكذلك أيضاً لما أوذي الحق، وسعينا في إزالة ذلك المؤذي، بأن آذيناه أو سُسْنَاهُ حتى رجع عن الأمر الذي كان يؤذي الحق به، وأزال العبد هذا الأذى عن جناب الحق، شكره الله

على ذلك، والشكر يطلب المزيد، فطلب من عباده سبحانه بشكره أن يزيدوه، فزادوه في العمل، وهو قوله عليه السلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً» فزاد في العبادة لشكر الله له شكراً، فزاد الحق في الهداية والتوفيق في موطن الأعمال، حتى إلى الآخرة حيث لا عمل ولا ألم على السعداء، فاشحذ فؤادك واعلم أن الله شاكر عليم، فأردف وصف نفسه بالشكر بصفة العلم، فزِدْ في عملك تكن قد جازيت ربك على شكره إياك على ما عملت له، وذلك العمل هو الصوم فإنه له، ودفع الأذى عنه وهو قوله: «هل واليت فيّ ولياً أو عاديت فيّ عدواً» وهو قوله: «وجبت محبتي للمتحابين في، والمتزاورين في، والمتجالسين في، والمتباذلين في» والله يجعلنا ممن أنعم عليه فرأى نعمة الله عليه في كل حال فشكر.

(ف ح ٢ / ٣٤٣)

حبه سبحانه للمحسنين:

وهو قوله تعالى ﴿والله يحب المحسنين﴾ والإحسان صفته، وهو المحسن المجمل، فصفتَه أحب، وهي الظاهرة في نفسه، والإحسان الذي به يسمى العبد محسناً هو أن يعبد الله كأنه يراه، أي يعبده على المشاهدة، وإحسان الله هو مقام رؤيته عباده في حركاتهم وتصرفاتهم، وهو قوله ﴿إنه على كل شيء شهيد﴾ ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ فشهوده لكل شيء هو إحسانه، فإنه بشهوده يحفظه من الهلاك، فكل حال ينتقل فيه العبد فهو من إحسان الله، إذ هو الذي نقله تعالى، ولهذا سمى الإنعام إحساناً، فإنه لا ينعم عليك بالقصد إلا من يعلمك، ومن كان علمه عين رؤيته فهو محسن على الدوام، فإنه يراك على الدوام لأنه يعلمك دائماً، وليس الإحسان في الشرع إلا هذا، وقد قال له: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» أي فإن لم تحسن فهو المحسن، فالزم الحياء منه والوقوف عند ما كلفك، فإنه لما علم ﷺ أن العبادة على الغيب تصعب على النفوس قال: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» أي أحضر في نفسك أنه يراك، وهو نوع آخر من الشهود من خلف حجاب، تعلم أن معبودك يراك من حيث لا تراه ويسمعك، وإذا أضفنا إلى ذلك قوله ﷺ: «إن الله في قبلة المصلي» وإلى قوله: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» علمنا بذلك أنه ما أراد ﷺ المناجاة، وإنما أراد شهود من ناجاه فيها، ولهذا أخبر أن الله في قبلة المصلي، فقال «اعبد الله كأنك تراه»، فإنه ﷺ كان يراه في عبادته ما كان كأنه يراه، ولولا حصولها ما قرنها بالعبادة دون العمل، فما قال «اعمل

لله كأنك تراه» فإن العبادة من غير شهود صريح أو تخيل شهود صحيح لا تصح، ولذلك ما ذكر ﷺ العين في قوله: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» إلا لأن متعلق الرؤية إدراك عين المرئي، فإذا رآه قرت عينه بما رآه، فكان رسول الله ﷺ في حال صلاته صاحب رؤية وشهود، ولذلك كانت الصلاة محل قرة عينه لأنه مناج. (ف ح ٢ / ٣٤٤)

حبه سبحانه للمقاتلين في سبيل الله بوصف خاص:

قال تعالى ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ يريد لا يدخله خلل، فإن الخلل في الصفوف طرق الشياطين، والطريق واحدة وهي سبيل الله، وإذا قطع هذا الخط ـ الظاهر من النقط ـ ولم يتراص، لم يظهر وجود للخط، والمقصود وجود الخط، وهذا معنى الرص لوجود سبيل الله، فمن لم يكن له تعمل في ظهور سبيل الله فليس من أهل الله، وكذلك صفوف المصلين، لا تكون في سبيل الله حتى تتصل وتتراص الناس فيها، وحينئذ يظهر سبيل الله في عينه، فمن لم يفعل وأدخل الخلل، كان ممن سعى في قطع سبيل الله وإزالته من الوجود. واعلم أنه لما كان سبيل الله في إيجاد خلقه، إنما كان بتراص الأسماء الإلهية، فأراد الله من عباده التخلق بالأسماء، فتظهر في إيجاد الطريق المستقيم بتراصها، فإن داخلها في الكون خلل زال سبيل الله، وظهرت سبل الشياطين التي تتخلل خلل الصفوف، فإذا قام العبد بأسماء الحق، وقاتل بهذه الصفة الأعداء ـ الذين هم بمنزلة الشياطين التي تتخلل خلل الصف ـ فبالضرورة ينصرون، لأنه لم يبق هناك خلل يدخل منه العدو، فأحب الله مَنْ هذه صفتهم، وكذا الإنسان وحده، هو صف في كل ما هو فيه متحرك، فتكون حركاته كلها لله، لا يتخللها شيء لغير الله، فلا يقاومه أحد، فإن الأعداء أبصارهم إليه محدقة، ينظرون في حركاته وأفعاله، عسى يجدون خللاً يدخلون عليه منه، فيقطعون بينه وبين الله بقطع سبيل الله، ومن كان بهذه الصفة، كان محبوباً لله تعالى، ومن كان محبوباً، لم يدر أحد ما يعطيه محبه، إذ لنفسه يعطي. (ف ح ٢ / ٣٤٤)

الاتباع لرسول الله ﷺ فيما شرع:

قال تعالى: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ وقال ﷺ للرجل الذي قال له: «يا رسول الله إني أحب أن يكون نعلي حسناً وثوبي حسناً» «إن الله جميل يحب الجمال»

خرَّجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، وفي حديث عنه ﷺ «الله أولى من تُجُمِّل له» وأضاف الله الزينة إلى الله وأمرنا أن نتزين له، فقال: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ يريد وقت مناجاته، وهي قرة عين محمد ﷺ وكل مؤمن، لما فيها من الشهود، فإن الله في قبلة المصلي، ولا شك أن الجمال محبوب لذاته، فإذا انضاف إليه جمال الزينة، فهو جمال على جمال، كنور على نور، فتكون محبة على محبة، فقال ﷺ للرجل الذي سأله: إذ وقد أخبرت عن نفسك أنك تحب الجمال، وإن الله يحب الجمال، فإذا تجملت لربك أحبك، وما تتجمل له إلا باتباعي، فاتباعي زينتك؛ هذا قوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ أي تزينوا بزينتي يحببكم الله، فإن الله يحب الجمال، فتزيَّنْ تارة بنعتك من ذلة وافتقار، وخشوع وخضوع، وسجود وركوع، وتارة بنعته عز وجل من كرم ولطف ورأفة، وتجاوز وعفو وصفح، ومغفرة وغير ذلك، مما هو لله من زينة الله التي ما حرمها الله على عباده، فإذا كنت بهذه المثابة أحبك الله، لما جملك به من هذه النعوت، وهو الحب الذي ما فيه منة، لأن الجمال استدعاه، فتجمَّلْ إن أردت أن ترتفع عنك منة الله من هذا الوجه الخاص، ويكفيك حكم الامتنان بما وفقت إليه من التجمل بزينة الله، فإن ذلك إنما كان برحمة الله، ومن هنا نقول: للأحبة منزل في المحبة، فحبيب جنيب، وحبيب قريب، فالمحب إذا كان ذا جنابة فما هو من القرابة، وإذا لم يكن جنيباً كان قريباً، قرب الحبيب بالاشتراك في الصفة، وجنابته في عدم الاشتراك فيها كما أعطت المعرفة، تقرب إلي بما ليس لي، لما طلب القرب الولي، والذي ليس له الذلة والافتقار، فهو الغني العزيز الجبار.

(ف ح ٢ / ٣٤١ - ح ٤ / ٢٦٩)

واعلم أن لله محبتين أو تعلقين، محبته لعباده الذي هو خصوص إرادة، التعلق الأول حبه إياهم ابتداء، بذلك الحب وفقهم للاتباع، اتباع رسله سلام الله على جميعهم، ثم انتج لهم ذلك الاتباع تعلقين من المحبة، لأن الاتباع وقع من طريقين: من جهة أداء الفرائض، والتعلق الآخر من جهة ملازمة النوافل، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال الحديث وفيه: «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً» وإذا كان الحق سمع العبد وقواه في النوافل، فكيف بالحب الذي يكون من الحق له بأداء الفرائض؟

وهـو أن يكون الحق يريد بإرادة هذا العبد المجتبى، ويجعل له التحكم في العالم بما شاء بمشيئته تعالى، الأوليةِ التعلقِ التي بها وفقه، فاندرج هذا التعلق في الأول وهو قوله: ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ فحب المخلوق خالقه محصور بين حب الله الذي أوجب له أن يحبه، وحب جزاء محبته، فهو محفوظ عليه وجوده، وعلامة المحب اتباع المحبوب فيما أمر ونهى، في المنشط والمكره والسراء والضراء، ودليل المحب الحمد لله المنعم المفضل، ودليل المحبوب الحمد لله على كل حال، كان رسول الله ﷺ يقول في السراء: «الحمد لله المنعم المفضل» ويقول في الضراء: «الحمد لله على كل حال» هذا هو الثابت عنه، ذكره مسلم في الصحيح، فحب الاعتناء بالجزاف، عطاء بغير حساب ولا هنداز[1]، وحب الجزاء بالميزان، من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فله مثلها، حب الاعتناء منه، وحب الجزاء عنه، فإن حب الجزاء عرفناه بالتعريف، وحب الاعتناء عرفناه بالوجود والتصريف. (ف ح ٢ / ٣٤١ ـ ح ٤ / ٤١٣، ٤١٤)

وكل صفة ذكرها الحق أنه يحب من أجلها من قامت به، فما حصلت له تلك الصفة إلا بالاتباع، فإن رسول الله ﷺ سَنَّها، وذلك عن الله، فإنه ما ينطق عن الهوى، ومعنى الاتباع أن نفعل ما يقول لنا، فإن قال اتبعوني في فعلي اتبعناه، وإن لم يقل فالذي يلزمنا الاتباع فيما يقول، فينتج لنا الاتباع ـ فيما أمرنا به ونهانا عنه ـ الوقوف عند حدوده أن نتبعه في أفعاله في خلقه، ينتج لنا هذا آية، أي علامة على صدق الاتباع، وهي المسماة كرامة في حقنا، وآية في حق الرسل، فإنهم أيضاً تابعون، يقول عليه السلام «إن أتبع إلا ما يوحى إليّ» وهذه الكرامة هي الفعل بالهمة والتوجه من غير مباشرة، فيظهر على يد هذا العبد من خرق العوائد مما لا ينبغي أن يكون ـ إلا على ذلك الوجه من غير سبب إلا مجرد الإرادة ـ إلا لله تعالى، فإن ذلك الفعل إذا ظهر عن سبب موضوع ظاهر، لم يكن من هذا الباب، فالإنسان إذا اخترق الهواء ومشى فيه بمجرد الإرادة، لا بسبب ظاهر معتاد، أشبه فعل الحق في تكوين الأشياء بالإرادة، فهذا الفارق بينه وبين وقوع ذلك بالأسباب، وأصله التحقق بالاتباع، والمتَّبَع في التشريع إنما هو الله، والمتَّبع في الفعل بالإرادة إنما هو الله، والكل بعناية الله ومشيئته، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. (ف ح ٢ / ٣٤١)

---

(١) وحدة قياس مستعملة في بلاد الحجاز وغيرها.

أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه فالدين ديني وإيماني

يشير إلى قوله تعالى ﴿ فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فلهذا سماه دين الحب، ودان به ليتلقى تكليفات محبوبه بالقبول والرضى والمحبة، ورفع المشقة والكلفة فيها بأي وجه كانت، ولذا قال: أنّى توجهت، أي أية سلكت مما يرضي ولا يرضي، فهي كلها مرضية عندنا، وقوله «فالحب ديني وإيماني» أي ما ثَمَّ دين أعلى من دين قام على المحبة والشوق لمن أدين له به، وأمر به على غيب، وهذا مخصوص بالمحمديين، فإن محمداً ﷺ له من بين سائر الأنبياء مقام المحبة لكمالها، مع أنه صفي ونجي وخليل، وغير ذلك من معاني مقامات الأنبياء، وزاد عليهم أن الله اتخذه حبيباً، أي محباً محبوباً، وورثته على منهاجه.

(كتاب ترجمان الأشواق وذخائر الأعلاق)

نسبة الحب إلى الإنسان

ما هو الحب:

اعلم أن الحب معقول المعنى وإن كان لا يُحَدّ، فهو مُدْرَكٌ بالذوق غير مجهول، ولكنه عزيز التصور، فإن الأمور المعلومات على قسمين: منها ما يُحَدّ ومنها ما لا يُحَدّ، والمحبة عند العلماء بها المتكلمين فيها، من الأمور التي لا تحد، فيعرفها من قامت به ومن كانت صفته، ولا يعرف ما هي، ولا ينكر وجودها، ولهذا قلنا:

الحب ذوق ولا تُدرى حقيقته   ألـيس ذا عجـب والله والله

واختلف النـاس في حدِّ الحب، فما رأيت أحداً حده بالحد الذاتي، بل لا يتصور ذلك، فما حده من حده إلا بنتائجه وآثاره ولوازمه، ولاسيما وقد اتصف به الجناب العزيز وهو الله، فلا حد للحب يعرف به ذاتياً، ولكن يحد بالحدود الرسمية واللفظية، فمن حد الحب ما عرفه، ومن لم يذقه شرباً ما عرفه، ومن قال رويت منه ما عرفه[1]. فالحب شربٌ بلا ريٍّ، قال بعض المحجوبين «شربت شربة فلم أظمأ بعدها أبداً»، فقال أبو يزيد «الرجل من يحسو البحار ولسانه خارج على صدره من العطش» وأحسن ما سمعت فيه، ما حدثنا به غير واحد عن أبي العباس ابن العريف الصنهاجي، قال سمعناه وقد سئل عن المحبة فقال: «الغيرة من صفات المحبة والغيرة تأبى إلا الستر فلا تحد».

(ف ح ٢ / ٣٢٥، ١١١، ٣٢٥)

ولنا في هذا الباب:

الحـب أولـه تحـبٌ وأوسـطه   موت وليس له حد فينكشف
فمن يقـول بأن الحب يعـرفـه   فما لقـوم به أعـمارهـم شغفـوا
ولم يقـولـوا بأن الحب نعـرفـه   خلفٌ ولـكـنـه بالـقـلب يأتـلف
فليس يعـرف منـه غير لازمـه   البث والوجد والتبريح والأسف

(مسامرات / الجزء الثاني)

---

(١) سأل علي بن الحسين امرأة فقال: ما الحب؟ قالت: أخفى من أن يُرى، وأبين من أن يخفى، كمونه في الحشا كمون النار في الحجر، إن قدحته أورى، وإن تركته توارى، ثم أنشأت تقول:

إن المحبين في شغـل لسيـدهم   كفتيـة الكهف لا يدرون كم لبثـوا

(تفسير القرآن للتستري)

بماذا يتعلق الحب:

الحب تعلق خاص من تعلقات الإرادة، فلا تتعلق المحبة إلا بمعدوم غير موجود في حين التعلق. يريد المحب وجود ذلك المحبوب أو وقوعه، وإنما قلت أو وقوعه لأنها قد تتعلق بإعدام الموجود، وإعدام الموجود في حال كون الموجود موجوداً ليس بواقع، فإذا عدم الموجود الذي تعلقت به المحبة فقد وقع، ولا يقال وجد الإعدام، فإنه جهل من قائله، وقولنا: يريد وجود ذلك المحبوب، وأن المحبوب على الحقيقة إنما هو معدوم، فذلك أن المحبوب للمحب هو إرادة أوجبت الاتصال بهذا الشخص المعين كائناً من كان، إن كان ممن مِنْ شأنه أن يعانق فيحب عناقه، أو ينكح فيحب نكاحه، أو يجالس فيحب مجالسته، فما تعلق حبه إلا بمعدوم في الوقت من هذا الشخص، فيتخيل أن حبه متعلق بالشخص وليس كذلك، وهذا هو الذي يهيجه للقائه ورؤيته، فلو كان يحب شخصه أو وجوده في عينه فلا فائدة لمتعلق الحب به، فإن قُلْتَ: إنا كنا نحب مجالسة شخص أو تقبيله أو عناقه أو تأنيسه أو حديثه، ثم نرى تحصل ذلك، والحب لا يزول مع وجود العناق والوصال، فإذاً متعلق الحب قد لا يكـون معـدومـاً، قلنا: أنت غالط، إذا عانقت الشخص الذي تعلقت المحبة بعناقه أو مجالستـه أو مؤانستـه، فإن متعلق حبك في تلك حال، ما هو بالحاصل، وإنما هو بدوام الحاصل واستمراره، والدوام والاستمرار معدوم، ما دخل في الوجود ولا تتناهى مدته، فإذاً ما تعلق الحب في حال الوصلة إلا بمعدوم وهو دوامها، وما أحسن ما جاء في القرآن قوله ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ بضمير الغائب والفعل المستقبل، فما أضاف متعلق الحب إلا لغائب ومعدوم. وكل غائب فهو معدوم إضافي، فالمحبوب أمر عدمي، يتعلق المحب به أن يراه موجوداً في عين موجودة، فإذا رآه انتقل حبه إلى دوام تلك الحال التي أحب وجودها من تلك العين الموجودة، فلا يزال المحبوب معدوماً، وما يشعر بذلك أكثر المحبين إلا أن يكونوا عارفين بالحقائق ومتعلقاتها، فمن شأن المحبوب أن يكون معدوماً ولا بد، فيحب إيجاد ذلك المعدوم ولا بد لا في معدوم، هذا أمر محقق لا بد منه. (ف ح ٢ / ٣٢٧)

من حقائق المحبة:

الحب لا يقبل الاشتراك:

اعلم أن الحب لا يقبل الاشتراك، فلا يصح أن يحب المحب اثنين أصلاً، لأن القلب

لا يسعها، فإن قلت: هذا يمكن أن يصح في حب المخلوق، وأما في حب الخالق فلا، فإنه قال ﴿يحبهم﴾ فأحب كثيرين، قلنا: الحب مجهول النسبة إلى الله تعالى، فإن الله ليس كمثله شيء، فلا يعرف نسبة الحب إلى الحق إلا من يعرف ذات الحق، وهي لا تعرف، فلا تعرف النسبة، وتعرف المحبة فإنه ما خاطب عباده إلا بلسانهم، وبما يعرفونه من لحنهم من كل ما ينسبه إلى نفسه ووصف أنه عليه، ولكن كيفية ذلك مجهولة، وأما قولنا: إن الحب لا يقبل الاشتراك، ولكن إذا كانت ذات المحب واحدة لا تنقسم، فإن كانت مركبة جاز أن يتعلق حبها بوجوه مختلفة، ولكن لأمور مختلفة، وإن كانت العين المنسوب إليها تلك الأمور المختلفة واحدة، أو تكون تلك الأمور في كثيرين فيه، فتتعلق المحبة بكثيرين، فيحب الإنسان محبوبين كثيرين، وإذا صح أن يحب المحب أكثر من واحد، جاز أن يحب الكثيرَ الواحدُ، كما قال أمير المؤمنين:

ملك الثلاث الآنسات عناني ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وحللن من قلبي بكل مكان

هنا سر خفي في قوله عناني فأفرد، وما أعطى لهؤلاء المحبوبين من نفسه أعنة مختلفة، فدل أن هذا المحب وإن كان مركباً، فما أحب إلا معنى واحداً قام له في هؤلاء الثلاثة، أي ذلك المعنى موجود في عين كل واحدة منهن، والدليل على ذلك قوله في تمام البيت «وحللن من قلبي بكل مكان» فلو أحب من كل واحدة معنى لم يكن في الأخرى، لكان العنان الذي يعطى لواحدة غير العنان الذي يعطى الأخرى، ولكان المكان الذي تحله الواحدة غير المكان الذي تحله الأخرى، فهذا واحد أحب واحداً، وذلك الواحد المحبوب موجود في كثيرين، فأحب الكثير لأجل ذلك. (ف ح ٢ / ٣٣٥، ٣٢٩ ـ مسامرات ح ١)

الحب يعمي ويصم:

واعلم أن كل حب لا يحكم على صاحبه، بحيث أن يصمه عن كل مسموع سوى ما يسمع من كلام محبوبه، ويعميه عن كل منظور سوى وجه محبوبه، ويخرسه عن كل كلام إلا عن ذكر محبوبه وذكر من يحب محبوبه، ويختم على قلبه فلا يدخل فيه سوى حب محبوبه، ويرمي قفله على خزانة خياله، فلا يتخيل سوى صورة محبوبه، وإلا فليس بحب ولا صاحبه بمحب؛ فإن الأصل في المحبة أن تكون أنت عين محبوبك، وتغيب فيه عنك، فيكون هو

ولا أنت، ولهذا فإن الحق يغار على المحب أن يكون له وجود في نفسه لغير محبوبه، ألا ترى الملائكة المهيمة بجلال الله تعالى أمالها الحب عن رؤية ذاتها، ومشاهدة كونها.

(ف ح ٢ / ٣٢٥ ـ ذخائر الأعلاق)

لا يحب أحد محبوباً لنفس المحبوب وإنما يحبه لنفسه:

ومن عرف الحقائق قال: ليس من الخير حب الغير؛ فما أحب المحب في غيره إلا نفسه، فما أحب الغير، ولا يصح حب الغير أبداً، لأن حب الغير ما فيه خير، فإذا كان فيه خير يعود على المحب، فنفسه أحب، لأنه أحب إعادة ذلك الخير عليه، فإن ذلك الغير من حقيقته أن يكون له وجود ما هو عين هذا الآخر، والمحبوب كما قلنا أبداً لا يكون إلا معدوماً، إما في موجود أو لا في موجود، فإن الموجود محال أن يحب لذاته، وإنما يحب لأمر عدمي، ذلك الأمر العدمي هو المحبوب منه أن يكون، والعدم ليس بغير للمحب، ولا يزال هذا المعدوم المحبوب منوطاً بالمحب، لقيام حبه به وتعلقه بذلك المحبوب، فلا يزال متصلاً به وصل خيال حتى يقع في الحس، هذا شأنه في المخلوق، وفي الحق الإيجاد، فعلى الحقيقة لا يحب أحد محبوباً لنفس المحبوب، وإنما يحبه لنفسه، هذا هو التحقيق، فإن المعدوم لا يتصف بالإرادة فيحبه المحب له، ويترك إرادته لإرادة محبوبه، ولما لم يكن الأمر في نفسه على هذا، لم يبق إلا أن يحبه لنفسه. (ف ح ٤ / ٤٢٦)

عز الحب وذل المحب:

ولما كان الحب من صفات الحق حيث قال ﴿ يحبهم ﴾، ومن صفات الخلق حيث قال ﴿ ويحبونه ﴾، اتصف الحب بالعزة لنسبته إلى الحق ووصفِ الحقِ به، وسرى في الخلق بتلك النسبة العزية، فأورثت في المحل ذلة من الطرفين، فلهذا ترى المحب يذل تحت عز الحب لا عز المحبوب، فإن المحبوب قد يكون مملوكاً للمحب مقهوراً تحت سلطانه، ومع هذا تجده يذل له المحب، فعلمنا أن تلك عزة الحب لا عزة المحبوب، قال أمير المؤمنين هارون الرشيد في محبوباته:

ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكان

ما لي تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهن وهن في عصياني

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... ـ وبه قوين ـ أعز من سلطاني

فأضاف القوة إلى الهوى بقوله: «سلطان الهوى»، يقول الله في غير ما موضع من الأخبار متلطفاً بعباده: «يا عبادي اشتقت إليكم، وأنا إليكم أشد شوقاً» ويخاطبهم بنزول من لطف خفي، وهذا الخطاب كله لا يتمكن أن يكون منه إلا من كونه محباً، ومثل ذلك يصدر من المحبين له تعالى، فالمحب في حكم الحب لا في حكم المحبوب، ومَنْ هي صفته عينه، فعينه تحكم عليه لا أمر زائد، فلا نقص، غير أن أثره في المخلوقين التلاشي عند استحكامه، لأنه يقبل التلاشي، فلهذا يتنوع العالم في الصور، فيكون في صورة، فإذا أفرط فيها الحب من حيث لا يعلم، وحصل التجلي من حيث لا يظهر، تلاشت الصورة فظهرت في العين صورة أخرى، وهي أيضاً مثل الأولى في الحكم راجعة إليه، ولا يزال الأمر كذلك دائماً لا ينقطع. (ف ح ٢ / ١١٣)

سريان الحب في الوجود:

ثم إن من كرمه سبحانه أن جعل هذه الحقيقة سارية في كل عين ممكن متصف بالوجود، وقرن معها اللذة التي لا لذة فوقها، فأحب العالم بعضه بعضاً حبَّ تقييد، من حقيقة حب مطلق، فقيل فلان أحب فلاناً، وفلان أحب أمراً ما، وليس إلا ظهور حق في عين ما أحب، ظهور حق في عين أخرى، كان ما كان، فمحب الله لا ينكر على محب حُبَّ من أحب، فإنه لا يرى محباً إلا الله في مظهر ما، ومن ليس له هذا الحب الإلهي فهو ينكر على من يحب.

ثم إنه ثَمَّ دقيقة من كون من قال: إنه يستحيل أن يحب أحد الله تعالى، فإن الحق لا يمكن أن يضاف إليه ولا إلى ما يكون منه نسبة عدم أصلاً، والحب متعلقه العدم، فلا حب يتعلق بالله من مخلوق، لكن حب الله يتعلق بالمخلوق، لأن المخلوق معدوم، فالمخلوق محبوب لله أبداً دائماً، وما دام الحب لا يتصور معه وجود المخلوق، فالمخلوق لا يوجد أبداً، فاعطت هذه الحقيقة أن يكون المخلوق مظهراً للحق لا ظاهراً، فمن أحب شخصاً بالحب الإلهي فعلى هذا الحد يكون حبه إياه، فلا يتقيد بالخيال ولا بجمال ما، فإنها كلها موجودة له، فلا يتعلق الحب بها. (ف ح ٢ / ١١٣)

السكر من شراب الحب:

اعلم أن للحب شراباً هو تجل متوسط بين تجليين، وهو التجلي الدائم الذي لا

ينقطع، وهو أعلى مقام يتجلى الحق فيه لعباده العارفين، وأوله تجلي الذوق، ومن لم يذقه شرباً ما عرفه. (ف ح ٢ / ١١١)

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

(ف ح ٤ / ٢٨١)

وأما التجلي الذي يقع به الري فهو لأصحاب الضيق، فغاية شربهم ريٌّ، وأما أهل السعة فلا ريّ لشربهم، فإنه من قال: رويت من الحب ما عرفه، فالحب شرب بلا ري، قال بعض المحجوبين: شربت شربة فلم أظمأ بعدها أبداً، فقال أبو يزيد: «الرجل من يحسو البحار، ولسانه خارج على صدره من العطش». (ف ح ٢ / ١١١)

وكأس شراب الحب هو القلب من المحب، لا عقله ولا حسه، فإن القلب يتقلب من حال إلى حال، كما أن الله الذي هو المحبوب كل يوم هو في شأن، فيتنوع المحب في تعلق حبه بتنوع المحبوب في أفعاله، كالكأس الزجاجي الأبيض الصافي يتنوع بحسب تنوع المائع الحال فيه، فلون المحب لون محبوبه، وليس هذا إلا للقلب، فإن العقل من عالم التقييد، ولهذا سمي عقلاً من العقال، والحس فمعلوم بالضرورة أنه من عالم التقييد بخلاف القلب، وذلك أن الحب له أحكام كثيرة مختلفة متضادة، فلا يقبلها إلا من في قوته الإنقلاب معه فيها، وذلك لا يكون إلا للقلب. (ف ح ٢ / ١١٣)

وإذا أضفت مثل هذا إلى الحق فهو قوله: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ «وإن الله لا يمل حتى تملوا» «ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي» والشرع كله أو أكثره في هذا الباب، وشرابه عين الحاصل في الكأس، وقد بينا أن الكأس هو عين المظهر، والشراب عين الظاهر فيه، والشرب ما يحصل من المتجلي للمتجلى له، كل ذلك من تجليه سبحانه في اسمه الجميل، قال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال» وهو حديث ثابت، فوصف نفسه بأنه يحب الجمال، وهو يحب العالم، فلا شيء أجمل من العالم، وهو جميل، والجمال محبوب لذاته، فالعالم كله محب لله، وجمال صنعه سار في خلقه، فحب العالم بعضه بعضاً هو من حب الله نفسه، فإن الحب صفة الموجود، وما في الوجود إلا الله. (ف ح ٢ / ١١٣، ١١٤)

والجلال والجمال لله وصف ذاتي في نفسه وفي صنعه، فالجمال هو نعوت الرحمة والألطاف من الحضرة الإلهية باسمه الجميل، وهو الجمال الذي له الجلال المشهود في العالم، وأما الجلال فهو نعوت القهر من الحضرة الإلهية الذي يكون عنده الوجود، والهيبة التي هي من أثر الجمال، والأنس الذي هو من أثر الجلال، نعتان للمخلوق لا للخالق، ولا لما يوصف به، فإن الأنس مشاهدة جمال الحضرة الإلهية في القلب، وهو جلال الجمال، وأما الهيبة فهي مشاهدة جمال الله في القلب، وأكثر الطبقة يرون الأنس والبسط من الجمال، وليس كذلك، ولا يهاب ولا يأنس إلا موجود، ولا موجود إلا الله، فالأثر عين الصفة، والصفة ليست مغايرة للموصوف في حال اتصافه بها، بل هي عين الموصوف، فلا محب ولا محبوب إلا الله عز وجل، فما في الوجود إلا الحضرة الإلهية، وهي ذاته وصفاته وأفعاله.

(ف ح ٢ / ١٣٣، ١١٤)

وإذا علمت أن تغاير التجليات إنما كان من حيث ظهوره فيك، فوصف نفسه بالحب من أجلك، أسكرك هذا العلم ـ الحاصل لك من هذا التجلي ـ عن أن تكون أنت المحب له، أي المحب من أجله، فلم تحب أحداً من أجله، وهو أحب من أجلك[1]، فلو زلت أنت لم يتصف هو بالمحبة، وأنت لا تزول فوصفه بالحب لا يزول.

وإذا علمت أن شراب حبه إياك ـ وهو حبه إياك ـ أن تحبه، فإذا أحببته علمت حين شربت شراب حبه إياك، أن حبك إياه عين حبه إياك، وأسكرك عن حبك إياه، مع إحساسك بأنك تحبه، فلم تُفَرِّق، وهو تجلي المعرفة، فالمحب لا يكون عارفاً أبداً، والعارف لا يكون محباً أبداً، فمن هنا يتميز المحب من العارف، والمعرفة من المحبة، فحبه لك مسكر عن حبك له، وهو شراب الخمر، الذي لو شربه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء لغوت عامة الأمة، وحبك له لا يسكرك عن حبه لك، وهو شراب اللبن الذي شربه رسول الله ﷺ ليلة الاسراء، فأصاب الله به الفطرة التي فطر الله الخلق عليها، فاهتدت أمته في ذوقها وشربها، وهو الحفظ الإلهي والعصمة، وعلمت ما لها وما له في حال صحو وسكر، فشراب حبه لك هو العلم بأن حبك إياه من حبه إياك، فغيَّبك عن حبك إياه، فأنت محب لا محب، وهو المعبر عنه بالسكر، إذ السكران هو الذي لا يعقل. (ف ح ٢ / ١١٤)

(١) جاء في الحديث القدسي «يابن آدم خلقتك من أجلي وخلقت الأشياء من أجلك فلا تهتك ما خلقت من أجلي لما خلقت من أجلك».

هل الحب صفة نفسية في المحب؟ أو معنى زائد على ذاته؟ أو هو نسبة بين المحب والمحبوب لا وجود لها؟

المحب من شأنه إذا قام بالصورة أن يتنفس، لما في ذلك النفس من لذة المطلوب، فإن المحبة حكم يوجب رحمة الموصوف بها بنفسه، ولهذا يجد المتنفس راحة في نَفَسِه، فبروز النَفَس من المتنفس عين رحمته بنفسه، لذلك قلنا: إن العالم أظهره نَفَس الرحمن، لإزالة حكم الحب وتَنَفُّس ما يجد المحب، فالنَفَس أصله من حكم الحب، والحب له الحركة في المحب، والنَفَس حركة شوقية لمن تعشق به، وتعلق له في ذلك التنفس لذة، فالحب هو نَفْسُ المحب وعينه، لا صفة معنى فيه، يمكن أن ترتفع فيرتفع حكمها، والعلاقة هي النسبة بين المحب والمحبوب، والحب هو عين المحب لا غير.

(ف ح ٣/ ٤٢٩ ـ ح ٢/ ٣١٠، ١١١)

سبب الحب:

اعلم وفقك الله أن للحب سببين: الجمال والإحسان، ورد في الخبر في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال» فنبهنا بقوله جميل أن نحبه، وعذر المحبين بهذا الخبر، لأن المحب لا يرى محبوبه إلا أجمل العالم في عينه، فما أحب إلا ما هو جمال عنده، لا بد من حكم ذلك، فإنه لا شك أن الجمال محبوب لذاته، وهو تعالى صانع العالم، أوجده على صورته، وهو تعالى الجميل، فالعالم كله في غاية الجمال، ما فيه شيء من القبح، بل قد جمع الله له الحسن كله والجمال، فليس في الإمكان أجمل ولا أبدع ولا أحسن من العالم، ولو أوجد ما أوجد إلى ما لا يتناهى، إذ لو نقص منه شيء لنزل عن درجة كمال خلقه، فكان قبيحاً، ثم هدى، أي بيّن لنا ذلك بقوله: ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾، فلولا جمال الحق ما ظهر في العالم جمال، ولولا حسن العالم ما عُلِمَ حسن القديم.

(ف ح ٢/ ٣٤٥ ـ ح ٤/ ٢٦٩ ـ ح ٣/ ٤٤٩)

والسبب الآخر للحب هو الإحسان، وأكثر العباد يحبون إحسانه، فإن الإحسان مشهودهم، وما ثَمَّ إحسان إلا من الله، ولا محسن إلا الله، فإن أحببت الإحسان فما أحببت إلا الله، فإنه المحسن، وإن أحببت الجمال فما أحببت إلا الله تعالى فإنه الجميل، فعلى كل وجه ما متعلق المحبة إلا الله. (ف ح ٣/ ٤٥٠ ـ ح ٢/ ٣٢٦)

حب الجمال:

فمن أحب العالم لجماله فإنما أحب الله، فإنه ليس للحق منزه ولا مجلى إلا العالم، فإنه أوجده على صورته، فالعالم كله جماله ذاتي، وحسنه عين نفسه، إذ صنعه صانعه عليه.

(ف ح ٣ / ٤٥٠)

ولما كان الحق يتجلى في حضرة المثال في الصور في عالم التمثيل، وهو تجلٍ شهادي متنوع في الصور، جاء في الحديث: «رأيت ربي في صورة شاب، على رأسه تاج من ذهب وفي قدميه نعلان من ذهب»، كما جاء في مسلم عن تجلي الحق لأهل الموقف في القيامة، وتحوله في الصور بالعلامات، فهو هو، تجلٍّ شهاديٌّ متنوع في الصور، وفي هذه الحضرة تتجسد المعاني المجردة والمعارف والأرواح في الصور المثالية، فتظهر صوراً في الجسم المشترك، كما أخبر عليه السلام من أن الزهراوين البقرة وآل عمران، يأتيان يوم القيامة لهما لسانان وشفتان، يشهدان لمن قرأهما، وكالدِين في صورة القيد، والعلم في صورة اللبن، وكجبريل عليه السلام في صورة دحية وفي صورة الأعرابي، فيلحق هذه الصور ما يلزمها من رؤية وكلام وكل ما يلزم الصورة، وتنعت هذه الصورة المتجلى فيها بما تستحقه من جمال وضحك ودلال، إلى غير ذلك من النعوت والصفات، وكان لها التقييد بالزمان، فتتصف بالفراق والبين والهجران؛ ذكر مسلم في صحيحه في الحديث: «إن الله يضحك» وإذا تجسدت الأرواح وتمثلت في الصور الجسدية قبلت النعوت الطبيعية، ورد في الخبر: «إن جبريل وميكائيل يبكيان خوفاً من مكر الله». (ذخائر الأعلاق)

ولما كان العالم على صورة الحق، والإنسان بمفرده على صورة الحق، فله حضرة الاسم الجامع، فهو كالمرآة للحق، فالحق يتجلى للمحب والعارف في الخلق، وهو التجلي في الصور، فيؤدي ذلك إلى التعلق بالأكوان لما ظهر التجلي فيها، فحنين العارف والمحب أبداً إنما هو لموطن التجلي، من حيث التجلي لا من حيث الصور، فغرامه وتهيامه وتعلقه إنما هو بالتجلي، ما هو غرامه لمن يتجلى فيه إلا بحكم التبعية، كالتولع بمنازل الأحبة من حيث هي منازل لهم خاصة، لا من حيث هي منازل. (ذخائر الأعلاق)

جمال الصور جمال مطلق وجمال مقيد عرضي:

انقسم أهل الله في حب الجمال على قسمين: فمنا من نظر إلى جمال الكمال، وهو جمال

الحكمة، فأحب الجمال في كل شيء، لأن كل شيء محكم، وهو صنعة حكيم، فمن أحب العالم بهذا النظر فقد أحبه بحب الله، وما أحب إلا جمال الله، فجمال العالم جمال الله، وصورة جماله دقيقة، أعني جمال الأشياء، وذلك أن الصورتين في العالم ـ وهما مثلاً شخصان ـ ممن يحبهما الطبع، وهما جاريتان أو غلامان فقد اشتركا في حقيقة الإنسانية، فهما مِثْلان، وكمال الصورة التي هي أصول من كمال الأعضاء والجوارح، وسلامة المجموع والآحاد من العاهات والآفات، ويتصف أحدهما بالجمال فيحبه كل من رآه، ويتصف الآخر بالقبح فيكرهه كل من رآه، فما هو هذا الجمال الذي انطلق عليه اسم الجمال حتى أحبه كل من رآه؟ ـ هذا إذا وقع حب الشخص من مجرد الرؤية، لا بعد الصحبة والمعاشرة ـ هذا هو الجمال العرضي الذي تعرفه العامة، لا جمال الحكمة، فمنا من لم يبلغ مرتبته من نظر إلى جمال الكمال وهو جمال الحكمة، وما عنده علم بالجمال إلا هذا الجمال المقيد الموقوف على الغرض، وهو في الشرع موضع قوله: «اعبد الله كأنك تراه» فجاء بكاف الصفة، فتخيل هذا الذي لم يصل إلى فهمه أكثر من هذا الجمال المقيد فقيده به، كما قيده بالقِبْلة[1] فأحبه لجماله ولا حرج عليه في ذلك، فإنه أتى بأمر مشروع له، على قدر وسعه، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وكذا نفوس العامة يتعلق حبها بجارية أو غلام أي شيء كان، فهم أهل الجمال العرضي، والحب العرضي ظل زائل، وغرض مائل، وجدار مائل، وهذا الجمال العرضي المقيد، إنما هو الجمال المطلق الساري في العالم، وفي هذا الجمال العرضي يفضل آحاد العالم بعضه على بعض، بين جميل وأجمل، وراعى الحق ذلك على ما أخبر به نبيه ﷺ في قول الصحابي له: «إني أحب أن يكون نعلي حسناً وثوبي حسناً» فقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال». (ف ح ٢ / ٢٨٢، ٣٤٥ـ ح ٣ / ٤٤٩)

والجمال المقيد يدرك بأول وهلة، وإدراك الجمال المطلق يُحتاج فيه إلى غور بعيد، وقوة يشق بها الرائي حجاب الطبع إلى إدراك الجمال الإلهي المودع في ذلك القبح.

(ف ح ٢ / ٥٧٤)

وأقول أنا جامع هذا الكتاب: إن الجمال المقيد يستند إلى حقيقة التجلي الإلهي في الصور، وهو أي الجمال العرضي في الأكوان، مقيد بالحصر والحد والمقدار، والمناسبة

(١) يعني قوله ﷺ «إن الله في قبلة المصلي».

والمشاكلة والذوق والطبيعة، فهو في آحاد العالم بين جميل وأجمل، وقد راعى الحق حب الجمال العرضي بالبشرية، فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك ﴾ فأثبت له ﷺ حب الجمال العرضي، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ لما ذكر له جمال صفية بنت حيي أم المؤمنين تزوج بها، كما ذكر له عن جمال امرأة من العرب فأرسل يخطبها لنفسه، ولم يزل جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي ـ وكان أجمل أهل زمانه ـ، ويبلغ من أثر جماله في الخلق أنه لما قدم المدينة واستقبله الناس، ما رأته امرأة حامل إلا ألقت ما في بطنها من حسن صورته، فكان نزول جبريل عليه السلام في صورة دحية، كأن الحق يبشر نبيه ﷺ ويقول له: «يا محمد ما بيني وبينك إلا صورة الحسن والجمال» يخبره تعالى بها له في نفسه بالحال، إذ كان الرسول حسن الصورة، فذلك إشارة إلى المرسل إليه، وتعريف بجمال المكانة والسورة، فحصلت البشرى للرسول وإدراك البغية بنزول جبريل عليه في صورة دحية. أ هـ.

أقـول للقـلب قد أوردتني سقـما | فقـال عيـنـاك قادتني إلى تلف
لو لم تر العين لم تمس حليف ضنى | وإن أمت فيه ما في الحب من خلف
لذاك قسّمت ما عنـدي على بدني | من الضنى والجوى والـدمع والأسف

(مسامرات / ح ٢)

حب النساء:

جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «خلق الله آدم على صورته» وقال ﷺ في حديث صحيح آخر: «إن الله جميل يحب الجمال» وما أعلَمُ أن الله سبحانه تجلى لأحد من خلقه في اسمه الجميل إلا للإنسان، وفي الإنسان خاصة، فلهذا ما فني وهام في حبه بكليته إلا في ربه، أو فيمن كان مجلى ربه[1]، ومن هنا حبب لرسول الله ﷺ النساء، فإن الحب أعظم شهوة وأكملها، والشهوة آلة النفس، تعلو بعلو المشتهى، وتسفل باستفال المشتهى، وكل صفة لنا نحو عنصرها تطلبه، مثل الشوق يعلو نحو عنصره الذي هو الشوق الأعظم، الموصوف به الجناب العالي، وكالمحبة منا تطلب المحبة الإلهية من قوله: ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فحبنا نتيجة عن حبه، فإن التجليات في أوقات تقع في الصور الجميلة

(١) يريد الحديث «خلق الله آدم على صورته».

الحسنة في عالم التمثيل، والشهوة إرادة الالتذاذ بما ينبغي أن يلتذ به، واللذة لذتان: روحانية وطبيعية، والنفس الجزئية متولدة من الطبيعة وهي أمها، والروح الإلهي أبوها، فالشهوة الروحانية لا تخلص من الطبيعة أصلاً، وبقي من يلتذ به، فلا يلتذ إلا بالمناسب، والإنسان فيه مناسب من كل شيء في العالم، فيضاف كل مناسب إلى مناسبه بأظهر وجوهه، ولا مناسبة بيننا وبين الحق إلا بالصورة، والتذاذ الإنسان بكماله أشد الالتذاذ، فالتذاذه بمن هو على صورته أشد التذاذ، برهان ذلك أن الإنسان لا يسري في كله الالتذاذ، ولا يفنى في مشاهدة شيء بكليته، ولا تسري المحبة والعشق في طبيعة روحانيته، إلا إذا عشق جارية أو غلاماً، وسبب ذلك أنه يقابله بكليته لأنه على صورته، وكل شيء في العالم جزء منه، فلا يقابله إلا بالجزء المناسب، فلذلك لا يفنى في شيء يعشقه إلا في مثله، فإذا وقع التجلي الإلهي في عين الصورة التي خلق آدم عليها، طابق المعنى المعنى، ووقع الالتذاذ بالكل، وسرت الشهوة في جميع أجزاء الإنسان ظاهراً، ألا ترى إلى قيس المجنون في حب ليلى، كيف أفناه عن نفسه لما ذكرناه؟ فمن عرف قدر النساء وسرهن لم يزهد في حبهن، بل من كمال العارف حبهن، فإنه ميراث نبوي وحب إلهي، قال رسول الله ﷺ: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة» فذكر النساء، أترى حبب إليه ما يبعده عن ربه؟، لا والله بل حبب إليه ما يقربه من ربه، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك ﴾ فأبقى عليه رحمة به ـ لما جعل في قلبه من حب النساء ـ ملك اليمين، قال ﷺ: «حُبِّب إليَّ» فلم ينسب حبه فيهن إلا إلى الله تعالى.

(ف ح ٤ / ٢٥٩ ـ ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٢ / ١٨٩ ـ ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٢ / ١٨٩، ١٩٠)

فحنين الرجل إلى المرأة حنين الشيء إلى نفسه، فإن حواء خلقت واشتقت من آدم، وحنين المرأة إلى الرجل حنين الشيء إلى وطنه، فالمرأة خلقت منفعلة عن الرجل ليحن إليها حنين من ظهرت سيادته بها، فهو يحبها محبة من أعطاه درجة السيادة، وهي تحن إليه حنين الجزء إلى الكل، وهو حنين الوطن، لأنه وطنها، مع ما يضاف إلى ذلك من كون كل واحد موضعا لشهوته والتذاذه.

(فصوص الحكم / الفص المحمدي ـ ف ح ١ / ٦٧٩)

والحقيقة الإلهية في ذلك، أن الحق أحب من خَلَقَ على صورته، وأحبه كل مخلوق فإنه صادر عنه، فحن الرجل إلى ربه ـ الذي هو أصله ـ حنين المرأة إليه، فحبب إليه ﷺ النساء، كما أحب الله من هو على صورته، فما وقع الحب إلا لمن تكوَّن عنه، وقد كان حبه لمن تكون منه، وهو الحق. **(فصوص الحكم / الفص المحمدي)**

تحقيق:

لا يفنى الإنسان في حبه نَفْسَه للقرب المفرط، الذي ما يكون مثله قرب إليه البتة، كذلك لا يفنى الإنسان في حب ولده ولا ماله ولا أهله، لأنه منوط بقلبه بمنزلة نفسه للقرب المفرط، فإنه يخفى ذلك فيه، فإن اتفق أن يطلق امرأته، وقد كان حبه إياها كامناً فيه لا يظهر لإفراط القرب، أخذه الشوق إليها وهام فيها وحن إليها، لبعدها عن ذلك القرب المفرط، لتعلق الشوق والوجد بها، ولهذا يفنى العاشق في معشوقه الأجنبي، لأنه ليس له ذلك القرب الظاهر، الذي يحول بينه وبين الاشتياق إليه، ولقرب الحق من قلوب العارفين ـ بالعلم المحقق الذوقي الذي وجدوه ـ لهذا صحوا، ولم يهيموا فيه هيمان المحبين لله من كونه تجلى لهم في جمال مطلق، وتجليه للعلماء في كمال مطلق، وأين الكمال من الجمال؟ فإن الأسماء في حق الكامل تتمانع، فيؤدي ذلك التمانع إلى عدم تأثيرها فيمن هذه صفته، فيبقى منزهاً عن التأثير، مع الذات المطلقة التي لا تقيدها الأسماء ولا النعوت، فيكون الكامل في غاية الصحو كالرسل وهم أكمل الطوائف، لأن الكامل في غاية القرب، يظهر به في كمال عبوديته، مشاهداً كمال ذات موجده، ولهذا قلنا: العارف لا يكون محباً، والمحب لا يكون عارفاً. **(ف ح ٢ / ٦١٥)**

حب الخيال:

لما كان الحب الطبيعي سببه نظرة أو سماع، فيحدث في خيال الناظر مما رآه ـ إن كان المحبوب ممن يدرك بالبصر ـ وفي خيال السامع مما سمع، فحمله في نشأته، فصوَّره في خياله بالقوة المصورة، وقد يكون المحبوب ذا صورة طبيعية مطابقة لما تصور في الخيال، أو دون ذلك أو فوق ذلك، وقد لا يكون للمحبوب صورة ولا يجوز أن يقبل الصور، فصوّر هذا المحب من السماع ما لا يمكن أن يتصور، ولم يكن مقصود الطبيعة في تصوير ما لا يقبل

الصورة، إلا اجتماعها على أمر محصور ينضبط لها مخافة التبديد، والتعلق بما ليس في اليد منه شيء، فهذا هو الداعي لما ذكرناه من تصوير من ليس بصورة، أو من تصوير من لم يشهد له صورة وإن كان ذا صورة، وفِعْلُ الحب في هذه الصورة أن يُعَظِّمَ شخصها، حتى يضيق محل الخيال عنها فيما يخيل إليه، فتثمر تلك العظمة والكبر أحوالاً نذكرها في الحب الطبيعي، وقد تلتبس تلك الصورة في خيال المحب، فتلصق بصورة نفسه المخيلة له، وإذا تقاربت الصورتان في خياله تقارباً مفرطاً، وتلتصق به لصوق الهواء بالناظر، يطلبه المحب في خياله فلا يتصوره، ويضيع ولا ينضبط له للقرب المفرط، فيأخذه لذلك خبال وحيرة، حتى إذا تقوت تلك الصورة في خيال المحب، أثرت في المحبوب تأثير الخيال في الحس، مثل الذي يتوهم السقوط فيسقط، أو يتوهم أمراً ما مفزعاً فيتغير له المزاج، فتتغير صورة حسه، كذلك هذه الصورة إذا تقوت أثرت في المحبوب، فقيدته وصيرته أشد طلباً لها منها، فإن النفوس قد جبلت على حب الرياسة، والمحب عبد مملوك بحبه لهذا المحبوب، فالمحبوب لا يكون له رياسة إلا بوجود هذا المحب، فيعشقه على قدر عشقه رياسته، وإنما يتيه عليه للطمأنينة الحاصلة في نفس المحبوب بأن المحب لا يصبر عنه، وهو طالب إياه، فتأخذه العزة ظاهراً، وهو الطالب له باطناً، ولا يرى في الوجود أحداً مثله لكونه ملكه، كما أن من شأن الحب الطبيعي، أن تكون الصورة التي حصلت في خيال المحب على مقدار المحل الحاصلة فيه، بحيث لا يفضل عنها منه ما يقبل به شيئاً أصلاً، وإن لم يكن كذلك فما هو صورة الحب، وبهذا تخالف صورة الحب سائر الصور. (ف ح ٢ / ١١٥)

وكما سبق أن ذكرنا أن العالم كله في غاية الجمال، فإن العالم ثلاث حضرات: عالم الغيب، وعالم الشهادة، وعالم الخيال، فسبحان واضع الحكم وناصب الآيات، ومُظهِر جمال الدلالات، فمن أجملها عيناً وأكملها كوناً عالم الخيال، يدرك الرائي فيه ما يكون قبل كونه وما كان، وما هو الوقت عليه، فهو الحضرة الجامعة، وكل من تعشق بأمر ما، فما تعشق به إلا بعد أن حصله في خياله، وجعل له في وهمه مثالاً، وطبق محبوبه على مثاله، ولو لم يكن الأمر كذلك، لكان إذا فارقه من تعلق به بصره أو سمعه أو أي شيء من حواسه، فارق التعلق به، ونحن لا نجد الأمر كذلك، فدل على أن المحبوب عند المحب على مثال صوّره وأنشأه في خياله، فلزم مشاهدته، فتضاعف وجده وتزايد حبه، وصار ذلك المثال

الذي صوّره يحرض مصوره على طلب مَنْ صوَّره على صورته، فإن ذلك الأصل هو روح هذا الخيال، وبه بقاؤه، وهو الذي يحفظه، وما اشتد حب المحب إلا في صنعته وفعله، فإن الصورة التي تعشق بها في خياله هي من صنعته، فما أحب إلا ما هو راجع إليه، فبنفسه تعلق وعلى فعله أثنى، فمن علم هذا علم حب الله عباده، وأنه تعالى أشد حباً فيهم منهم فيه، بل لا يحبونه عيناً، وإنما يحبون إحسانه، فإن الإحسان هو مشهودهم، ومن أحبه عيناً فإنما أحب مثالاً صوّره في نفسه وتخيله، وليس إلا المشبهة خاصة، فكل محب لولا التشبيه ما أحبه، ولولا التخيل ما تعلق به، ولهذا جعله الشارع في قِبْلَته ووسعه قلب عبده، وجعله من القرب به كهو أو كبعض أجزائه، فمثل هؤلاء عبدوه ممثلاً، وشاهدوه محصلاً.

(ف ح ٣ / ٤٥٠)

ولما كان الخيال هو الحضرة التي يتجلى فيها الحق، وكان التجلي على ما هو المتجلي عليه في نفسه لنفسه مُحَالٌ حصوله لأحد، فلا يقع التجلي إلا من دون ذلك، أي على قدر طاقة المتجلى له، فإنه لو تجلى على ما هو عليه في نفسه لنفسه لأحد، لأحاط المتجلى له علماً به، وهو محال، فالفائدة من جانب الحق لعباده بكل ما أعطى التقييد، فإنه إذا تقييد تميز وتعينت المرتبة، ولهذا يدعو الحق قلوب المحبين إلى حسن جماله المقيد، فإن اللحظ المطلق لا تقع به الفائدة في العالم أصلاً، فالمشهد الذاتي لا يتحصل منه علم في نفس المشاهد، لأنه تجلى في غير صورة مادية، فلم يكن للخيال ما يضبطه به، فلم يكن للعقل ما يعقله، إذ لا يدخل تحت كيف ولا كم ولا حال ولا نعت ولا وصف، فالمشهد الذاتي لا ينتج شيئاً في قلب العبد، لأنه لا ينضبط ولا يتحصل منه سوى شهوده عند خفقانه، فإنه تعالى أن يحصره كون أصلاً، بخلاف التجلي في الصورة في عالم التمثيل، فإن الرائي يضبط صورة ما تجلى له ويعبر عنها، فالتجلي الصوري أليق بالعاشق، والمشهد الذاتي أتم للعارف.

(ذخائر الأعلاق)

والمحب الإلهي إذا رأى الحق في الخلق، والتجلي الإلهي في الصور، أداه ذلك إلى التعلق بالأكوان، وهي الصور الطبيعية في عالم الشهادة، لما ظهر التجلي فيها، فغرامه لمن يتجلى فيه الحق بحكم التبعية، كالتولع بمنازل الأحبة من حيث هي منازل لهم خاصة، لا من حيث هي منازل، ولو وقع تجلي الحق على القلوب ـ وهو تجلي الهوية ـ لحنّ أيضاً هذا

المحب إلى عالم التنزيه والغيب، من حيث ما قد شاهد أيضاً محلاً للتجلي في تجل أنزه من تجلي الصور في عالم الشهادة، فحنين المحب الإلهي أبداً لمواطن التجلي من حيث التجلي، لا من حيث هي، فإذا تجلى الحق في عالم الصور، كان في باطن تلك الصور مطلب العارف، والمحب مغيب مبطون فيها، ولهذا يورث التجلي في الصور حالاً، وأما التجلي على القلوب فيورث علماً. (ذخائر الأعلاق)

ولما كان المحب لله في هذه الدار الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً، والإنسان في هذه الدار الدنيا مُرَكَّب من العناصر، وهو مدبر لهذا المركب، لم يتمكن له دوام الرؤية بحكم الاتصال، فإنه مطلوب بإقامة ملك بدنه وتدبيره، فلا بد من الحجاب بينه وبين المطلوب، الذي تيمه وهيمه وهيجه بنيران النظرة إلى التجلي، فلا يكون التجلي إلا كالبرق في نوره وسرعة زواله، وهو الوقت الذي لا يسعه فيه غير ربه، فإنه لا حجاب لقلوب العارفين إلا هذا العالم الطبيعي، والمناظر العلى متأهبة لإدراكات قلوب العارفين، وعالم الطبيعة يحجبها عن إدراك تلك المناظر، فالقلوب لها أوقات مع الله تعالى، وأوقات مع نفوسها وحظوظها، فإذا سمعت المحقق يطلب التجرد من الهيكل الطبيعي، والتحاق روحه بعالمها البسيط، أي يطلب الموت، فاعلم أنه يطلب التجرد عنه حالاً وفناءً لا انفصال علاقة، لما للروح بوجود هذا الهيكل المركب من المزيد فيما هي بسبيله، فبقاء عين الكون ظهور الحضرة الإلهية وأسمائها الحسنى، وهو جمال الكون، فلو ذهب الكون لم تُعْلَم، فبالرسوم والجسوم انتشرت العلوم، وتميزت الفهوم، وظهر الاسم الحي القيوم، فسبحان من أرسل رحمته عامة على خلقه وكونه، لشهود صنعته وعينه. (ذخائر الأعلاق)

فمحب يتمثل أن وجود اللذة بمحبوبه في الحس أعظم منها في الخيال، فذلك لغلبة الكثافة على هذا المحب، ويغفل عن لذة التخيل في حال النوم، فإنه أشد من التذاذه بالخيال، لأنه أشد اتصالاً به من الخيال، والاتصال بالخيال أشد من الاتصال من خارج وهو المحسوس، فلذته بالمعنى أشد اتصالاً من الخيال، وطائفة من المحبين نظرت إلى المثال الذي في خيالها من ذلك الموجود، الذي يظهر محبوبه فيه، ويعاين وجود محبوبه، وهو الاتصال به في خياله، فيشاهده متصلاً به اتصال لطف ألطف منه في عينه في الوجود الخارج، وهو الذي اشتغل به قيس المجنون عن ليلى حين جاءته من خارج، فقال لها:

«إليك عني» لئلا تحجبه كثافة المحسوس منها عن لطف هذه المشاهدة الخيالية، فإنها في خياله ألطف منها في عينها وأجمل، وهذا ألطف المحبة، وصاحب هذا النعت لا يزال منعماً لا يشكو الفراق، ولنا في هذا النعت اليد الطولى في المحبين، فإن مثل هذا في المحبين عزيز الوجود، لغلبة الكثافة عليهم، وسبب ذلك عندنا أنه من استفرغ في حب المعاني المجردة عن المواد، فغايته إذا كثفها أن ينزلها إلى الخيال، ولا ينزل بها أكثر، فمن كان أكثفُ حالهِ الخيالَ، فما ظنك بلطافته في المعاني؟! وهذا الذي حاله هذا هو الذي يمكن أن يحب الله، فإن غايته في حبه إياه إذا لم يجرده عن التشبيه، أن ينزله إلى الخيال، وهو قوله عليه السلام: «اعبد الله كأنك تراه» فإذا أحببنا ونحن بهذه الصفة موجوداً، نحب ظهور محبوبنا فيه من المحسوسات عالم الكثائف، نلطفه بأن نرفعه إلى الخيال لنكسوه حسناً فوق حسنه، ونجعله في حضرة لا يمكنه الهجر معها ولا الانتقال عنها، فلا نزال في اتصال دائم، ولنا في ذلك:

ما لمجـنـون عامـر من هواه   غير شكـوى البعاد والاغتراب
وأنـا ضده فإن حـبـيـبـي   في خيـالي فلم أزل في اقـتراب
فحـبـيـبـي مني وفيَّ وعـنـدي   فلماذا أقـول ما بي ومـا بي

وقـد بلغ بي قوة الخيال، أن كان حبي يجسد لي محبوبي من خارج لعيني، كما كان يتجسد جبريل لرسول الله ﷺ، فلا أقدر أنظر إليه، ويخاطبني وأصغي إليه وأفهم عنه، ولقد تركني أياماً لا أسيغ طعاماً، كلما قدمت لي المائدة يقف على حرفها وينظر إليَّ، ويقول لي بلسان أسمعه بأذني: تأكل وأنت تشاهدني!!! فأمتنع عن الطعام ولا أجد جوعاً، وأمتلىء منه حتى سمنت وعبلت من نظري إليه، فقام لي مقام الغذاء، وكان أصحابي وأهل بيتي يتعجبون من سمني مع عدم الغذاء، لأني كنت أبقى الأيام الكثيرة لا أذوق ذواقاً، ولا أجد جوعاً ولا عطشاً، ولكنه لا يبرح نصب عيني في قيامي وقعودي وحركتي وسكوني.
(ف ح ٢ / ٣٣٨، ٣٣٧، ٣٢٥)

لذا قلنا إن حب أهل الله يكون تعلقه حب جمال إلهي متخيل، اكتسبوه من ألفاظ نبوية وقوله في التجريد: «اعبد الله كأنك تراه» فيأخذه الوجد على ما تخيله، فإن القلب والباطن، لا يتمكن للمعارف - فكيف للمحب - أن يمر عليه نفس ولا حال لا يكون المحبـوب فيه مشهـوداً له بعـين قلبـه ووجـوده، ومـا بقي حجاب إلا في الحس بإدراكه المحسوسات، حيث يراها ليست عين محبوبه فيحجبه، فيطلب اللقاء لأجل هذا الحجاب،

فإذا ذهب المحسوس عن حسه في ظاهر الصورة، كما يذهب في حق النائم، انصرف الحس إلى الخيال، فرأى مثال محبوبه في خياله، وقرب من قلبه، فرآه من غير مثال، لأن الخيال ما بينه وبين المعنى واسطة ولا درجة، كما أنه ليس بينه وبين المحسوس واسطة ولا درجة، فهو واسطة العقد، إليه ينزل المعنى وإليه يرتفع المحسوس، فهو يلقى الطرفين بذاته وهو أوسع الحضرات، فإنه الحضرة التي يتجلى فيها الحق لعباده وتظهر فيها الأسماء الإلهية ممثلة، فهو حضرة تجسد المعاني والروحانيات، ولذلك كان مسرح عيون العارفين، فإذا انتقل العارف أو المحب من المحسوس إلى الخيال، قرب من معنى المحبوب، فشاهده في الخيال، ممثلاً ذا صورة، وشاهده وهو في الخيال، لما عدل بنظره إلى حضرة المعاني المجاورة لحضرة الخيال، عاين المعنى مجرداً عن المثال والصورة، ثم نظر إلى المثال وإلى المحسوس، فعلم أنه لو تصور هذا المعنى في المحسوس لكان جميع صور المحسوسات صورته[1]، فغاب هذا الشاهد عن شهود كل محسوس أنه غير صورة محبوبه، بل كل محسوس صورته محبوبه ولا بد، فذهب عند صورة المحسوس أنها غير صورة محبوبه، فصار يشاهده في كل شيء، فهذا المحب ذاهبٌ في صور المحسوسات كلها أنها صورة عين محبوبه، فلا يزال في اتصال دائم في عالم الحس وفي حضرة الخيال وفي حضرة المعاني، ولهذا يقول:

أنــا من أهــوى ومــن أهــوى أنــا

ومثل هذا قلنا في قصيدة:

أنــا محبــي أنــا حبيبــي أنــا فتــاي أنــا فتــاتي

وقلنا أيضاً:

فإنــني ما عشــقــت غيري فعين فصلي عين اتصــالي

(ف ح٢/ ٣٤٥، ٣٨٩، ٣٩٠)

فكما أنه لا يُفْتَقَر إلى غيره تعالى، كذلك والله لا يُحَبُّ في الموجودات غيره، فهو الظاهر في كل محبوب لعين كل محب، وما في الوجود إلا محب، فأعيُن العالم المحبون منه، كان المحبوب ما كان، فإن جميع المخلوقين منصات تجلي الحق، فالعالم كله محب محبوب، وكل ذلك راجع إليه، فكما أنه لا يُعبد سواه بقوله: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ كذلك

(١) مثال ذلك أن رسول الله ﷺ كان كلما شرب لبناً في الحس، تذكر شربه اللبن في الرؤيا، وهو العلم، فكان يدعو ويقول: «اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه».

الحب، ما أحب أحد غير خالقه، ولكن احتجب عنه تعالى بحب زينب وسعاد وهند وليلى والدنيا والدرهم والجاه وكل محبوب في العالم، فأفنت الشعراء كلامها في الموجودات وهم لا يعلمون، والعارفون لم يسمعوا شعراً ولا لغزاً ولا مديحاً ولا تغزلاً إلا فيه من خلف حجاب الصورة، وسبب ذلك الغيرة الإلهية أن يُحَبَّ سواه، فإن الحب سببه الجمال وهو له، لأن الجمال محبوب لذاته، والله جميل يحب الجمال، فيحب نفسه.

(ف ح ٢ / ٣٢٦ - ح ٤ / ٢٦٠ - ح ٢ / ٣٢٦)

فمَنْ ليلى ومن لبنى ... ومن هند ومن بثنة
ومن قيس ومن بشر ... أليسوا كلهم عينه
لقد أصبحت مشغوفاً ... به إذ كان لي كونه
فكل الخلق محبوبي ... فأين مهيمي أينه
فمن يبحث على قولي ... يجد في بينه بينه

(ف ح ٣ / ٤٤٩)

فما هيَّم الله تعالى بشراً وجميلاً وابن الدريج، وابتلاهم بحب أمثالهم، هند وبثينة ولبنى، إلا ليقيم بهم الحجة على من ادعى محبته، ولم يهم في حبه هيمان هؤلاء، حين ذهب الحب بعقولهم وأفناهم عنهم، لمشاهدات شواهد محبوبهم في خيالهم، فأحرى من يزعم أنه يحب من هو سمعه وبصره، ومن يتقرب إليه أكثر من تقربه ضِعْفاً بقوله تعالى: « من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً » (حديث قدسي). (ذخائر الأعلاق)

التجلي الإلهي في حضرة الخيال:

اعلم أن الحق له تجليان في عالم الشهادة: أحدهما التجلي الذاتي، وهو كالبرق في نوره وسرعة زواله، يذهب بالأبصار لا يكاد يتحقق، فلا يحصل ما يضبطه علمٌ أو عقلٌ أو وَهْمٌ أو خيال، فلا يحصل في المشهد الذاتي علم في نفس المشاهد، لأنه تجلى في غير صورة مادية، فلم يكن للخيال ما يضبطه به، فلم يكن للعقل ما يعقله، إذ لا يدخل تحت كيف ولا كم ولا حال ولا نعت ولا وصف، فالمشهد الذاتي لا ينتج شيئاً في قلب العبد. لأنه لا ينضبط ولا يحصل منه سوى شهوده، فإنه تعالى عن أن يحصره كون أصلاً، بخلاف التجلي في الصورة في عالم التمثيل، فإن الرائي يضبط صورة ما تجلى له ويعبر عنها، فإن العلم بالذات

وما تستحقه من النعوت، إنما هو من طريق الإيمان لا من طريق العقل، فالذات تُرَى ولا تُعْلَم، لذلك كان التجلي الذاتي لا يعطي شيئاً إلا نفسه، فهو منيع الحمى، وله حجاب العزة من ﴿ليس كمثله شيء﴾ فاللحظ المطلق لا يقع به فائدة أصلاً، وإنما الفائدة من جانب الحق لعباده بكل ما أعطى التقييد، فإنه إذا تقيد تميز وتعينت المرتبة، فلا يقع العلم النافع إلا في مقام التشبيه في صورة مثالية حسنة جميلة، وهو التجلي الآخر، تجليه سبحانه بأسمائه في أوقات في الصورة الجميلة الحسنة ـ وإن كان قدسياً ـ في عالم التمثيل، كما قال تعالى: ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ فإن الحقائق الإلهية تتجلى في صورة مثالية في مقام بسط، فتعطي من الحكم والمعارف والعلوم الكونية ما لا يعطيه التجلي الذاتي، وذلك مثل ما تُؤَوَّل صور الرؤيا، فالتجلي في عالم الصور، يبطن في تلك الصور مطلب العارف، وهي تورث حالاً، وأما التجلي الغيبي في المعاني المجردة، فيورث علماً، فإنه تجلٍ في عالم الغيب والملكوت، فيكون تجلياً في المعاني المجردة لا في الشهادة.

لذلك نرى الشيخ رضي الله عنه، ينبه على التجلي الصوري في الصّورة الجمالية عند كتابته «ترجمان الأشواق» في مجلى النظام ـ ابنة شيخه مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني رحمه الله ـ فيقول رضي الله عنه: «لم أزل فيما نظمناه في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية والتنزلات الروحانية، والمناسبات العلوية، جرياً على طريقتنا المثلى، فإن الآخرة خير لنا من الأولى، ولعلمها رضي الله عنها بما إليه أشير، ولا ينبئك مثل خبير، والله يعصم قارىء هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية، والهمم العالية، المتعلقة بالأمور السماوية، آمين بعزة من لا رب غيره، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

ورغم هذا التنبيه من الشيخ على ما يُكِنُّه وما يريده، فقد وقع فيه من وقع، لذلك اضطر لشرح هذا الديوان بكتابه «ذخائر الأعلاق» وفيه يقول: وكان سبب شرحي لهذه الأبيات، أن الولد بدراً الحبشي، والولد اسماعيل بن سودكين، سألاني في ذلك، وهو أنهما سمعا بعض الفقهاء بمدينة حلب، ينكر أن هذا من الأسرار الإلهية، وأن الشيخ يتستر لكونه منسوباً إلى الصلاح والدين، فشرعت في شرح ذلك، وقرأ عليّ بعضه القاضي ابن العديم بحضرة جماعة من الفقهاء، فلما سمعه ذلك المنكر الذي أنكره تاب إلى الله سبحانه وتعالى، ورجع عن الإنكار على الفقراء وما يأتون به في أقاويلهم من الغزل والتشبيب،

ويقصدون في ذلك الأسرار الإلهية، فاستخرت الله تعالى تقييد هذه الأوراق، وشرحت ما نظمته بمكة المشرفة من الأبيات الغزلية، في حال اعتماري في رجب وشعبان ورمضان، أشير بها إلى معارف ربانية، وأنوار إليهة، وأسرار روحانية، وعلوم عقلية، وتنبيهات شرعية، وجعلت العبارة عن ذلك بلسان الغزل والتشبيب، لتعشق النفوس بهذه العبارات، فتتوفر الدواعي على الإصغاء إليها، وهو لسان كل أديب ظريف، روحاني لطيف، وقد نبهت على المقصد في ذلك بأبيات وهي:

كلما أذكر من طلل ... أو ربوع أو مغان كلما
وكذا إن قلت هي أو قلت يا ... وألا إن جاء فيه أو أما
وكذا إن قلت هي أو قلت هو ... أو همو أو هنّ جمعا أو هما
وكذا إن قلت قد أنجد لي ... قدر في شعرنا أو اتهما
وكذا السحب إذا قلت بكت ... وكذا الزهر إذا ما ابتسما
أو أنادي بحُداة يمموا ... بانة الحاجر أو وُرْق الحما
أو بدور في خدور أفلت ... أو شموس أو نبات أنجما
أو بروق أو رعود أو صبا ... أو رياح أو جنوب أو سما
أو طريق أو عقيق أو نقا ... أو جبال أو تلال أو رما
أو خليل أو رحيل أو رُبى ... أو رياض أو غياض أو حما
أو نساء كاعبات نهدٍ ... طالعات كشموسٍ أو دما
كلما أذكره مما جرى ... ذكره أو مثله إن تفهما
منه أسرار وأنوار جَلت ... أو عَلَت جاء بها رب السما
لفؤادي أو فؤاد مَنْ له ... مثل ما لي من شروط العُلَما
صفة قدسية علوية ... أعلمت أن لصدقي قدما
فاصرف الخاطر عن ظاهرها ... واطلب الباطن حتى تعلما [1]

(ذخائر الأعلاق)

(١) حتى تعلم المقصود والعبرة منها.

حب الحب:

هو الشغل بالحب عن متعلقه[1]، جاءت ليلى إلى قيس ـ وهو يصيح ليلى ليلى، ويأخذ الجليد ويلقيه على فؤاده، فتذيبه حرارة الفؤاد، فسلمت عليه، وهو في تلك الحال ـ فقالت له: أنا مطلوبك، أنا بغيتك، أنا محبوبك، أنا قرة عينك، أنا ليلى؛ فالتفت إليها وقال: إليك عني فإن حبك شغلني عنك. هذا ألطف ما يكون، ولنا في ذلك:

ولما رأيت الحب يعظم قدره ... وما لي به حتى الممات يدان
تعشقت حب الحب دهري ولم أقل ... كفاني الذي قد نلت منه كفاني
فأبدا لي المحبوب شمس اتصاله ... أضاء بها كوني وعين جناني
وذاب فؤادي خيفة من جلاله ... فوقّع لي في الحين خط أمان
ونزّهني في روض أُنْسِ جماله ... فغبت عن الأرواح والثقلان
وأحضرني والسر مني غائب ... وغيبني والأمر مني داني
فإن قلت إنّا واحد فوجوده ... وإن أثبتوا عيني فمزدوجان
ولكنه مزج رقيق منزه ... يُرَى واحداً والعلم يشهد ثاني
فقلت له وهو القؤول وإنه ... عبارته المثلى جرت بلساني
أيا مَنْ بدى في نفسه لنفيسه ... ولا عدد فالعين مني فاني
فنفسك شاهدت النفيسة منعما ... بنفسك وانظر في المرآة تراني
فيا غائباً: من كان هذا مقامه ... يرى في جنان الناعمات بجان
فلا والذي طارت إلى حسن ذاته ... قلوب فأفناها عن الطيران

(ف ح ٢ / ٣٢٥)

أثر الجمال:

أثر الجمال في الصور ما يقع به العشق والحب والهيمان والشوق، ويورث الفناء عند المشاهدة، ولهذا هام في الحق العارفون، وتحقق بمحبته المحققون، ولهذا قلنا فيه في بعض عباراتنا عن العالم: إنه مرآة الحق، فما رأى العارفون فيه إلا صورة الحق، وهو سبحانه الجميل، والجمال محبوب لذاته، والهيبة له في قلوب الناظرين إليه ذاتية، فأورث المحبة

---

(١) راجع «المحب لا يعلم أنه محب» ـ لوازم المحبة بعد ذلك.

والهيبة، فهو تعالى المتجلي في كل وجه، والمطلوب في كل آية، والمنظور إليه بكل عين، والمعبود في كل معبود[1]، والمقصود في الغيب والشهود، ولا يفقده أحد من خلقه بفطرته وجبلته، فجميع العالم له مصل، وإليه ساجد، وبحمده مسبح، فالألسنة به ناطقة، والقلوب به هائمة وعاشقة، والألباب فيه حائرة، يروم العارفون أن يَفْصِلوه من العالم فلا يقدرون، ويرومون أن يجعلوه عين العالم فلا يتحقق لهم ذلك، فهم يعجزون، فتَكِلُّ أفهامهم، وتتحير عقولهم، وتتناقض عنه في التعبير ألسنتهم، فلا تستقر لهم فيه قدم، ولا تتضح لهم إليه طريق أَمَم، لأنهم يشهدونه عين الآية والطريق[2]، فتحول هذه المشاهدة بينهم وبين طلب غاية الطريق، إذ لا تسلك الطريق إلا إلى غاياتها، والمقصود معهم وهو الرفيق، فلا سالك ولا مسلوك، فتذهب الإشارات وليست سواه، وتطيح العبارات وما هي إلا إياه، فلا يُنْكَرُ على العارف ما يهيم فيه من العالم، وما يتوهمه من المعالم، ولولا أن هذا الأمر كما ذكرناه، ما أحب نبي ولا رسول أهلاً ولا ولداً، ولا آثر على أحد أحداً.

جميل ولا يُهوى جليٌّ ولا يُرَى — وتشهده الألباب من حيث لا تدري
ولا تدرك الأبصار منه سوى الذي — تنزهه عنه عقول ذوي الأمر
فإن قلت محجوب فلستَ بكاذب — وإن قلت مشهود فذاك الذي أدري
فما ثم محبوب سواه وإنما — سليمى وليلى والزيانب للستر[3]
لهن ستور مسدلات وقد أتى — بذلك نظم العاشقين مع النثر
كمجنون ليلى والذي كان قبله — كبشر وهند ضاق من ذكرهم صدري

(ف ح ٢ / ٥٤٢ ـ ح ٣ / ٤٤٩ ـ ح ٢ / ٥٤٢)

وأصحاب الوله والمحبون، أعظم لذة وأقوى محبة في جناب الله من حب الجنس، فإن الصورة الإلهية أتم في العبد من مماثلة الجنس، لأنه لا يتمكن للجنس أن يكون سمعك وبصرك، بل يكون غايته أن يكون مسموعك ومُدْرَكَك ـ اسم مفعول ـ وإذا كان العبد يدرك

---

(١) أي رتبة الألوهية هي المعبودة في كل ما عُبِد.

(٢) ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ الآية.

(٣) راجع حب الخيال.

بحق، هو أتم، فلذته أعظم وشهوته أقوى، فمن رأى نفسه حقاً كله، يقع له التجلي الذي وقع لجبل موسى ولموسى، فلا يندك ولا يصعق، وإن فني فإنما يفنيه جمال ذلك المشهود، فإن الله جميل ويحب الجمال، فلا بد أن يكسو الله باطن هذا العبد من الجمال، بحيث أنه لا يتجلى له إلا حباً، لما ظهر فيه من الجمال الخاص المقيد به، الذي لا يمكن أن يظهر ذلك الجمال إلا في هذا المحل الخاص، فإنه لكل محل جمال يخصه لا يكون لغيره، ولا ينظر الله إلى العالم إلا بعد أن يُجمِّلَه ويسويه، حتى يكون قبوله لما يرد به عليه في تجليه على قدر جمال استعداده، فيكسوه ذلك التجلي جمالاً إلى جمال، فلا يزال في جمال جديد في كل تجل، كما لا يزال في خلق جديد في نفسه، فإذا تعلق حب العبد بالله، وكان الله محبوبه، يفنى في حبه في الحق أشد من فنائه في أشكاله، فإنه في حب أشكاله فاقد في غيبته ظاهر المحبوب، وإذا كان الحق هو المحبوب فهو دائم المشاهدة، ومشاهدة المحبوب كالغذاء للجسم، به ينمى ويزيد، فكلما ازداد مشاهدة زاد حباً. (ف ح ٢ / ١٨٩ ـ ح ٤ / ١٤٦ ـ ح ٢ / ٣٢٥)

فالمحبون للجمال المطلق، الذين تعشقوا بالصورة الذاتية المنيعة الحمى، هم في نعيم وسرور، فإنه وإن لم تحصل، فإن في تجليها إلى المحب، يتضح لذلك التجلي كل ما في ملكه، فيظهر جميع ملكه له بتلك الصورة الذاتية، فلولا تجليها ما اكتسبت المملكة هذه الصورة الحسناء، فالنعيم بجميع الملك للمشاهد ـ مع هذا التجلي ـ نعيم بالذات، في صورة المُلْك، لأن الذات تضيء، ولا يلتذ إلا بالمواد، فهي محبة معنوية خارجة عن الحس والخيال والصور والمثال، وهو حال وراء طور العقل، ومع هذا التقرير فإنه ﷺ يقول: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي» ففرَّق بين الأحوال، وإن كان الحق مشهوداً له في كل حال، غير أنه لما كان حال شهود الذات أسنى الشهود وأحلاه وأعظم أثراً، لذلك يقوم عنده وجه الحق فيما عدا هذا الشهود، كما لو تعشق العارف بالتعلقات الإلهية، لكانت لذة شهود العلم أعلى من شهود تعلق القدرة، لأنه أعم، وتعلق القدرة أخص، لأن محلها الممكنات لا غير.

(ذخائر الأعلاق)

والقلب المحمـدي الكامل المحب العاشق، مع نزاهته عن التقييد بالمقامات، إذا تجلت له المناظر العلى عند المقام الأعلى، حيث المورد الأحلى، التي تتعشق بها القلوب، وتهيم فيها الأرواح، ويعمل لها العاملون الإلهيون، ملكته هذه المناظر العلى، وكيف لا تملكه

وهي مطلوبه؟! وهو لا يشهد من هذه المناظر إلا ما هو عليه، فإن التجلي على قدر المتجلَّى له لا على قدر المتجلي، فقيه يتنزه، وإياه يحب ويعشق، ففي عالم البرازخ يشتفي من أراد الالتذاذ بالمعاني القدَسية في القوالب الحسية، وسبب ذلك، الجمع بين الصورتين المعنى والصورة، فيلتذ المحب عيناً وعلماً، ومع هذا التقرير، فإن الأرواح العلوية من الملائكة، إذا تجلت في الصور الجميلة ـ كما ظهر جبريل لرسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي ـ قد يتعشق الناظر بها حالاً ومقاماً، فيحجبه ذلك عما خُلِقَ له، فتكون عليه لحظة مشؤومة، فكم من نفس أبية تحب معالي الأمور، وتكره مذام الأخلاق والتعلق بالأكوان، ومع هذا حجبهم وتيمهم جمال الأكوان في أوقات ما، وفي مقامات ما، فماتت وكانت تزعم أن لا تعلق لها ولا تعشق إلا بالنور المحض المطلق، فوقفت مع نور وجمال هذه الأرواح الممثلة، وجهل أن هذه الأرواح في هذه الصور الخيالية، معان لا ثبات لها، فإنها سريعة الزوال من النائم باليقظة، ومن المكاشف بالرجوع إلى حسه، فهذه الأرواح في هذه الصور الجليلة، إذا خفن في تجسدهن من تقييدهن بالصورة عما هي عليه من الإطلاق، أشعرن الرائي بأنهن حجاب على أمر هو ألطف مما رأى، فإن الجمال محبوب لذاته، والحُسْنَ معشوق لذاته، والحُسْنُ البديع مشغل للناظر فيه عن نفسه وعن سواه، ومن مَلَكَه شيء كان لما ملكه، فالمحب الصادق لله لا يغتر بتجلي حسن الأكوان العلوية والسفلية لعينه، فإن كل ما خلا الله باطل، ومن أحب كوناً فقد أحب عدماً مثله، فكُنْ له تعالى ليكون لك، فوالله لولا الشريعة التي جاءت بالإخبار الإلهي ما عرف الله أحد، ولو بقينا مع الأدلة العقلية ـ التي دلت في زعم العقلاء على العلم بذاته بأنه ليس كذا وليس كذا ـ ما أحبه مخلوق، فلما جاء الخبر الإلهي بألسنة الشرائع بأنه سبحانه كذا، وأنه كذا، في أمور تناقض ظواهرها الأدلة العقلية، أحببناه لهذه الصفات الثبوتية، ثم بعد أن أوقع السبب، وثبت السبب والنسب الموجبات للمحبة، قال ﴿ليس كمثله شيء﴾ فثبتت الأسباب الموجبة للحب التي نفاها العقل بدليله، وهذا معنى قوله « فخلقت الخلق فتعرفت إليهم فعرفوني » فما يُعرف الله إلا بما أخبر به عن نفسه، من حبه إيانا ورحمته بنا ورأفته وشفقته وتحببه ونزوله في التحديد، لنمثله تعالى ولنجعله نصب أعيننا، في قلوبنا وفي قبلتنا وفي خيالنا حتى كأنا نراه، لا بل نراه فينا، لأنا عرفناه بتعريفه لا بنظرنا. (ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٢ / ٣٢٦)

تحقيق في النظر والرؤية لجمال الحق تعالى:

إن الله تعالى جميل، وهو المحبوب وهو محب، وتجلي سُبُحاتِه تورث الإحراق، فكيف يتعلق به النظر والرؤية، وهو المحب المحبوب الشفوق؟ فاعلم أن النظر والرؤية إنما تتعلق بالرب، قال تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾، فعلق الرؤية بالإحراق، والإحراق متعلق بالوجه، وهو قوله في الحديث «لأحرقت سبحات وجهه» ووجه الشيء حقيقته وذاته، وقوله ﴿لا تدركه الأبصار﴾ يعني الوجه، وهو الذات الإلهية معراة عن الأسماء الإلهية، فلا يتجلى الجميل في الآخرة والجنة لعباده إلا في الاسم الرب[1].

(ذخائر الأعلاق)

السماع والحب:

اعلم وفقك الله، أنه كما أن سبب التجلي الحب، فإنه أصل سبب وجود العالم، كذلك كان السماع سبب كونه، وكان سبب بدء حبنا الحق، سماعَ كلامه سبحانه ونحن ثابتون في جوهر العماء، فالكون لم يعلَم من الحق إلا كلامه، وهو الذي سمع فالتذ في سماعه، فلم يتمكن له إلا أن يكون، ولهذا السماع مجبول على الحركة والاضطراب والنقلة في السامعين، لأن السامع عندما سمع قول ﴿ كن ﴾ انتقل وتحرك من حال العدم إلى حال الوجود، فتكوَّن، فمن هنا أصل حركة أهل السماع، وهم أصحاب وجد، ولا يلزم فيمن؟ فإن الوجد لذاته يقتضي ما يقتضي، والوجد عند القوم لا بد لصاحبه من فائدة يأتي بها، فإن جاء بغير فائدة ولا مزيد علم فذلك نوم القلب من حيث لا يشعر، فإن الذي يأتيه في تلك الفجأة إنما يأتيه من الله، ليفيده علماً بما ليس عنده، مما تَشْرُف به نفسه وتكمل، وتربى على غيرها من النفوس، ولهذا لا يكون الوجد شاهد صدق إلا على نفسه أنه وجد خاصة، لا أنه وجد من الله، ولهذا من شرط أهل الله في السماع المقيد بالنغم، أن يكونوا على قلب واحد، وأن لا يكون فيهم من ليس من جنسهم، فلا يحضرون إلا مع الأمثال، أو مع

---

(١) من وجه آخر أقول أنا محمود الغراب: إنه لما كانت الآخرة موطن تجلي الحقائق على ما هي عليه، وقد ثبت أنه تعالى هو المحب المحبوب، وأن حقيقة الحب راجعة إلى الله تعالى، وتظهر في الآخرة حقيقة كنت سمعه وبصره على ما هي عليه، فهو تعالى السمع والبصر، فهو الناظر والمتجلي، فلا تحرق سبحات وجهه في الآخرة الناظر إليه، فإن حقيقة البصر هناك راجعة إليه كشفاً وتحقيقاً.

المؤمنين بأحوالهم المعتقدين فيهم، وكل سماع لا يكون عنه وجد، وعن ذلك الوجد وجود، فليس بسماع، فإنه لولا القول ما علم مراد المريد ما يريده منا، ولولا السمع ما وصلنا إلى تحصيل ما قيل لنا، فبالقول نتصرف، وعن القول نتصرف مع السماع، والسماع عند أهل الله مطلق ومقيد، فالمطلق هو الذي عليه أهل الله، ولكن يحتاجون فيه إلى علم عظيم بالموازين، حتى يفرقوا بين قول الامتثال وقول الابتلاء، وليس يدرك ذلك كل أحد، **ومن أرسله من غير ميزان ضل وأضل**، والمقيد هو السماع المقيد بالنغمات المستحسنات، التي يتحرك لها الطبع بحسب قبوله، فالسماع على هذا الحد ينقسم على ثلاثة أقسام: سماع إلهي، وسماع روحاني، وسماع طبيعي. (ف ح ٢ / ٤٢٨، ٣٣١، ٣٥٢، ٥٣٧، ٣٦٧)

السماع الإلهي:

السماع الإلهي بالأسرار، وهو السماع من كل شيء، وفي كل شيء وبكل شيء، وهو لمن كان الحق سمعه الذي يسمع به، فهو سار في جميع المسموعات، وهو - أي السماع الإلهي - أول مراتب الكون، وبه يقع الختام، فأول وجود الكون بالسماع، وآخر انتهائه من الحق السماع، ويستمر النعيم في أهل النعيم، والعذاب في أهل العذاب، والعارف المحقق في سماع أبداً، إذ لا يتكلم عنده إلا الله بكل وجه، فمن خاطبه من المخلوقين، يجعل العارف ذلك مثل خطاب الرسول عن الحق، فيتأهب لقبول ما خاطبه به ذلك الشخص، وينظر ما حكمه عند الله الذي قرره شرعاً، فيأخذه على ذلك الحد، قال تعالى: ﴿ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ والمتكلم به إنما كان رسول الله ﷺ، فليس أحد من خلق الله يجوز أن يخبر عن نفسه ولا عن غيره، وإنما إخبار الجميع عن الله، فإنه سبحانه هو الذي يخلق فيهم بـ «كن» ما يخبرون به، فالكل كلماته، فليس للعبد على الحقيقة إلا السماع، وكلام المخلوق سماع، فلا يرمي العارف ولا يهمل شيئاً من كلام المخلوقين، وينزله منزلته خبيثاً منكراً وزوراً كان ذلك القول في حكم الشرع، أو طيباً ومعروفاً وحقاً، فالعارف يقبله وينزله في المنزلة التي عيّنها الله على لسان الشرع والحكمة لذلك القول، فالسماع الإلهي وهو السماع المطلق، يكون معه علم ومعرفة في مواد وغير مواد، عام التعلق، يجده السامع في السماع الطبيعي والروحاني، ولكن بالسماع الإلهي الذي يخص الطبع والعقل خاصة.

(ف ح ٣ / ٤ - ح ٢ / ٣٦٧)

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة   والأذن تعشق قبل العين أحيانا

(ف ح ٣ / ٢٣)

السماع الروحاني:

متعلقه صريف الأقلام الإلهية في لوح الوجود المحفوظ من التغيير والتبديل، فالوجود كله رقٌ منشور، والعالم فيه كتاب مسطور، فالأقلام تنطق وآذان العقول تسمع، والكلمات ترتقم فَتُشْهَد، وعين شهودها عين الفهم فيها بغير زيادة، ولا ينال هذا السماع إلا العقول التي ظهرت لمستوى، ولما كان السماع أصله على التربيع، وكان أصله عن ذات ونسبة وتوجه وقول، فظهر الوجود بالسماع الإلهي[1]، كذلك السماع الروحاني عن ذات ويد وقلم وصريف قلم، فيكون الوجود للنفس الناطقة في سماع صريف هذه الأقلام، في ألواح القلوب بالتقليب والتصريف، والسماع الروحاني يكون معه علم ومعرفة في غير مواد جملة واحدة، كما قال رسول الله ﷺ في الوحي: إن أشده عليه يأتيه كصلصلة الجرس، والسماع الروحاني يؤثر في السامع الاضطجاع. (ف ح ٢ / ٣٦٧)

السماع الطبيعي:

لما كان سبب بدء حبنا الحق سماع كلامه، لهذا نتحرك ونطيب عند سماع النغمات، لأجل كلمة «كن» الصادرة من الصورة الإلهية غيباً وشهادة، والوجد أكثر ما يظهر في الأشخاص الإنسانية عند سماع الألحان، فإنها إذا نزلت عليهم تمر على الأفلاك، ولحركات الأفلاك نغمات طيبة مستلذة، تستلذ بها الأسماع كنغمات الدولاب، وكما أن السماع الإلهي والسماع الروحاني مبناه على أربعة كما ذكرنا، كذلك السماع الطبيعي مبناه على أربعة أمور محققة، فإن الطبيعة مربعة، معقولة من فاعلين ومنفعلين (رطب ويابس وحار وبارد) فأظهرت الأركان الأربعة أيضاً (التراب والماء والهواء والنار) فظهرت النشأة الطبيعية على أربعة أخلاط، وأربع قوى قامت عليها هذه النشأة، وكل خلط منها يطلب بذاته من يحركه لبقائه وبقاء حكمه، فإن السكون عدم، فأوجد في نفوس العلماء حين سمعوا صريف

---

(١) يريد أن الوجود ظهر من قوله تعالى ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ فالتربيع هنا: هو الذات الإلهية، ونسبة الإمكان إلى الممكن، والتوجه وهو الإرادة، ثم قول كلمة كن.

الأقلام، ما ينبغي أن يحرك به هذه النشأة الطبيعية، فأقاموا لها أربع نغمات، لكل خلط من هذه الأخلاط نغمة في آلة مخصوصة، وهي المسماة في الموسيقى ـ وهو علم الألحان والأوزان ـ بالبم والزير والمثنى والمثلث، كل واحد من هذه يحرك خلطاً من هذه الأخلاط، ما بين حركة فرح وحركة بكاء وأنواع هذه الحركات، وهذا لها بما هي نشأة طبيعية لا بما هي روحانية، فإن الحركة في النشأة الطبيعية، والكثائف من عالم الاستحالة، وكل ما يقبل الاستحالة يقبل الصور المختلفة والمتضادة، والصوت بما هو صوت لا تتبدل صورته، فيغلظه الملحن في موضع ويرققه في موضع، بحسب الرتبة التي يقصدها، ليؤثر بذلك في طبيعة السامعين ما يشاء، من فرح وسرور وانبساط، أو حزن وهَمٍّ وانقباض، ولهذا جعلوا الموسيقى في أربعة، في البم والزير والمثنى والمثلث، فإن المحل الذي يريدون أن تؤثر فيه هذه الأصوات مركب من مشاكلتها، من مُرّتين ودم وبلغم، فيهيج سماع هذا الصوت ما يشاكله من الأخلاط، التي هو عليها السامع، فيكون الحكم بسبب حين يقصده الملحن، **والسماع الطبيعي لا يكون معه علم أصلاً**، وإنما صاحبه يجد طرباً في نفسه، أو حزناً عند سماع هذه النغمات، من هذه الآلات ومن أصوات القوّالين، ولا يجد معها علماً أصلاً، فإنه ليس هذا حظ السماع الطبيعي، مع الحال الصحيح والوجد الصحيح الذي يطلبه الطبع، وهو سماع الناس اليوم، فالإيقاع أوزان، والإيقاع للسماع، فلهذا فإن حركة السامع فلكية، إذا كانت صادقة عن فناء ملكية، فإن كانت نفسية، فليست بقدسية، وعلامتها الإشارة بالأكمام، والمشي إلى خلف وإلى قُدّام، والتمايل من جانب إلى جانب، والتصرف بين راجع وذاهب، ومَنْ هذه حاله فما سمع، ولا أثر فيه الموقع بما وقع، فمثل هذا أجمع الشيوخ على حرمانه بين إخوانه، فمن أدعى سماع الإيقاع في الأسماع وما له وجود، فهو من أهل الحجاب، والمحجوب مطرود.

(ف ح ٢ / ٣٣١، ٣٦٧ ـ ح ٤ / ٢٧٢ ـ ح ٢ / ٣٦٧ ـ ح ٤ / ٣٦٨)

فأصل السماع الذي يقول به أهل الطريق شريف، وهو يسري في كل شيء، فلا يختص به حال إيقاع وغناء على طريق خاص طبيعي، فإن الوزن الطبيعي إنما يؤثر فيما تركب من الطبيعة على مزاج خاص، لا يشترط في حركة الطبع الفهم، بخلاف حركة النفوس

العقلية، وإن كان للطبيعة فيها أثر في أصل وجودها، ولكن ليست لها في النفوس العاقلة تلك القوة إلا بالفهم، فلا يحركه إلا الفهم، والحركة انتقال من حال إلى حال، أي من حال يكون عليه السامع . إلى حال يعطيه سماعه عند كلام المتكلم . وهو فيه بحسب فهمه، فهو مجبور على الحركة، ولهذا لا تُسَلِّم الصوفية حركة الوجد الذي يبقى معه الإحساس بمن في المجلس، حتى تَسْلَم له حركته بالله، فمهما أحس تعين عليه أن يجلس، إلا أن يُعَرِّف الحاضرين بأنه متواجد لا صاحب وجد، فيُسَلِّم له ذلك، ولكن لا تحمد هذه الحالة عندهم على كل حال، لأنهم يكرهون الحركة في الأصل بنفس المتحرك، ويحمدونها بالمحرك.

(ف ح ٤ / ٧٠)

وللنغمات في الكلام الإلهي والقول أصل تستند إليه، وهو أقوى الأصول، ولهذا لها القوة والتأثير في الطباع، فلا يستطيع أحد أن يدفع عن نفسه عند ورود النغمة ـ وتعلق السمع بها إذا صادفت محلها ـ ذلك الطرب أو الأثر الذي يجده السامع في نفسه، فسلطانها قوي، وذلك لقوة أصلها الذي تستند إليه، فإن الأسماء الإلهية وإن كانت لعين واحدة، فمعلوم عند أهل الله ما بينها من التفاوت، ولما كان التفاوت معقولاً فيها، وعلم ذلك بآثارها، علمنا أن الحقائق الإلهية التي استندت إليها هذه النغمات، أقوى من الذي استند إليه الكلام، فإنا نسمع قارئاً يقرأ ومنشداً ينشد شعراً، فلا نجد في نفوسنا حركة لذلك، بل ربما نتبرم من ذلك في أوقات، لأنه جاء على غير الوزن الطبيعي، فإذا سمعنا تلك الآية أو الشعر من صاحب نغمة، وفّى حقها في الميزان، أصابنا وجد وحَرّكنا، ووجدنا ما لم نكن نجد، فلهذا فرقنا بين ما استندت إليه النغمات الطبيعية وبين ما استند إليه القول، فإذا كان الرجل ممن يجد قلبه في النغمات، وأعني بذلك وجود النغمة في الشعر وغيره، حتى في القرآن، إذا وجد قلبه فيه لحسن صوت القارىء، ولا يجد قلبه فيه عندما يسمعه من قارىء غير طيب الصوت، فلا يعول على ذلك الوجد، ولا على ما يجد فيه من الرقة في الجناب الإلهي . فإنه معلول، وتلك رقة الطبيعة، إلا إذا كان عارفاً بالتفصيل، ويفرق بين سماعه الإلهي والروحاني والطبيعي، ما يلتبس عليه ولا يخلط، ولا يقول في سماع الطبيعة إنه سماعه بالله، فمثل هذا لا يحجر عليه، وتركه أولى، ولاسيما إن كان ممن يقتدى به من المشايخ . فيستتر به المدعي الكاذب، أو الجاهل بحاله، وإن لم يقصد الكذب.

والسامع من أهل السماع الطبيعي يجد[1] عند النغمات المستطيبة، وعلامته الحركة الدورية، فإن كان من أهل السماع الروحاني فإنه يجد في كل مسموع، فإن المسموعات كلها نغم عنده، فمنهم من تكون له حركة محسوسة، ومنهم من لا تكون له، وأما الحركة الروحانية فلا بد منها، ولله طائفة خرجت عن الحركات الروحانية إلى الحركات الإلهية، وهو قول الجنيد ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ ولكن في الحال التي تحسبها جامدة، فتنسب الحركة إلى هذا الشخص نسبتها إلى الجناب الأقدس.

(ف ح ٢ / ٣٦٧، ٣٦٨)

السماع المطلق والمقيد والفرق بين الوارد الطبيعي والروحاني والإلهي:

خذها إليك نصيحة من مشفق ... ليس السماع سوى السماع المطلق
واحذر من التقييد فيه فإنه ... قول يفند عند كل محقق
إن السماع من الكتاب هو الذي ... يدريه كل معلم ومُطَرِّق
إن التغني بالقرآن سماعنا ... والحق ينطق عند كل منطق
والله يسمع ما يقول عبيده ... من قوله فسماعه بتحقق
أصل الوجود سماعنا من قول كن ... فبه نكون ونحن عين المَنْطَق[2]
انظر إلى تقديمه في آيه[3] ... تعثر على العلم الشريف المرهق
فالسمع أشرف ما تحقق عارف ... بتعلق وتحقق وتخلق

(ف ح ٢ / ٣٦٦)

السماع سار في كل موجود، وهل ظهر عن «كن» إلا الوجود؟ والسماع الذي عليه الإجماع، ما كان عن الإيقاع الإلهي والقول الرباني، فلا ينحصر في النغمات المعهودة في العرف، فإن ذلك الجهل الصرف، الكون كله سماع، عند صاحب الأسماع، السماع المطلق لمن تحقق بالحق، فإنه ما خص بـ «كن» كونا من كون، ولا توجهت على عين دون عين،

---

(١) من الوجد.

(٢) يعني أن الوجود هو كلمات الله تعالى، والكلمة هي «كن» قال تعالى في عيسى عليه السلام ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ فعيسى عليه السلام عين كلمة الله تعالى.

(٣) يشير إلى تقديم السمع على البصر في القرآن في قوله تعالى ﴿إن السمع والبصر﴾ الآية، وإلى تقديم الاسم الإلهي السميع على الاسم الإلهي البصير، في أغلب الآيات.

فالكل قد سمع، بما قد صُدع، فمن قيد السماع بالأوزان، والتلحينات المقسمة بالميزان، فهـو صاحب جزء لا صاحب كل، وهو على مولاه كَلّ، مولاه أول زاهد فيه، ولهذا لا يصطفيه، كيف يقيد المطلق، مَنْ ادعى أنه بالحق تحقق؟ فالسماع المطلق يؤثر فهم المعاني، وهو السماع الروحاني الإلهي، وهو سماع الأكابر، والسماع المقيد يؤثر في أصحابه النغم، وهو السماع الطبيعي. لذلك لا يقول الرجال الأكابر بالسماع المقيد بالنغمات لعلو همتهم. ويقولون بالسماع المطلق، فإذا ادعى من ادعى أنه يسمع في السماع المقيد بالألحان المعنى، ويقول: لولا المعنى ما تحركت، ويدعي أنه قد خرج عن حكم الطبيعة في ذلك، يعني في السبب المحـرك فهـو غير صادق، فصاحب هذه الدعوى إذا لم يكن صادقاً يكون سريع الفضيحة، وذلك أن هذا المدعي إذا حضر مجلس السماع، فاجعل بالك منه، فإذا أخذ القوال في القول بتلك النغمات المحركة بالطبع للمزاج القابل أيضاً، وسرت الأحوال في النفوس الحيوانية، فحركت الهياكل حركة دورية، لحكم استدارة الفلك. وهو أعني الدور، مما يدلك على أن السماع طبيعي، لأن اللطيفة الإنسانية ما هي عن الفلك، وإنما هي عن الروح المنفوخ منه، وهي غير متحيزة، فهي فوق الفلك، فما لها في الجسم تحريك دوري ولا غير دوري، وإنما ذلك للروح الحيواني، الذي هو تحت الطبيعة والفلك، فلا تكن جاهلاً بنشأتك ولا بمن يحركك، فإذا تحرك هذا المدعي وأخذه الحال، ودار أو قفز إلى جهة فوق منَ غير دور، وقد غاب عن إحساسه بنفسه وبالمجلس الذي هو فيه، فإذا فرغ من حاله ورجع إلى إحساسه، فاسأله ما الذي حركه؟ فيقول: إن القوال قال: كذا وكذا، ففهمت منـه معنى كذا وكـذا. فذلك المعنى حركني، فقل له: ما حركك سوى حسن النغمة، والفهم إنما وقع لك في حكم التبعية، فالطبع حَكَمَ على حيوانيتك، فلا فرق بينك وبين الجمل في تأثير النغمة فيك، فيعز عليه مثل هذا الكلام ويثقل، ويقول لك: ما عرفتني وما عرفت ما حركني! فاسكت عنه ساعة ـ فإن صاحب هذه الدعوى تكون الغفلة مستولية عليه ـ ثم خذ معه في الكلام الذي يعطي ذلك المعنى، فقل له: ما أحسن قول الله تعالى حيث يقول، واتل عليه آية من كتاب الله تتضمن ذلك المعنى الذي كان حركه من صوت المغني، وحققه عنده حتى يتحققه، فيأخذ معك فيه ويتكلم ولا يأخذه لذلك حال ولا حركة ولا فناء، ولكن يستحسنه ويقول: لقد تتضمن هذه الآية معنى جليلاً من المعرفة بالله! فما أشد

فضيحته في دعواه، فقل له: يا أخي هذا المعنى بعينه، هو الذي ذكرت لي أنه حركك في السماع البارحة، لما جاء به القوال في شعره بنغمته الطيبة، فلأي معنى سرى فيك الحال البارحة؟ وهذا المعنى موجود فيما قد صغته لك وسقته بكلام الحق تعالى، الذي هو أعلى وأصدق، وما رأيتك تهتز مع الإستحسان وحصول الفهم، وكنت البارحة يتخبطك الشيطان من المس كما قال الله تعالى، وحجبك عن الفهم السماع الطبيعي، فما حصل لك في سماعك إلا الجهل بك؛ فمن لا يفرق بين فهمه وحركته كيف يرجى فلاحه؟! فالسماع من عين الفهم، هو السماع الإلهي إذا ورد على صاحبه، وكان قوياً لما يرد به من الإجمال، فغاية فعله في الجسم أن يضجعه لا غير، ويغيب عن إحساسه، ولا يصدر منه حركة أصلاً بوجه من الوجوه، سواء كان من الرجال الأكابر أو الصغار، هذا حكم الوارد الإلهي القوي، وهو الفارق بينه وبين حكم الوارد الطبيعي، فإن الوارد الطبيعي كما قلنا يحركه الحركة الدورية والهيمان، والتخبط فعل المجنون، وإنما يضجعه الوارد الإلهي لسبب أذكره لك، وذلك أن نشأة الإنسان مخلوقة من تراب، قال تعالى: ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ وإن كان فيه من جميع العناصر، ولكن العنصر الأعظم التراب، قال عز وجل فيه أيضاً ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ والإنسان في قعوده وقيامه بَعُدَ عن أصله الأعظم الذي منه نشأ من أكثر جهاته، فإن قعوده وقيامه وركوعه فروع، فإذا جاء الوارد الإلهي وللوارد الإلهي صفة القيومية، وهي في الإنسان من حيث جسميته بحكم العرض، وروحه المدبر هو الذي كان يقيمه ويقعده، فإذا اشتغل الروح الإنساني المدبر عن تدبيره، بما يتلقاه من الوارد الإلهي من العلوم الإلهية، لم يبق للجسم من يحفظ عليه قيامه ولا قعوده، فرجع إلى أصله، وهو لصوقه بالأرض المعبر عنه بالاضطجاع. ولو كان على سرير، فإن السرير هو المانع له من وصوله إلى التراب، فإذا فرغ روحه من ذلك التلقي، وصدر الوارد إلى ربه، رجع الروح إلى تدبير جسده، فأقامه من ضجعته، هذا سبب اضطجاع الأنبياء على ظهورهم عند نزول الوحي عليهم، وما سمع قط عن نبي أنه تخبط عند نزول الوحي. هذا مع وجود الواسطة في الوحي وهو المَلَك، فكيف إذا كان الوارد برفع الوسائط؟ لا يصح أن يكون منه قط غيبة عن إحساسه، ولا يتغير عن حاله الذي هو عليه، فإن الوارد الإلهي برفع الوسائط الروحانية يسري في كلية

الإنسان، ويأخذ كل عضو بل كل جوهر فرد فيه حظه من ذلك الوارد الإلهي، من لطيف وكثيف، ولا يشعر بذلك جليسه، ولا يتغير عليه من حاله الذي هو عليه من جليسه شيء، إن كان يأكل بقي على أكله في حاله، أو شربه أو حديثه الذي هو فيه، فإن ذلك الوارد يعم، وهو قوله تعالى: ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ فمن كانت أينيته في ذلك الوقت حالة الأكل أو الشرب أو الحديث أو اللعب أو ما كان، بقي على حاله، هذا هو الفرق بين الواردات الطبيعية والروحانية والإلهية. (ف ح ٤ / ٣٦٨ - ح ١ / ٢١٠)

أمثلة من سماع أهل الله:

سماعنا في نسيب مهيار حيث يقول:

هبت بأشواقك نجدية ... مطبعة أنت لها واجب
ما أنت يا قلبي وأهل الحمى ... وإنما هم أمسك الذاهب
فاردد على الريح أحاديثها ... ففي صباها ناقل كاذب
ودون نجد وظباء الحمى ... إن تقرح السنام والغارب

السماع في ذلك يقول: يا أيها المحب العارف، هَبَّت بأشواقك أنفاس متصاعدة، تطمع في أمر هي دونه، ألا تراه؟ قال: ما أنت يا قلبي؟ يقول: أنت في مقام التقليب والتلوين، وأهل الحمى في مقام الثبوت، وهما ضدان فلا يجتمعان، كما لا يرجع أمس أبداً، وقد نبه على كذب الأحوال، بما ذكر عن الريح بسبب الباعث لهبوبها، ثم قال: ودون نجد الذي هو المنظر الأعلى، وظباء الحمى وهي الأرواح العلوية، تقرح أي تدمي الخف والسنام من طول السير وحمل الأثقال، شبهها بالإبل، ثم لا وصول، يقول: إنها موهوبة لا مكسوبة، فلا تَعَمُّلَ لها.

وسماعنا على قول الشريف الرضي:

يا طرباً لنفحة نجدية ... أعدل حر القلب باستبرادها
وما الصبا ريحي لولا أنها ... إذا جرت مرت على بلادها

السماع في ذلك قول النبي ﷺ: إن لله نفحات، ألا فتعرضوا لنفحات ربكم؛ التي

تحصل للإنسان عند سجوده في مقام القرب عند مناجاته، قال: «اجعلوها في سجودكم»[1] يقول: وما اتقيد بريح مخصوصة، إلا أن الصبا لما كانت تهب من أفق الشروق، ومطلبنا الشهود والرؤية، لذلك أريدها لأسمع حديثها.

وسماع العارف على قول القائل:

هيجتني إلى الحجون شجون | ليلة قد بدا لعيني الحجون
حل في القلب ساكنوه محلا | من فؤادي يحل فيه المكين
كل داء له دواء وداء الحب | يا صاح داء دفين
ليت شعري عمن أحب يميني[2] | عند ذكرى كما أكون يكون

الحجون العطف الإلهي على القلوب المتعلقة به، المواصلة الأحزان له، قوله: حل في القلب، بيّن به قوله تعالى: وسعني قلب عبدي المؤمن؛ يطلع على تلك السعة، ليت... إلى قوله: كما أكون يكون؛ قوله تعالى: اذكروني أذكركم، ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وهذا باب واسع في الشريعة.

وسماعنا على قول الشريف الرضي:

يا قلب ما أنت من نجدٍ وساكنه | خلّفت نجداً وراء المذبح الساري
أهفو إلى الركب تحدو لي ركائبهم | من الحمى في أسيحات وأطمار
تفوح أرواح نجدٍ من ثيابهم | عند النزول لقرب العهد بالدار
يا راكبان قفا لي فاقضيا وطري | وخبّراني عن نجد بأخبار
هل روضت قاعة الوعساء أم مُطِرَت | خميلة الطلع ذات البان والغار
أم هل أبيت ودار عند كاظمة | داري وسمّار ذاك الحي سُمّاري
فلم يزالا إلى أن نَمَّ بي نَفَسي | وَحَدَّث الدمعَ عني دمعي الجاري

السماع في ذلك، يقول لنفسه: أنت من عالم الخليقة، ونزلت إلى عالم الشهوة والطبع، لكنني أهفو إلى العلى بما فيّ من أصالته، فيما بقي عليّ من أطمار ما كان كساني ذلك

---

(١) قوله تعالى ﴿سبحان ربي الاعلى﴾.

(٢) أي: قسمي.

المجد عند الإشهار، قال: تفوح أرواح العلى في أخلاقهم عند التنزلات، لقرب مشاهدة المنزل الذي يجمعهم، والراكبان، خاطران علويان مَرّا به على حاله، فسألهما الخبر عن المقام العالي الأنزه: هل روّضت قاعة الطبيعة؟ وهل تَزَلّت غيوث الحياة لساحتها؟ فأنبتت ما يؤدي إلى البينونة من الكون، والغيرة من ظهور الغير هنالك، فأثبت له الحق الخاطر، أن يكرمه على ما أخبر، إلى أن نزل عليه روحه الخاص به، الذي كنى عنه بالنَفَس، فعقل عنهما ما جاءا به، وأودعهما حديثه بلسان الحال، من جري الدموع على مفارقة الأوطان والربوع.

قوله: أم هل أبيت، أي ستري عن ظلام الغيب؛ ودار عند كاظمة، من كظم غيظه خُلقا جميلا، وسمار ذاك الحيّ سماري، بالترداد بيني وبينهم بما يكون فيه علو مقامي وارتفاع شأني.

وسماعنا على قول كثير عزة:

لقد حلفت جهداً بما حلفت له ... قريش غداة المأزمين وصلّتِ
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها ... كناذرة نذراً فأوفت وحلّتِ
فقلت لها يا عَزّ كل مصيبة ... إذا وطنت يوماً لها النَفْسَ ذلّتِ

السماع في ذلك: المأزمين، المضيق الذي بين عالم الغيب والشهادة، هنالك تنحر النفوس عن أغراضها، تنحرها حال الجمعية التي كنى بها بقريش، (التقريش: التضييق). وصلّت: دعت إلى مقامها. وناذرة: هي الحالفة. وقطع الحبل بيننا: انفصالها عن ظلمة هذا الهيكل لما تقاسي فيه من ذل الحجاب، ولولا قوتها على الذل ـ فيما يصيبها من المقام الأعز الأحمى ـ لهلكت رأساً واحداً، ولكن الشيء لا يهلك عن حقيقته، فالذل لها ذاتي، فإن الإمكان افتقار وعجز محض، فالذل لها وصف لازم، وهو في غير ذلك المقام بالعرض.

وسماعنا على قول ابن الدمينة:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجداً على وجد
لئن هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد ولم أكن ... جليداً وأبديت الذي لم يكن يبدي
وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وأن النأي يشفي من الوجد
بكُلٍ تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافعٍ ... إذا كان من تهواه ليس بذي ودّ

السماع في ذلك: النَفَسُ طالع من المقام الأعلى كنى عنه بالصبا، والسؤال بالزمان لإحساسه به في عالم التركيب أثراً لا عيناً لعلوها عن ذلك، وكلما توالى السرى زادت المعارف، فيمكن الشوق، ويضاعف الوجد والبلوى، ثم قال: لئن هتفت النَفْسُ الأبية العلوية في زمان قوة النور الأجلى، صارخة على فنن الاعتدال الأكمل، الذي نشأ الكامل عليه في أول أمره[1]، وجعله زنداً للدهن الذي به مادة بقاء الأنوار، وما فيه من المنافع، فيقول: للنفس الحرية كما يبكي الوليد من الولادة، لأنها منها[2]، فجاء بما يشير به من الألفاظ، وكيف يكون جليداً فرع دعاه أصله إليه، فأبدى ما لديه، وقد زعموا ـ وهو حق ـ أن المحب إذا دنا من عالم الملك يمل، وأن النأي البعيد عنه يريح من الألم الصحيح، فهذا إنبأ عن أمر محقق، فالتجلي هناك لا يتكرر، والنعيم به مثله، فلا ملل، وقد تداوى المحبون بهما، وقرب دار كل محب ـ حيث كان حبيبه ـ خير له من بعدها، وكنى عن النفس بالورقاء، كما كَنّت الحكماء عنها بهذا الاسم. (مسامرات / ح ١)

مراتب الحب:

اعلم أن الحب على ثلاث مراتب: إلهي وروحاني وطبيعي، وما ثم حب غير هذا، فالحب الإلهي هو حب الله لنا، وحبنا الله أيضاً قد يطلق عليه أنه إلهي، والحب الروحاني هو الذي يسعى به في مرضاة المحبوب، لا يبقى له مع محبوبه غرض ولا إرادة، بل هو بحكم ما يُراد به خاصة؛ والحب الطبيعي هو الذي يطلب به نيل جميع أغراضه، سواء سر ذلك المحبوب أو لم يسره، وعلى هذا أكثر حب الناس اليوم. واعلم أن نسبة الحب إلينا ما هي نسبة الحب إلى الله تعالى، فالحب المنسوب إلينا ـ من حيث ما تعطيه حقيقتنا ـ ينقسم قسمين: قسم يقال فيه حب روحاني، والآخر حب طبيعي، وحبنا الله تعالى بالحبين معا، وهي مسألة صعبة التصور، إذ ما كل نفس ترزق العلم بالأمور على ما هي عليه، ولا ترزق الإيمان بها على وفق ما جاء من عند الله في أخباره عنه:

---

(١) يشير إلى قوله تعالى ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ وإلى قوله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾.

(٢) يشير إلى أن النَفْس متولدة بين الروح المنفوخ والجسد المسوى.

أحببت ذاتي حب الواحد الثاني / والحب منه طبيعي وروحاني
والحب منه إلهي أتتك به / ألفاظ نور هدى في نص قرآن
وقد سألت وما أدري سؤالكم / عن أي حب ولا عن أي ميزان
فكل حب له بدء يحققه / علمي سوى حب رب ما له ثاني
وكل حب له بدء وليس له / نهاية غير حب الطبع واثنان
لا يوصفان إذا حققت شأنهما / وما هما بنهايات ونقصان
فغاية الحب في الإنسان وصلته / روحا بروح وجثمانا بجثمان
وغاية الوصل بالرحمن زندقة / فإن إحسانه[1] جزء إحسان
إن لم أصوره[2] لم تعلم بمن كلفت / نفسي وتصويره[3] رد لبرهان

(ف ح ٢ / ٣٢٧، ١١١، ٣٢٠)

المرتبة الأولى: الحب الطبيعي:

الحب الطبيعي نوعان: طبيعي وعنصري، والحب الطبيعي هو العام، فإن كل المحبين قابلون للصور الطبيعية على ما تعطيه حقائقهم، فاتصفوا في حبهم بما تتصف به الصور الطبيعية، من الوجد والشوق والاشتياق وحب اللقاء بالمحبوب ورؤيته والاتصال به، وقد وردت أخبار كثيرة صحاح في ذلك، يجب الإيمان بها مثل قوله «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» مع كونه ما زال من عينه، ولا يصح أن يزول عن عينه، ووصف نفسه بالشوق إلى عباده، وقد ذكرنا في سبب الحب تجلي الحق في حضرة المثال في الصور في عالم التمثيل، وأنه تجل شهادي متنوع في الصور، وذكرنا تجلي الأرواح في الصور وتجسد المعاني، وذكرنا أن هذه الصور يلحقها ما يلزمها من رؤية وكلام وكل ما يلزم الصورة، وتنعت هذه الصورة المتجلى فيها بما تستحقه من جمال وضحك ودلال، إلى غير ذلك من النعوت والصفات، وكان لها التقييد بالزمان، فتتصف بالفراق والبين والهجران.

(ف ح ٢ / ٣٣٤ ـ ذخائر الأعلاق)

---

(١) الضمير هنا يعود على الإنسان في البيت قبله.

(٢) اعبد الله كأنك تراه.

(٣) تحديد الحق بصورة محددة يردها قوله تعالى: ليس كمثله شيء.

واعلم أن الحب الطبيعي ـ من ذاته ـ إذا قام بالمحب، أن لا يحب المحبوب إلا لما له فيه من النعيم به واللذة، فيحبه لنفسه لا لعين المحبوب، وهذه الحقيقة سارية في الحب الإلهي والروحاني، وأما بدء الحب الطبيعي فما هو للإنعام والإحسان، فإن الطبع لا يعرف ذلك جملة واحدة، وإنما يحب الأشياء لذاته خاصة، فيريد الاتصال بها والدنو منها، وهو سارٍ في كل حيوان، وهو في الإنسان بما هو حيوان، فيحبه الحيوان في نفس الأمر لقوام وجوده به لا لأمر آخر، ولكن لا يعرف معنى قوام وجوده، وإنما يجد داعية في نفسه للاتصال بموجود معين، ذلك الاتصال هو محبوبه بالأصالة، وذلك لا يكون إلا في موجودٍ معين، فيحب ذلك الموجود بحكم التبعية لا بالأصالة، فاتصاله اتصال محسوس وقرب محسوس، وهو قولنا «جثماناً بجثمان» فهذا هو غاية الحب الطبيعي، فإن كان نكاحاً عين محبوبه في موجود ما، فغايته حصول ذلك المحبوب في الوجود، فيطلب ويشتاق للمحل الذي يظهر فيه عين محبوبه، ولا يظهر إلا بينهما لا في واحد منهما، لأنها نسبة بين اثنين، وكذلك إن كان عناقاً أو تقبيلاً أو مؤانسة أو ما كان، ولا فرق بين أن نقول طبيعة الشيء أو حقيقته، كل ذلك سائغ في العبارة عنه، وهو في الإنسان أتم من غيره، لأنه جامع حقائق العالم والصورة الإلهية، فله نسبة إلى الجناب الأقدس، فإنه عنه ظهر، وعن قوله «كن» تكون، وله نسبة إلى الأرواح بروحه، وإلى عالم الطبيعة والعناصر بجسمه من حيث نشأته، فهو يحب كل ما تطلبه العناصر والطبيعة بذاته، وليس إلا عالم الأجسام والأجساد والأرواح، ومنها أجسام عنصرية، وكل جسم عنصري فهو طبيعي، ومنها أجسام طبيعية غير عنصرية ـ فما كل جسم طبيعي عنصري ـ فالعناصر في الأجسام الطبيعية لا يقال فيها عنصرية، وكذلك الأفلاك والأملاك، فالمحبوب هو الاتصال بموجود ما من كثيرين أو قليلين، ومع كونه مؤانسة ومجالسة وتقبيلاً وعناقاً وغير ذلك ـ بحسب ما تقتضيه حقيقة الموجود فيه ـ فهو عين المحبوب ويحسب حقيقة المحب، فالمحبوب واحد العين متنوع، وهو حب الاتصال خاصة، إما بحديث أو ضم أو تقبيل، هذا تنوعه في واحد أو كثيرين. (ف ح ٢ / ٣٣٤)

وأما القسم الثاني وهو الحب العنصري، فهو وإن كان طبيعياً، فبين القسمين فارق، وذلك أن الطبيعي لا يتقيد بصورة طبيعية دون صورة طبيعية، وهو مع كل صورة كما هو مع

الأخرى في الحب، مثل الكهرباء[1] مع ما يتعلق بها ومسكه بالخاصية، وأما العنصري فهو الذي يتقيد بصورة طبيعية وحدها، كقيس ليلى، وقيس لبنى، وكثير عزة، وجميل بثينة، ولا يكون هذا إلا لعموم المناسبة بينهما كمغناطيس الحديد. (ف ح ٢ / ٣٣٥)

فالحب الطبيعي هو حب العوام، وغايته الاتحاد في الروح الحيواني، فتكون روح كل واحد منهما روحاً لصاحبه بطريق الالتذاذ وإثارة الشهوة، ونهايته في الفعل النكاح، فإن شهوة الحب تسري في جميع المزاج، سريان الماء في الصوفة، بل سريان اللون في المتلون.

واعلم أنه قد يكون الحب طبيعياً والمحبوب ليس من عالم الطبيعة، ولا يكون الحب طبيعياً إلا إذا كان المحب من عالم الطبيعة، لا بد من ذلك، وذلك أن الحب الطبيعي سببه نظرة أو سماع، فيحدث في خيال الناظر مما رآه إن كان المحبوب ممن يدرك بالبصر، وفي خيال السامع مما سمع. (ف ح ٢ / ١١١)

أثر الحب الطبيعي:

فعل الحب في صورة المحبوب أن يعظم شخصها، حتى يضيق محل الخيال عنها فيما يخيل إليه، فتثمر تلك العظمة والكبر التي في تلك الصورة نحولاً في بدن المحب، فلهذا تنحل أجساد المحبين، فإن مواد الغذاء تنصرف إليها فتعظم، وتقل عن البدن فينحل، فإن حرقة الشوق تحرقه، فلا يبقى للبدن ما يتغذى به، وفي ذلك الاحتراق نمو صورة المحبوب في الخيال، فإن ذلك أكلها؛ ثم إن القوة المصورة تكسو تلك الصورة في الخيال حسناً فائقاً وجمالاً رائعاً، يتغير لذلك الحسن صورة المحب الظاهرة، فيصفر لونه وتذبل شفته وتغور عينه، ثم إن تلك القوة تكسو تلك الصورة قوة عظيمة تأخذها من قوة بدن المحب، فيصبح المحب ضعيف القوى ترعد فرائصه، ثم إن قوة الحب في المحب تجعله يحب لقاء محبوبه، ويجبن عند لقائه لأنه لا يرى في نفسه قوة للقائه، ولهذا يُغشى على المحب إذا لقي المحبوب ويصعق، ومَنْ فيه فضلة وحبه ناقص، يعتريه عند لقاء محبوبه ارتعاد وخبلان، كما قال بعضهم:

أفكـر ما أقـول إذا افـترقنـا ... وأُحْكِمُ دائباً حجج المقـال
فأنسـاهـا إذا نحن التقينـا ... وأنـطق حين أنـطق بالمحـال

(١) يشير إلى الكهرباء الساكنة.

ثم إن قوة الحب الطبيعي تشجع المحب بين يدي محبوبه له لا عليه، فالمحب جبان شجاع مقدام، فلا يزال هذا حاله ما دامت تلك الصورة موجودة في خياله، إلى أن يموت وينحل نظامه، أو تزول عن خياله فيسلو.

ومن الحب الطبيعي أن تلتبس تلك الصورة في خياله، فتلصق بصورة نفسه المتخيلة له، وإذا تقاربت الصورتان في خياله تقارباً مفرطاً، والتصقت به لصوق الهواء بالناظر، يطلبه المحب في خياله فلا يتصوره، ويضيع ولا ينضبط له، للقرب المفرط، فيأخذه لذلك خبال وحيرة مثل ما يأخذ من فقد محبوبه، وهذا هو الاشتياق، والشوق من البعد، والاشتياق من القرب المفرط؛ كان قيس ليلى في هذا المقام، حيث كان يصيح: ليلى ليلى في كل ما يكلم به، فإنه كان يتخيل أنه فقيد لها، ولم يكن، وإنما قرب الصورة المتخيلة أفرطت في القرب فلم يشاهدها، فكان يطلبها طلب الفاقد، ألا تراه حين جاءته من خارج، ولم تطابق صورتها الظاهرة الصورة الباطنة المتخيلة التي مسكها في خياله منها، فرآها كأنها مزاحمة لتلك الصورة فخاف فقدها، فقال لها: «إليك عني فإن حبك شغلني عنك» يريد أن تلك الصورة هي عين الحب، فبقي يطلبها ليلى ليلى.

والمحب لا يعلل فعل المحبوب، لأن التعليل من صفات العقل، ولا عقل للمحب، يقول بعضهم: «لا خير في حب يدبر بالعقل» وأنشدني أبو العباس المقراني - وكان من المحبين - لنفسه «الحب أملك للنفوس من العقل»، والمحبوب يعلل أفعال المحب أحسن التعليل لأنه مُلْكُه، فيريد أن يظهر شرفه وعلوه، حتى يعلو المحبوب، إذ هو المالك، وهو يحب الثناء على نفسه، وهذا كله فِعلُ الحب، فَعَلَ في المحبوب ما ذكرناه، وفَعَل في المحب ما ذكرناه، وهذا من أعجب الأشياء، أن المعنى أوجب حكمه لمن لم يقم به وهو المحبوب، فإنه أثر فيه حب المحب كما أثر في المحب، فالحب لا يجتمع مع العقل في محل واحد، فلا بد أن يكون حكم الحب يناقض حكم العقل، فالعقل للنطق، والتهيام للخرس.

ثم إنه من شأن الحب الطبيعي أن تكون الصورة التي حصلت في خيال المحب على مقدار المحل الحاصل فيه، بحيث لا يفضل عنها منه ما يقبل به شيئاً أصلاً، وإن لم يكن كذلك فما هي صورة الحب، وبهذا تخالف صورة الحب سائر الصور، ولهذا طابق العالم الأسماء الإلهية، من غير زيادة ولا نقصان، فإنه عن حب وجد، ولولا تعشق النفس بالجسم

ما تألم عنـد مفـارقتـه، مع كونه ضداً له، فجمع بين المقادير والأحوال، لوجود النسب والأشكال، فالنسب أصل في وجود الأنساب، وإن كانت الأرواح تخالف الأشباح، والمعاني تخالف الكلمات والحروف، ولكن تدل الكلمة على المعنى بحكم المطابقة، بحيث لو تجسد المعنى لما زاد على كمية الكلمة، ومثل هذا النوع يسمى حباً. (ف ح ٢ / ١١١)

المرتبة الثانية: الحب الروحاني النفسي:

الحب الـروحاني النفسي غايته التشبه بالمحبوب، مع القيام بحق المحبوب ومعرفة قدره، وكما أن الحب الطبيعي خاضع للحد والمقدار والشكل، فإن الحب الروحاني خارج عن الحد، وبعيد عن المقدار والشكل، وذلك أن القوى الروحانية لها التفات نسبي، فمتى عمت النسب في الالتفـات بين المحب والمحبوب، عن نظر أو سماع أو علم، كان ذلك الحب، فإن نقص ولم تستوف النسب لم يكن حباً، ومعنى النسب: أن الأرواح التي من شأنها أن تهب وتعطي، متوجهة على الأرواح التي من شأنها أن تأخذ وتمسك، وتلك تتألم بعدم القبول، وهذه تتألم بعدم الفيض، وإن كان لا ينعدم، إلا أن كونه لم تكمل شروط الاستعداد والزمان، سمى ذلك الروح القابل عدم فيض، وليس بصحيح، فكل واحد من الروحين مستفرغ الطاقة في حب الآخر، فمثل هذا الحب إذا تمكن من الحبيبين، لم يشك المحب فرقة محبوبه، لأنه ليس من عالم الأجسام ولا الأجساد، فتقع المفارقة بين الشخصين، أو يؤثر فيه القرب المفرط، كما فعل في الحب الطبيعي، فالمعاني لا تتقيد ولا تتحيز، ولا يتخيلها[1] إلا ناقص الفطرة، فإنه يصور ما ليس بصورة؛ وهذا هو حب العارفين الذين يمتازون به عن العوام أصحاب الاتحاد[2] فهذا محب أشبه محبوبه في الافتقار، لا في الحال والمقدار، ولهذا يعرف المحب قدر المحبوب من حيث ما هو محبوب. (ف ح ٢ / ١١١)

والحب الروحاني هو الحب الجامع في المحب أن يحب محبوبه لمحبوبه ولنفسه، إذ كان الحب الطبيعي لا يحب المحبوب إلا لأجل نفسه، فاعلم أن الحب الروحاني إذا كان المحب موصوفاً بالعقل والعلم، كان بعقله حكيماً، وبحكمته عليماً، فرتب الأمور ترتيب الحكمة، ولم يتعد بها منازلها، فعلم إذا أحب ما هو الحب؟ وما معنى المحب؟ وما حقيقة المحبوب؟

(١) مقيدة ومتحيزة.

(٢) يعني في الروح الحيواني راجع ص ٦٥.

وما يريد من المحبوب؟ وهل لمحبوبه إرادة واختيار، فيحب ما يحب المحبوب؟ أم لا إرادة له فلا يحبه إلا لنفسه؟ أو الموجود الذي لا يريد وجود محبوبه إلا في عين ذلك الموجود ـ فبهذا القدر نقول في الموجود إنه محبوب وإن لم يكن إلا فيه لا عينه ـ فذلك الموجود إن كان ممن يتصف بالإرادة، فيمكن أن يحبه له لا لنفسه، وإن لم يتصف بالإرادة، فلا يحب المحب محبوبه إلا لنفسه، أعني لنفس المحب لا لمحبوبه، فإن محبوبه غير موصوف بأن له محبة في شيء أو غرضاً، لكن الذي يوجد فيه هذا المحبوب قد يكون ذا إرادة، فيتعين على المحب أن يحب محبوب ذلك الموجود، فيحبه له ولكن بحكم التبع، هذا تعطيه المحبة، فإن المحب يطلب بذاته الوصلة بعد طلبه وجود محبوبه، فإن عين وجود محبوبه عين وصلته، لا بد من ذلك، وهو قولنا:

زمان الوجود زمان الوصال ... زمان الوداد كلوا واشربوا

وهذا البيت من قصيدة لنا، في مجلى حقيقة تجلت لنا في حضرة شهودية وهي:

تعجبت من زينب في الهوى ... وليس لنا في غيرها مذهب
فلما تجلى لنا نور من ... أنار الحشى فانجلى الغيهب
بذلت لها نفسها ضنة ... بها والهوى أبداً متعب
فلم يك بين حصول الهوى ... ونيل المنى أمد يضرب

لأنه عندما يحصل الهوى يقع التنفس والتنهد، فيخرج النفس بشكل ما تصور في نفس المحب من صورة المحبوب، فيظهر صورة من خارج يشاهدها، فيحصل له مقصوده، ونعيمه بها من غير زمان، فتممنا وقلنا بعد هذا في القصيدة عينها:

تعجبت من رحمة الله بي ... ومن مثل ذا ينبغي تعجبوا
زمان الوداد زمان الوجود ... زمان الوصال كلوا واشربوا
فأين الغرام وأين السقام ... وأين الهيام ألا فاعجبوا
مظهرة الثوب محجوبة ... فليست إلى أحد تنسب

فإن المحبوب كما قلنا لا بد أن يكون معدوماً، وفي حال عدمه فهو طاهر الثوب في أول ما يوجد، لأنه ما اكتسب منه مما يشينه ويدنسه في أول ظهوره ووجوده، فالأصل الطهارة وهو قوله ﷺ «كل مولولد يولد على الفطرة» وهي الطهارة، وقولنا «محجوبة» هو عدمها الذي

قلنـا من شهـود الوجود، وقولنا «فليست إلى أحد تنسب» لأن المعدوم لا ينسب، ولكن المحب يطلبه لنفسه، ثم تممنا فقلنا في آخر القصيدة:

فقــد وجـب الـشـكـر لله إذ   هي الـبـكــر لي وأنــا الـثـيب

لأن المحبوب وجد عن عدم فهو بكر، وقد كنت أحببت قبل ذلك فأنا ثيب.

فإذا كان المحبوب ـ الذي هو المعدوم ـ إذا وجد لا يوجد في موجود يتصف بالإرادة، لم يتصف هذا المحب بأنـه يريده له، فيحبه لنفسه بالضرورة كالحب الطبيعي، فإذا كان المحبوب لا يوجد إلا في موجود متصف بالإرادة، كالحق تعالى أو جارية أو غلام، وما ثَمَّ من يتعلق به حب المحب إلا من ذكرناه، فحينئذ يصح أن يحب ما يحب هذا الموجود، الذي لا يوجد إلا فيه، فإن اتفق أن يكون ذلك لا يريد ما أحب هذا المحب، بقي المحب على أصله في محبته محبوبه، لأن محبوبه ما له إرادة كما قلنا، فلا يلزم من هذا أن يحب ما أحب هذا الموجود، الذي لا يحب ما يحبه هذا المحب، إذ كان ذلك الموجود ما هو عين المحبوب، وإنـما هو محل لوجـود ذلـك المحبوب، وليس في قوة المحب إيجاد ذلك المحبوب في هذا الموجود، إلا إن أمكنه من نفسه، وأما إن كان المحبوب ممن لا يكون وجوده في موجود، فلا يتمكن له أيجاد المحبوب البتة، إلا أن تقوم من الحق به عناية، فيعطيه التكوين. كعيسى عليه السلام ومن شاء الله من عباده . فإذا أعطي هذا، فبالضرورة يحمله الحب على إيجاد محبـوبه، وهذه مسألة لا تجدها محققة على ما ذكرناه فيها في غير هذا الكتاب (الفتوحات المكية) لأني ما رأيت أحداً حقق فيها ما ذكرناه، وإن كان المحبون كثيرون، بل كل من في الوجود محب، ولكن لا يعرف متعلق حبه، وينحجبون بالموجود الذي محبوبه فيه، فيتخيلون أن ذلك الموجود محبوبهم، وهو على الحقيقة بحكم التبعية.

فعلى الحقيقة لا يحب أحد محبوباً لنفس المحبوب وإنما يحبه لنفسه، هذا هو التحقيق، فإن المعدوم لا يتصف بالإرادة فيحبه المحب له، ويترك إرادته لإرادة محبوبه، ولما لم يكن الأمر في نفسه على هذا، لم يبق إلا أن يحبه لنفسه، فافهم فهذا من الحب الروحاني المجرد عن الصورة الطبيعية، فإن تَلَبَّس بها وظهر فيها كما قلنا في الحب الإلهي، وهو في الروحاني أقرب نسبة، لأنه على كل حال صورة من صور العالم، وإن كان فوق الطبيعة، فاعلم أنه إذا قبل الروح الصورة الطبيعية في الأجساد المتخيلة، لا في الأجسام المحسوسة التي جرت

العادة بإدراكها، فإن الأجساد المتخيلة أيضاً معتادة الإدراك، لكن ما كل من يشهدها يفرق بيها وبين الأجسام الحقيقية عندهم، فإذا تجلى الروح في صورة طبيعية مشى الحكم عليها، كما سنذكره في الحب الإلهي، سواء من حيث قبول تلك الصورة للظاهر والباطن، فيجمع بين الحب الطبيعي والروحاني، وبين الحب لنفسه ولمحبوبه، إن كان محبوبه كما قلنا ذا إرادة، ويتبين لنا بما قررناه أن الناس لا يعرفون ما يحبون، وأنه يندرج محبوبهم في موجود ما، فيتخيلون أنهم يحبون ذلك الموجود وليس كذلك فاعلم قدر ما أعلمتك به، واشكر الله حيث خلصك من الجهل بي. (ف ح ٢ / ٣٣٢)

وأما غاية الحب الروحاني في الصور الطبيعية فهو الاتحاد، وهو أن تصير ذات المحبوب عين ذات المحب، وذات المحب عين ذات المحبوب، وهو الذي تشير إليه الحلولية - ولا علم لها بصورة الأمر - فاعلم أن الصورة الطبيعية على أي حال كان ظهورها، جسماً أو جسداً، بأي نسبة كانت، فإن المحبوب الذي هو المعدوم - وإن كان معدوماً - فإنه ممثل في الخيال، فله ضرب من ضروب الوجود المدرك بالبصر الخيالي في الحضرة الخيالية، بالعين التي تليق بها، فإذا تعانق الحبيبان وامتص كل واحد منهما ريق صاحبه، وتحلل ذلك الريق في ذات كل واحد من الحبيبين، وتنفس كل واحد من الصورتين عند التقبيل والعناق، فخرج نفس هذا فدخل في جوف هذا، ونفس هذا في جوف هذا، وليس الروح الحيواني في الصور الطبيعية سوى ذلك النفس، وكل نَفَس فهو روح كل واحد من المتنفسين، وقد حيي به مَنْ قَبِلَه في حال التنفس والتقبيل، فصار ما كان روحاً لزيد هو بعينه يكون روحاً لعمر، وقد كان ذلك النفس خرج من محب فتشكل بصورة حب، فصحبته لذة المحبة، فلما صار روحاً في هذا الذي انتقل إليه، وصار نفس الآخر روحاً في هذا الآخر، عبر عن ذلك بالاتحاد في حق كل واحد من الشخصين، وصح له أن يقول: أنا من أهوى ومن أهوى أنا؛ هذا غاية الحب الروحاني في الصور الطبيعية، وهو قولنا في أول القصيدة: «روحاً بروح وجثماناً بجثمان» فسر الاتحاد مجهول في الأشباح، معقول في الأرواح، إذا انضم الحبيبان في الثوب الواحد، وتلاصق المتيمان بحكم الشاهد، وتعانق الشكلان تعانق اللام والألف، وارتبطا على السر الذي لا ينكشف، وأداما التعنيق، وامتصاص الريق، فانحدرت رطوبته

الشهية، إلى المعدة الغيبية، وامتزجت مع الرطوبات التي فيها القُبلية[1] ودفعتها إلى بيت الكبد، المودع في الجسد، واختلطت رطوبة ريق المعشوق، بأجزاء الدم، وانتشرت بين الجلد واللحم في العروق، فكانت منها حياة ذلك الجسد، وعمارة ذلك البلد، فإن روح الحياة في هذه الأشباح، وهو المعبر عنه بالأرواح، ومادته من الاستنشاق الهوائي بالقوة الشمية، لترويح الحرارة التي في القلب الغريزية، فلولا هذا التبريد، لوقع التبديد، وكذلك إذا تنفس الحبيبان مكافحة، وتنهدا مناوحة، خرج من ذلك التنفس شيء من نسيم الروح، فاختلط بأجزاء الهواء، فدخل إلى خياشمهما على السواء، فسرى في أجسامهما علواً وسفلاً، سريان النور في البلور، على طريق الرئة والحلقوم إلى القلب، والتحق بعالم الغيب، فدب مع النبض والعروق الضوارب، واختلط بالدم واللحم في جميع المضارب، فانعقد في بدن هذا، ما تحلل من بدن هذا، فصار له روحاً، والجسم له ضريحاً، ولما كان الروح الذي هو الحياة أحب شيء للإنسان، صار هذا المعشوق أحب شيء إليه في الأعيان، لاتحاد أرواحهما في الجثمان، وإلى هنا انتهى عقل العقلاء، ونظر أهل المودة والصفاء، وما قدر أحد أن يزيد عليه معنى يحقق به قوله ودعواه، فإن الاعتراض منوط بفحواه، فزدنا بحمد الله عليهم في المسألة إيضاحاً، وجعلنا له الإشارة عليه مفتاحاً، فاعلم أن النَفَس والريق إنما يجريان بحسب ما استقر في القلب استقرار الاستفراغ، وانتهى فيه غاية البلاغ، فحينئذ يكون ما قالوه، ويظهر ما أخبروا به وسطروه، كما حُكي عن الحلاج أنه انكتب من دمه اسم المحبوب، وكذلك زليخا حين فصدت وقع دمها في الطست فكتب يوسف بن يعقوب، فالذي يكون في القلب يظهر بتزيد كائناً ما كان، حتى يذهب من الأذهان، وصح للمحب أن يقول: أنا من أهوى ومن أهوى أنا؛ يقول المحب الإلهي: وجدي إنما هو عَلَيَّ، وعشقي إنما هو فِيَّ، وولهي إنما هو بي، ففيَّ أهلك ولي أملك، فأنا المحب المحبوب، وأنا العاشق المعشوق، وأنا طالب الحق الذي توجهت عليّ الحقوق. (ف ح ٢ / ٣٣٤ ـ تاج الرسائل)

المرتبة الثالثة: الحب الإلهي:

الحب الإلهي هو حب الله العبد وحب العبد ربه، كما قال تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ ونهايته من الطرفين أن يشاهد العبد كونه مَظهراً للحق، وهو لذلك الحق الظاهر كالروح

(١) من القبلة والتقبيل وفي نسخة القلبية.

للجسم، باطنه غيب فيه لا يُدرَك أبداً، ولا يشهده إلا محب، وأن يكون الحق مَظهراً للعبد، فيتصف بها يتصف به العبد من الحدود والمقادير والأعراض، ويشاهد هذا العبد، وحينئذ يكون محبوباً للحق. (ف ح ٢ / ١١١)

فحب الله تعـالى هو أن يحبنا لنا ولنفسه، وهو قوله: «أحببت أن أعرف فخلقت الخلق، فتعرفت إليهم فعرفوني» فما خلقنا إلا لنفسه حتى نعرفه. وقوله: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ فما خلقنا إلا لنفسه، وأما حبه إيانا لنا، فلما عرفنا به من الأعمال التي تؤدينا إلى سعادتنا، ونجاتنا من الأمور التي لا توافق أغراضنا، ولا تلائم طباعنا.
(ف ح ٢ / ٣٢٧)

وأمـا حبنـا الله تعالى المسمى بالحب الإلهي، فهو حبنا الله تعالى بالحبين الطبيعي والروحاني معاً، وهي مسألة صعبة التصور، إذ ما كل نفس ترزق العلم بالأمور على ما هي عليه، ولا ترزق الإيمان بها على وفق ما جاء من الله في إخباره عنه.

وما بقي لنا بعد التقسيم في حبنا إياه إلا أربعة أقسام، وهي: إما أن نحبه له، أو نحبه لأنفسنا، أو نحبه للمجموع، أو نحبه ولا لواحد مما ذكرناه، وهنا يحدث نظر آخر، وهو لماذا نحبه؟ - إذ وقد ثبت أنَّا نحبه - فلا نحبه له ولا لأنفسنا ولا للمجموع، فما هو هذا الأمر الرابع؟ هذا فصل؛ وثَمَّ تقسيم آخر، وهو وإن أحببناه، فهل نحبه بنا أو نحبه به، أو نحبه بالمجموع، أو نحبه ولا بشيء مما ذكرناه؟ كل هذا يقع الشرح فيه والكلام عليه إن شاء الله، وما بدء حبنا إياه؟ وهل لهذا الحب غاية فيه ينتهي إليها أم لا؟ فإن كانت له غاية فما تلك الغاية؟ وهذه مسألة ما سألني عنها أحد إلا امرأة لطيفة من أهل هذا الشأن، وهل الحب صفـة نفسية في المحب؟ أو معنى زائد على ذاته وجودي؟ أو هو نسبة بين المحب والمحبوب لا وجود لها؟

فمنا من أحب الله تعالى له، ومنا من يحبه لنفسه، ومنا من يحبه للمجموع وهو أتم في المحبة، لأنه أتم في المعرفة بالله والشهود، لأن منا من عرفه في الشهود فأحبه للمجموع، ومنا من عرفه لا في الشهود ولكن في الخبر فأحبه له، ومنا من عرفه في النعم فأحبه لنفسه، ومنا من أحبه للمجموع، وذلك أن الشهود لا يكون إلا في صورة، والصورة مركبة، والمحب ذو صورة مركبة، فيسمعٍ من وجه فيحبه للخبر مثل قوله على لسان نبيه ﷺ: « هل واليت

لي ولياً أو عاديت فيَّ عدوا؟ » فإذا أحببت الأشياء من أجله وعاديت الأشياء من أجله، فهذا معنى حبنا له، ليس غير ذلك، فقمنا بجميع ما يحبه منا أن نقوم به عن طيب نفس، ويكون من لا يشاهده من صورتي في حكم التبع، كما هي الجوارح منا وحيوانيتنا بحكم النفس الناطقة لا تقدر على مخالفتها لأنها كالآلات لها، تصرفها كيف تريد في مرضاة الله وفي غير مرضاته، وكل جزء من جوارح الإنسان إذا ترك بالنظر إلى نفسه، لا يتمكن له أن يتصرف إلا فيما يرضي الله، فإنه له، وجميع ما في الوجود بهذه المثابة إلا الثقلان، وهو قوله: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ يريد بذلك التسبيح الثناء على الله لا للجزاء، لأنه في عبادة ذاتية لا يتصور معها طلب مجازاة، فهذا من حبنا له سبحانه، إلا بعض النفوس الناطقة، لما جعل لها في معرفة الله القوة المفكرة، لم تفطر على العلم بالله، بل كانت تحب الأسباب، ثم اهتدت بواسطة الفكر إلى موجد الأسباب، فانتقل تعلق الحب في السبب الموجد للأسباب، وقالت النفس: هو أولى بي أن أحبه، ولكن لا أعلم ما يرضيه حتى أعامله به، فحصل عندها حبه لما أنعم عليها من وجودها ووجود ما يلائمها، وهنا وقفت غافلة ناسية إقرارها بربوبية موجدها في قبضة الذر، فبينا هي كذلك، إذ جاءها داع من خارج من جنسها، ادعى أنه رسول من عند هذا الذي أوجدها، فقالت له: أنت مثلي وأخاف أن لا تكون صادقاً، فهل عندك من يصدقك فإن لي قوة مفكرة بها توصلت إلى معرفة موجدي؟ فقام لها بدليل يصدقه في دعواه، ففكرت فيه إلى أن ثبت صدقه عندها، فآمنت به، فعرّفها أن ذلك الموجود الذي أوجدها كان قد قبض عليها، وأشهدها على نفسها بربوبيته وأنها شهدت له بذلك، فقالت: ما عندي من ذلك خبر، ولكن من الآن أقوم بواجب ذلك الإقرار، فإنك صادق في خبرك، ولكن ما أدري ما يرضيه من فعلي، فلو حددت حدوداً ورسمت لي مراسم أقف عندها، حتى تعلم أني ممن وفَّى بشكره على ما أنعم به عليّ، فرسم لها ما شرع، فقامت بذلك شكراً وإن خالف غرضها، ولم تفعل ذلك خوفاً ولا طمعاً، لأنه لما رسم لها ما رسم ابتداءً وعرَّفها أن وقوفها عند تلك المراسم يرضيه، وما ذكر لها ما لها في ذلك من الثواب وما عليها إن خالفت من العقاب، فبادرت هذه النفس الزكية لمراضيه في ذلك، فقالت: «لا إله إلا الله» كما قيل لها، ثم بعد ذلك عرفها ما لها في ذلك من الثواب الجزيل والإنعام التام، وما لمن خالف شرعه من العقاب، فانضاف إلى عبادتها إياه ـ حباً

ورضى خاصة ـ عبادة أخرى تطلبها رغبة في الثواب ورهبة من العقاب، فجمعت في عبادتها بين أمرين: بين عبادة له وعبادة رغبة ورهبة، فأحبته له ولنفسها، من حيث ما هي كثيرة بطبيعتها وروحانيتها، فتعلقت الرغبة والرهبة من حيث طبيعتها، وتعلقت عبادتها إياه محبة له من روحانيتها، فإن أحبت شيئاً من الموجودات سواه، فإنما تحبه من روحانيتها له، ومن طبيعتها لنيل غرضها، فلما رآها الحق على ذلك، وقد علم أن من حقيقتها الانقسام، وقد جمعت بين الحبين، وقد وصف نفسه بالغيرة، فلم يرد المشاركة، وأراد أن يستخلصها لنفسه فلا تحب سواه، فتجلى لها في صورة طبيعية، وأعطاها علامة لا تقدر على إنكارها في نفسها، وهي المعبر عنها بالعلم الضروري، فعلمت أنه هو هذه الصورة، فمالت إليه روحاً وطبعاً، فلما ملكها، وعلم أن الأسباب لا بد أن تؤثر فيها ـ من حيث طبيعتها ـ أعطاها علامة تعرفه بها، ثم تجلى لها بتلك العلامة في جميع الأسباب كلها فعرفته، فأحبت الأسباب من أجله لا من أجلها، فصارت بكلها له لا لطبيعتها ولا لسبب غيره، فنظرته في كل شيء، فزهت وسرت، ورأت أنها قد فضلت غيرها من النفوس بهذه الحقيقة، فتجلى لها في عين ذاتها الطبيعية والروحانية بتلك العلامة، فرأت أنها ما رأته إلا به لا بنفسها، وما أحبته إلا به لا بنفسها، فهو الذي أحب نفسه ما هي أحبته، ونظرت إليه في كل موجود بتلك العين عينها، فعلمت أنه ما أحبه غيره، فهو المحب والمحبوب، والطالب والمطلوب، وتبين لها بهذا كله أن حبها إياه له ولنفسها، فما شاهدته في هذه المرتبة الأخرى من حبها إياها، إنما كان به، لا بها ولا بالمجموع، وما ثَمَّ أمر زائد إلا العدم، فأرادت أن تعرف ما قدر ذلك الحب؟ وما غايته؟ فوقفت على قوله: «كنت كنزاً لم أُعرف فأحببت أن أعرف» وقد عرفته لما تجلى لها في صورة طبيعية، فعلمت أنه يستحق من تلك الصورة التي ظهر لها فيها اسم الظاهر والباطن، فعلمت أن الحب الذي أحب به أن يعرف، إنما هو في الباطن المنسوب إليه، وعلمت أن المحب من شأنه إذا قام بالصورة أن يتنفس، لما في ذلك التنفس من لذة المطلوب، فخرج ذلك النَفَس عن أصل محبة في الخلق، الذي يريد التعرف إليهم ليعرفوه، فإذا قلنا: إن للحب الإلهي بدءاً، فبدؤه النَفَس الإلهي عن رؤية المحبوب، فهذا بدء حبه إيانا، وأما حبنا إياه، فبدؤه السماع لا الرؤية، وهو قوله لنا ونحن في جوهر العماء «كن»، فالعماء من تنفسه، والصور المعبر عنها بالعالَم من كلمة «كن»، فلما سمعنا كلامه ونحن ثابتون في جوهر العماء،

لم يتمكن أن نتوقف عن الوجود، فكنا صوراً في جوهر العماء، فأعطينا بظهورنا في العماء الوجود للعماء، بعد ما كان معقوليَّ الوجود حصل له الوجود العيني، فهذا كان سبب بدء حبنا إياه.

وأما غاية حبنا إياه، فأن نعلم حقيقة ما حبنا؟ هل هو صفة نفسية للمحب أو معنوية فيه؟ أو نسبة بين المحب والمحبوب؟ وهي العلاقة التي تجذب المحب لطلب الوصلة بالمحبوب؛ فقلنا: هي صفة نفسية للمحب، فإن قيل: نراها تزول، قلنا: من المحال زوالها إلا بزوال المحب من الوجود، والمحب لا يزول من الوجود، فالمحبة لا تزول، وإنما الذي يعقل زواله، إنما هو تعلقه بمحبوب خاص، يمكن أن يزول ذلك التعلق الخاص، وتزول تلك العلاقة بذاك المحبوب المعين، وتتعلق بمحبوب آخر، وهي متعلقة بمحبوبين كثيرين، فتنقطع العلاقة بين المحب ومحبوب خاص، وهي موجودة في نفسها، فإنها عين المحب، فمن المحال زوالها، فالحب هو نفس المحب وعينه، لا صفة معنى فيه يمكن أن ترتفع فيرتفع حكمها، فالعلاقة هي النسبة بين المحب والمحبوب، والحب هو عين المحب لا غيره، فصف بالحب من شئت من حادث وغيره، فليس الحب سوى عين المحب، فما في الوجود إلا محب ومحبوب، لكن من شأن المحبوب أن يكون معدوماً ولا بد، فيحب إيجاد ذلك المعدوم أو وقوعه في موجود ولا بد، لا في معدوم، هذا أمر محقق لا بد منه، فالعلاقة التي في المحب إنما هي في ذلك الموجود الذي يقبل وجود ذلك المحبوب أو وقوعه، لا وجوده إذا كان المحبوب لا يمكن أن يتصف بالوجود، ولكن يتصف بالوقوع، مثال ذلك: أن يحب الإنسان إعدام أمر موجود، لما في وجوده من الضرر في حقه كالألم، فإنه أمر وجودي في المتألم، فيحب إعدامه، فمحبوبه الإعدام وهو غير واقع، فإذا زال الألم، فإزالته عدمه بعد وجوده بانتقاله إلى العدم، فلهذا قلنا في مثل هذا بالوقوع لا بالوجود، فالمحبوب معدوم أبداً، ولا تصح محبة الموجود جملة واحدة إلا من حيث العلاقة، إذ لا تتعلق إلا بموجود يظهر فيه وجود ذلك المحبوب المعدوم. (ف ح ٢ / ٣٢٩)

واعلم أن الحب الإلهي من اسمه الجميل والنور، فيتقدم النور إلى أعين الممكنات، فَيُنفِّر عنها ظلمة نظرها إلى نفسها وإمكانها، فيحدث لها بصراً هو بصره، إذ لا يُرَى إلا به، فيتجلى لتلك العين بالاسم الجميل فتتعشق به، فيصير عين ذلك الممكن مَظْهَراً له، فيبطن

العين من الممكن فيه وتفنى عن نفسها، فلا تعرف أنها محبة له سبحانه، أو تفنى عنه بنفسها مع كونها على هذه الحالة، فلا تعرف أنها مَظهر له سبحانه، وتجد من نفسها أنها تحب نفسها، فإن كل شيء مجبول على حب نفسه، وما ثَمَّ ظاهر إلا هو في عين الممكن، فما أحب الله إلا الله، والعبد لا يتصف بالحب إذ لا حكم له فيه، فإنه ما أحبه منه سواه الظاهر فيه، وهو الظاهر، فلا تعرف أيضاً أنها محبة له، فتطلبه وتحب أن تحبه، من حيث أنها ناظرة إلى نفسها بعينه، فنفس حبها أن تحبه، هو بعينه حبها له، ولهذا يوصف هذا النور بأن له أشعة أي أنه شعشعاني، لامتداده من الحق إلى عين الممكن، ليكون مَظْهَراً له ـ بنصب الهاء لا اسم فاعل ـ فإذا جمع مَنْ هذه صفته بين المتضادات في وصفه، فذلك هو صاحب الحب الإلهي، فإنه يؤدي إلى إلحاقه بالعدم عند نفسه كما هو في نفس الأمر[1]، فعلامة الحب الإلهي حب جميع الكائنات في كل حضرة، معنوية أو حسية أو خيالية أو متخيلة، ولكل حضرة عين من اسمه النور تنظر بها إلى اسمه الجميل، فيكسوها ذلك النور حلة وجود، فكل محب ما أحب سوى نفسه، ولهذا وصف الحق نفسه بأنه يحب المظاهر، والمظاهر عدم في عين، وتعلق المحبة بها ظهر وهو الظاهر فيها، فتلك النسبة بين الظاهر والمظاهر هي الحب، ومتعلق الحب إنما هو العدم، فمتعلقها هنا الدوام، والدوام ما وقع فإنه لا نهاية له، وما لا نهاية له لا يتصف بالوقوع. (ف ح ٢ / ١١٢)

تحقيق: لماذا يبتلي الله أحبابه؟

قال ﷺ: «أشدكم بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل».

إن قلت المحبوب لا يكون مُعذَّباً بشيء، فلا بد أن يحول المحب بين ما يؤلم محبوبه وبين محبوبه، وإن لم يفعل ذلك فليس بمحب ولا ذلك محبوباً، والله أحب أولياءه، والمحب لا يؤلم محبوبه، وليس أحد بأشد ألماً في الدنيا ولا بلاء من أولياء الله، رسلهم وأنبيائهم وأتباعهم المحفوظين المعانين على اتباعهم، فمن أي حقيقة استحقوا هذا البلاء مع كونهم محبوبين؟ قلنا: إن البلاء لا يكون أبداً إلا مع الدعوى، فمن لم يدع أمراً لا يبتلى بإقامة الدليل على صدق دعواه، فلولا الدعوى ما وقع البلاء، فلما أحب الله من أحب من عباده،

---

(١) يريد قوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾، وقول رسول الله ﷺ: «أصدق ما قالت العرب قول لبيد ـ ألا كل شيء ما خلا الله باطل ـ» والباطل هو العدم.

رزقهم من جملة ما رزقهم محبته من حيث لا يعلمون، فوجدوا في نفوسهم حباً لله، فادعوا أنهم من محبي الله، فابتلاهم من كونهم محبين لا من كونهم محبوبين، وأنعم عليهم من كونهم محبوبين، وإنعامه دليل على محبته فيهم، ولله الحجة البالغة، فابتلاؤه إياهم لما ادعوه من حبهم إياه، فلهذا ابتلى الله أحبابه من المخلوقين، فما ابتلى الله من ابتلى من عباده المحبوبين عنده من كونهم محبوبين، فالمحبوب له الإدلال والمحب له الخضوع، فالمحبوب لا يذوق بلاء. (ف ح ٤ / ٥٢٥، ٣٤٥، ٥٢٥)

ومن وجه آخر، من أحب الجمال أحب الجميل، والمحب لا يعذب محبوبه إلا على إيصال الراحة، أو على التأديب لأمر وقع منه على طريق الجهالة، كما يؤدب الرجل ولده مع حبه فيه، ومع هذا يضربه وينهره لأمور تقع منه، مع استصحاب الحب له في نفسه، فمآلنا - إن شاء الله - إلى الراحة والنعيم حيث كنا، فإن اللطف الإلهي هو الذي يدرج الراحة من حيث لا يعرف مَنْ لُطِفَ به، فالجمال له من العالم، وفيه الرجاء والبسط واللطف والرحمة والحنان والرأفة والجود والإحسان والنقم التي في طيها نِعَم، فله التأديب، فهو الطبيب الجميل. (ف ح ٢ / ٥٤٢)

ألقاب الحب:

اعلم - جعلني الله وإياك من المحبوبين عنده - أن لمقام المحبة أربعة ألقاب، وهي: الهوى وهو عندنا عبارة عن سقوط الحب في القلب في أول نشأة في قلب المحب لا غير، من هوى النجم إذا سقط؛ فإذا لم يشاركه أمر وخلص المحب من إرادته، فهو مع إرادة محبوبه وصفا الهوى سمي حباً؛ فإذا ثبت سُمِّي وداً؛ فإذا عانق القلب والأحشاء والخواطر ولم يبق فيه شيء إلا تعلق القلب به سمي عشقاً؛ من العَشَق، وهي اللبلابة المشوكة التي تلتف على شجرة العنبة وأمثالها، فهو يلتف بقلب المحب حتى يعميه عن النظر إلى غير محبوبه؛ ولكل لقب حال فيه ما هو عين الآخر، نفصله لك.

(ف ح ٢ / ٣٢٣ - ذخائر الأعلاق - ف ح ٤ / ٢٥٩ - ح ٢ / ٣٢٣)

الهوى:

بلغ الهـوى من قلبي المجهودا والحب أخلقني وكنت جديـدا
يا عاذلي لو ذقت من ألم الهـوى لوجدته صعباً عليـك شديداً

الهوى ذو سلطان لأنه من العالم العلوي، ولهذا سمي سقوطه، فقيل فيه: هوى أي سقط، وهو استفراغ الإرادة في المحبوب والتعلق به في أول ما يحصل في القلب، وليس لله منه اسم، ولحصوله سبب نظرة أو خبر أو إحسان، وأسبابه كثيرة، والهوى على نوعين وهما في الحب. (مسامرات / ح ٢ - ف ح ٢ / ٣٢٣)

النوع الواحد: سقوطه في القلب وهو ظهوره من الغيب إلى الشهادة في القلب، يقال هوى النجم إذا سقط، يقول تعالى: ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ فهو من أسماء الحب في ذلك الحال، والفعل منه هَوِيَ يهوي بكسر عين الفعل في الماضي وفتحها في المستقبل، والاسم منه هوى وهو الهوى، وهذا الاسم هو الفعل الماضي من الهُوي الذي هو السقوط، يقال هَوَى بفتح عين الفعل في الماضي يهوي بكسرها في المستقبل والاسم منه هَوَيّ، وسبب حصول المعنى الذي هو الهوى في القلب أحد ثلاثة أشياء أو بعضها أو كلها، إما نظرة أو سماع أو إحسان، وأعظمها النظر وهو أثبتها فإنه لا يتغير باللقاء، والسماع ليس كذلك فإنه يتغير باللقاء، فإنه يبعد أن يطابق ما صوره الخيال بالسماع صورة المذكور، وأما حب الإحسان فمعلول تزيله الغفلة مع دوام الإحسان، لكون عين المحسن غير مشهودة، قال بعضهم في الحب المولد عن الخبر:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقـة والأذن تعشق قبل العين أحياناً

ولنا في الحب المولد عن النظر والخبر في الغزليات:

حبي لغيرك موقوف على النظر إلا هواك فمبنـاه على الخبر
الله يعلـم أني ما علمـت لها على الـذي قيل لي أختاً من البشر
فبغيتي من عزلتي أن أفوز بها وأن تجود على عينيَّ بالنـظر

ولنا أيضاً في هذا المعنى:

حقيقتي هِمْتُ بها ... وما رآها بصري
ولو رآها لغدا ... قتيل ذاك الحور
فعندما أبصرتها ... صرت بحكم النظر
فبت مسحوراً بها ... أهيم حتى السحر
ياحذري من حذري ... لو كان يغني حذري
والله ما هيمني ... جمال ذاك الخفر
وإنما هيمني ... حكم القضا والقدر
ياحسنها من ظبية ... ترعى بذات الخُمُر
إذا رنت أو عطفت ... تسبي عقول البشر
تفتر عن ظَلْم وعن ... حب غمام نشر
كأنما أنفاسها ... أعراف مسك عطر
كأنها شمس ضحى ... في النور أو كالقمر
إن سفرت أبرزها ... نور صباح مُسْفِر
أو سدلت غيّبها ... ظلام ذاك الشَّعر
ياقمراً تحت دجى ... خذي فؤادي وذري
عيني لكي أبصركم ... إذ كان حظي نظري
فإن مبنى كلفي ... بحبها من خَبَر

ولنا أيضاً في هذا المعنى:

الأذن عاشقة والعين عاشقة ... شتان ما بين عشق العين والخَبَر
فالأذن تعشق ما وهمي يصوّره ... والعين تعشق محسوساً من الصور
فصاحب العين إن جاء الحبيب له ... يوماً ليبصره يلتذ بالنظر
وصاحب الأذن إن جاء الحبيب له ... في صورة الحس ما ينفك عن غِيَر
إلا هوى زينب فإنه عجبٌ ... قد استوى فيه حظ السمع والبصر

(ف ح ٢ / ٣٢٣)

وأما الهـوى الثاني فلا يكون إلا مع وجود الشريعة، وهو قوله لداود عليه السلام ﴿ احكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ يعني محابك، بل اتبع محابي وهو الحكم بما رسمتــه لك، ثم قال: ﴿ فيضلك عن سبيل الله ﴾ أي يحيرك ويتلفــك ويعمي عليك السبيل، الذي شرعته لك وطلبت منك المشي عليه والحكم به، فالهوى هنا محاب الإنسان، فأمره الحق بترك محابه إذا وافق غير الطريقة المشروعة، فإن قلت: فقد نهاه عما لا يصح أن ينتهي عنه، فإن الحب الذي هو الهوى سلطانه قوي، ولا وجود لعين العقل معه، قلنا: ما كلفه إزالة الهوى فإنه لا يزول، إلا أن الهوى كما قلنا يختلف متعلقه ويكون في موجودين كثيرين، والهوى الذي هو الحب حقيقته حب الاتصال في موجود ما أو كثيرين، فطلب منه تعالى أن يعلقه بالحق الذي شرع له وهو سبيل الله، كما يعلقه بسبل كثيرة ما هي سبيل الله، فهذا معنى قوله: ﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ فما كلفه ما لا يطيق، فإن تكليف ما لا يطاق محال على العالم الحكيم.

وحق الهوى إن الهوى سبب الهوى ولولا الهوى في القلب ما عُبد[1] الهوى

ومـا ثَمَّ غيره، فالأمـر أمره، العقل محتاج إليه، وخديم بين يديه، له التصريف، والاستقامة والتحريف، عَمَّ حكمه، لما عظم علمه، فللهوى السراح والسماح، وله لكل باب مفتاح، سلطانه في الدنيا والآخرة، وليست الشهوة سوى الهوى، ومن هوى فقد هوى، لهذا قيل في العاشق: ما عليه من سبيل، وإن ضل عن السبيل، فالنفس محل الهوى بالحشا لأنها كالمحشـوة في البدن، أي حشو فيه، والشهوة آلة النفس تعلو بعلو المشتهى وتسفل باستفـال المشتهى، والشهـوة إرادة الالتـذاذ بما ينبغي أن يلتـذ به، والحب أعظم شهوة وأكملها، لذا قلنا: «لولا الهوى ما هوى من هوى» به كان الابتلا، فإما إلى نزول وإما إلى اعتلا، وإما إلى نجاة وإما إلى شقا.

(ف ح ٢/ ٣٣٦ ـ ح ٤ / ٣٨٢ ـ ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٢ / ١٨٩ ـ ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٢ / ٣٨٥)

---

(١) قال تعالى: أفرأيت من اتخذ إلهه هواه.

الحب :

الحب هو خلوص الهوى إلى القلب وصفاؤه عن كدورات العوارض، فلا غرض لمحب ولا إرادة مع محبوبه، فإذا خلص الهوى في تعلقه بسبيل الله دون سائر السبل، وتخلص له وصفا من كدورات الشركاء في السبل، سمي حباً لصفائه وخلوصه، ومنه سمي الحُبُّ الذي يجعل فيه الماء حباً، لكون الماء يصفو فيه ويروق وينزل كدره إلى قعره، وكذلك الحب في المخلوقين، إذا تعلق بجناب الحق وتخلص له من علاقته بالأنداد، الذين جعلها المشركون شركاء لله في الألوهة، سمي ذلك حباً، بل قال فيه تعالى: ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ وسبب ذلك أنه إذا كشف الغطاء وتبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا، ﴿ وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا ﴾ فزال حبهم إياهم في ذلك الموطن، وبقي المؤمنون على حبهم لله، فكانوا أشد حباً لله بما زادوا على أولئك، في وقت رجوعهم عن حبهم آلهتهم حين لم تغن عنهم من الله شيئاً، فلا يبقى مع المشركين يوم القيامة إلا حبهم لله خاصة، فإنهم في الدنيا أحبوه وأحبوا شركاءهم على أنهم آلهة، فإذا كان في القيامة كما ذكرنا، لم يبق عندهم سوى حبهم لله، فكانوا في الآخرة أشد حباً لله منهم له في الدنيا، لكون حبهم كان منقسماً فاجتمع عليه في الآخرة، لما لم يعاينوا محبوبهم وهي الألوهة إلا فيه خاصة، فلذلك كان سبق الرحمة، وقوة الطرفين وضعف الواسطة، بما فيها من الشركة.

(ف ح ٢ / ٣٢٣، ٣٣٦)

ويرى بعضهم أن الحب ما ثبت، وكل حب يزول فليس بحب، أو يتغير فليس بحب، لأن سلطان الحب أعظم من أن يزيله شيء، حتى إن الغفلة ـ التي هي أعظم سلطان تحكم على الإنسان ـ لا يتمكن لها أن تزيل الحب من المحب، يتمكن عند هذا القائل أن يغفل الإنسان عن نفسه بمحبوبه، ولا يتمكن للمحب أن يغفل بأحد عن محبوبه، فذلك هو المحب وذاك هو الحب.

فَدَاء المحب بما لا يزول   وإن الشفاء له مستحيل
فلا تركننَّ إلى غير ذا   ولا تصغينَّ إلى ما يقول

فبحب الله أحببنا الله، وحب الحق لا يتغير، فحب الكون لا يتغير، فقيل له: فحب

الكـونِ الكـونَ هل يتغير؟ قال: لا، لأن الكون محبوب لذاته، والمحبة الذاتية لا يمكن زوالها، فقيل له: فقد رأينا من تستحيل[1] مودته، فقال: تلك إرادة ما هي محبة، إذ لو كانت محبة ثبتت، ألا تراها تسمى وداً لثبوتها وثبوت حكمها، وذلك أنه ما في المحب لغير محبوبه فضلةٍ من ذاته، يتمكن للمزيل أن يدخل عليه منها، هذا سبب ثبوتها، فإنه يشاهد عين محبوبه في كل شيء يشهده فلا يفقده، فلو صح للمحب أن يشهد غير محبوبه في عين ما، لدخل عليه من ذلك ما يزيل حبه، وهذا ليس بواقع في الحب، فالتبس على من هذه حالته حكم الإرادة بحكم الحب، وما كل مريد محب، وكل محب مريد، وما كل مراد محبوب، وكل محبوب مراد. (ف ح ٢ / ٨٤)

يقول المحب:

ما للهـوى أخـذ الهـوى بدمي ... تحكـم الحـب في روحي وفي بدني
ما حل للمحب إن الحب أعـدمني ... صبري وحـرَّم أجفاني على الوسن

(مسامرات / ح ٢)

ولذلك فإن تعجبي في حق المحب من الشكوى، أعظم من تعجبي مما حل به من البلوى، فإن المحب مشغول بلذة حبه، فأين الألم؟ ومن لم تكن هذه حاله في الحب فليس له فيه قدم، الألم مع الإحساس، والمحب مخدر الحواس، الضراعة مع العقل، والمحب معتوه مقسور، أين أنت من المثل السائر في النقل؟: ولا خير في حب دبر بالعقل؛ هذه ليلى وقفت على قيس فقال لها: إليك عني فإن حبك شغلني عنك؛ وكان يمشي عرياناً لا يواريه شيء، فلا عقل ولا إحساس، وكنا نقول بالموت لولا الأنفاس، كيف يشكو من لا يعقل؟ كيف يألم من غمرته اللذات؟ أما علمت أن شهوة الحب أقوى من سلطانه، وأن شبهتها أقوى في الصورة من برهانه. (تاج الرسائل)

والحبيب قريب من الحب ـ لأنه الذي يتعلق به ـ لا من المحب، فالحب لا يجول المسافات البعيدة النائية، ولا التنويهات الشريفة التي لا ترتفع أحكامها عن قرب الحب من الحبيب، والمحب قد يكون له القرب من الحبيب وقد لا يكون، فالحب قريب من المحب

---

(١) من التحول.

لقيامه به، وقريب من المحبوب لتعلقه به، فإنه لا تعلق له بغير محبوبه، فقد انفرد إليه، والمحب تبع للحب لقيامه به، والحبيب ليس بتابع لحب المحب وإن تعلق به، بل هو مع ما يقوم به، فإن قام به حب المحب أحبه، فعاد المحب حبيباً، فصح الطلب من الطرفين، ولا عائق إلا إن كان من خارج أو من مُحَال، أي لا تعطي الحقائق الاتصال، فمن عرف الحب عرف كيف يحب، كان شيخنا أبو العباس العريبي رحمه الله يسأل الله أن يرزقه شهوة الحب لا الحب، وذلك أن شهوة الحب قرب الحبيب من المحب، فينبغي أن تعرف يا أخي قدر من أحبك لله أو لنفسه، إذا كان الحق - مع غناه عن العالم - إذا أحبه عبده سارع إليه بالوصلة، وقرَّبه وأدنى مجلسه، وجعله من خواص جلسائه، فأنت أولى بهذه الصفة، إذا أحبك شخص فقد أعطاك السيادة عليه، وجعل نفسه محلاً لتحكمك فيه، فينبغي لك إن كنت عاقلاً أن تعرف قدر الحب وقدر من أحبك، ولتسارع إلى وصلته تخلقاً بأخلاق الله مع محبته، فإنه قد بدأك بالمحبة، فتلك يد له عليك لا تكافئها أبداً، وذلك لأن كل ما يفعله من الحب بعد ابتدائه معه، فإنما هو نتيجة عن ذلك الحب الذي أحبك ابتداء.

(ف ح ٤/ ٤٢٦ - ح ٢ / ٣٢٥، ٣٤٠)

واعلم أن مشاهدة المحبوب، هي البغية والمطلوب، وهي أعز موجود، وأصعب مفقود، وعليك آداب في المشاهدة لها علامات، منها الثبات، وعدم الالتفات، والخشوع والإقناع، والخضوع والارتياع، ما أطيب رائحة المحبوب، ما أفرح من جاد عليه دهره بالمطلوب. (تاج الرسائل)

العشق :

هو إفراط المحبة أو المحبة المفرطة، وهو معنى من المحبوب يقع به العشق، وهو الذي يوقد نار الشوق والوجد الذي في القلب، وهو لا يكون إلا لتجلي الاسم الجميل، وكني عنه في القرآن بشدة الحب في قوله : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ وهو قوله ﴿ قد شغفها حباً ﴾ أي حُبُّها يوسف على قلبها كالشغاف، وهي الجلدة الرقيقة التي تحتوي على القلب، فهي ظرف له محيطة، وقد وصف الحق نفسه في الخبر بشدة الحب، غير أنه لا يطلق على الحق اسم العشق والعاشق، فالعشق التفاف الحب على المحب حتى خالط جميع أجزائه، واشتمل عليه اشتمال الصمّاء، مشتق من العشقة وهي اللبلابة المشوكة، ولا بد من سبب

ورابطة بين العاشق والمعشوق، حتى التف به على الاختصاص دون غيره، فإنه يراه في عينه أجمل ممن هو أجمل منه في علمه، ولذا يكون العاشق تحت سلطان المعشوق وإن كان عَبْدَه، فينتقل الحكم على السيد للعبد إذا كان معشوقاً له، فيكون تحت أمره، فيتخيل أنه يراه أعظم عنده من نفسه، وأن سعادته في عبوديته وذلته بين يديه، مع أنه يحب الرياسة بالطبع، فإن العشق قد يكون روحانياً، فرده إلى ما تقتضيه حقيقة الروح، وأن الروح لا رياسة عنده في نفسه، ولا يقبل الوصف بها، فإن العشق منه روحاني وطبيعي، لوجوده من الحيوانات والنبـات، فإذا كان العشق من الإنسان لجارية أو غلام يفنى فيه، ولا يستفرغ مثل هذا الاستفراغ في حب من ليس بإنسان، من ذهب وفضة وعقار وغير ذلك، فالإنسان إذا ما عشق من العـالم أي شيء كان، من فرس أو دار أو دينـار أو درهم، فما قابله إلا بالجزء المناسب، ففني منه ذلك الجزء المناسب لعشقه فيه، وبقي سائره صاحياً لا حكم له فيه، إلا إذا عشق شخصاً مثله من جارية أو غلام، فإنه يقابله بكله، كذلك العبد إذا رأى الحق أو تخيله فني فيه عند مشاهدته، لأنه على صورته فيقابله بذاته، فما بقي فيه جزء يصحو حتى يعقل به ما فني منه فيه، فيستفرغ المحب في محبة الحق وحده دون ما ذكرناه، فإن الإنسان إذا أحب الله تعالى فمن حيث روحه وطبعه، ولو أن الحب الطبيعي لا يليق أن يتعلق من المحب بالجناب الإلهي، ولكن هو من صورة الجمع بين الضدين، ومن حيث التجلي الإلهي المقيد في الصور الطبيعية، فلا يستغرق الحب المحب كله إلا إذا كان محبوبه الحق تعالى، أو أحداً من جنسه من جارية أو غلام، أما ما عدا ما ذكرته فإنه لا يستغرق حبه إياه، وإنما قلنا ذلك لأن الإنسان لا يقابل بذاته كلها إلا من هو على صورته إذا أحبه، فما فيه جزء إلا وفيه ما يماثله، فلا يبقى فيه فضلة يصحو بها جملة واحدة، فيهيم ظاهره في ظاهره وباطنه في باطنه، ألا ترى الحق قد تسمى بالظاهر والباطن، فتستغرق الإنسانَ المحبةُ في الحق وفي أشكاله، وليس ذلك فيما سوى الجنس من العالم، فإنه إذا أحب صورة من العالم إنما يستقبله بالجزء المناسب، ويبقى ما بقي من ذاته صاحية في شغلها، وأما استغراق حبه إذا أحب الله، فلكونه على صورته كما ورد في الخبر، فيستقبل الحضرة الإلهية بذاته كلها، ولهذا تظهر فيه جميع الأسماء الإلهية، ويتخلق بها من ليست عنده صفة الحب، ويكونها (أي من باب كنت سمعه) من عنده صفة الحب، فلهذا يستغرق الإنسان الحب، وإذا تعلق بالله وكان الله

محبوبه، فيفنى في حبه في الحق أشد من فنائه في أشكاله، فإنه في حب أشكاله فاقد في غيبته ظاهر المحبوب، وإذا كان الحق هو المحبوب فهو دائم المشاهدة، ومشاهدة المحبوب كالغذاء للجسم، به ينمى ويزيد، فكلما زاد مشاهدة زاد حباً.

(ف ح ٢ / ٣٢٣ ـ ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٢ / ٦٠٦ ـ ح ٣ / ٤٠٩ ـ ح ٢ / ٦٠٦، ٣٢٥)

ولما كان الشوق يسكن باللقاء والاشتياق يهيج باللقاء، وهو الذي يجده العشاق عند الاجتماع بالمحبوب، لا يشبع من مشاهدته ولا يأخذ نهمته منه، لأنه كلما نظر إليه زاد وجداً به وشوقاً مع حضوره معه، كما قيل:

ومـن عجب أني أحن إليـهـم وأسـأل شوقـاً عنهـم وهم معي
وتـبكيهم عيني وهم في سوادهـا وتشتاقهم نفسي وهم بين أضلعي

فالعـاشق إن راح المعشـوق لم يرح خيالـه، والمحب إذا ذهب المحبوب لم يذهب مثاله، فالصبابة به أبداً معلقة، وزفرة وَجْدِه في ضلوعه محرقة، يقول المحب: ما للوجد تجرعني كاسه، ما له تحرقني أنفاسه؟! ويل للشجي من الخلي.

(ف ح ٢ / ٣٢٥، ٣٢٦ ـ تاج الرسائل)

فإذا ظهر الحب في حبة القلب، وعَمَّ الإنسان بجملته، وأعماه عن كل شيء سوى محبوبه، وسرت تلك الحقيقة في جميع أجزاء بدنه وقواه وروحه، وجرت فيه مجرى الدم في عروقـه ولحمـه، وغمـرت جميع مفـاصله فاتصلت بوجوده، وعانقت جميع أجزائه جسماً وروحاً، ولم يبق فيه متسع لغيره، وصار نطقه به، وسماعه منه، ونظره في كل شيء إليه، ورآه في كل صورة، وما يرى شيئاً إلا يقول: هو هذا؛ حينئذ سمي ذلك الحب عشقاً، كما حكي عن زليخـا أنها افتصـدت، فوقع الدم في الأرض فانكتب به يوسف، يوسف، في مواضـع كثيرة حيث سقط الدم، لجريان ذكر اسمه مجرى الدم في عروقها كلها؛ وهكذا حكي عن الحلاج لما قطعت أطرافه، انكتب بدمه في الأرض الله الله، حيث وقع، ولذلك قال رحمه الله:

ما قُدَّ لي عضـو ولا مفصـل إلا وفـيـه لكـمُ ذكـر

وهذا يعضده مقام الخلة حيث يقول القائل:

وتخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمي الخليل خليلا

فهؤلاء هم العشاق الذين استهلكوا في الحب هذا الاستهلاك. (ف ح ٢ / ٣٣٧ - ٣٦٢)

قال الحبيب الصادق ﷺ ولم يكن في مقام الاكتراث: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث» هذه صفة المحبوب لا المحب، ونعت المعشوق لا العاشق، المعشوق في الاختيار، والعاشق في الاضطرار، المعشوق في التمحيص والاختبار، والعاشق ساكن تحت مجاري الأقدار.
(تاج الرسائل)

سلام على يوم الثلاثاء إنه ... له همة خصت بعشق محمد

(التنزيلات الموصلية)

الــود:

وله اسم إلهي وهو الودود، والودُّ من نعوته تعالى، وهو الثابت فيه، وبه سمي الودُّ وداً لثبوته في الأرض، فالود ثبات الحب أو العشق أو الهوى، أية حالة كانت من أحوال هذه الصفة، فإذا ثبت صاحبها الموصوف بها عليها ولم يغيره شيء عنها، ولا أزاله عن حكمها، وثبت سلطانها في المنشط والمكروه، وما يسوء ويسر، وفي حال الهجر والطرد، من الموجود الذي يحب أن يظهر فيه محبوبه، ولم يبرح تحت سلطانه لكونه مظهر محبوبه، سمي لذلك وداً، وهو قوله تعالى: ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ أي ثباتاً في المحبة عند الله وفي قلوب عباده، ولذلك تسمى الحق بالودود، لثبوت حبه مَنْ أحب مِنْ عباده.
(ف ح ٢ / ٣٢٣، ٣٣٧)

ثم إن من رزقه الله تعالى أن يحبه كحبه إياه، أعطاه الشهود، ونَعَّمَه بشهوده في صور الأشياء، فالمحبون له تعالى من العالم بمنزلة إنسان العين من العين، فالإنسان وإن كان ذا أعضاء كثيرة، فما يشهد ويرى منه إلا العينان خاصة، فالعين بمنزلة المحبين من العالم، فأعطى الشهود لمحبيه لما عَلِمَ حبهم فيه، وهو عنده تعالى علم ذوق، ففعل مع محبيه فعله مع نفسه، وليس إلا الشهود في حال الوجود، الذي هو محبوب للمحبوب، فما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فما خلقهم من بين الخلق إلا لمحبته، فإنه ما يعبده ويتذلل إليه إلا

محب، وما عدا الإنسان فهو مسبح بحمده، لأنه ما شهده فيحبه، فما تجلى لأحد من خلقه في اسمه الجميل إلا للإنسان وفي الإنسان في علمي. ولذا ما فني وهام في حبه بكليته إلا في ربه، أو فيمن كان مجلى ربه، فأعين العالم المحبون منه، كان المحبوب ما كان، فإن جميع المخلوقين منصات تجلي الحق، فودادهم ثابت، فَهُمُ الأوداء وهو الودود، والأمر مستور بين الحق والخلق بالخلق والحق، ولهذا أتى مع الاسم الودود الاسم الغفور لأجل الستر، فقيل قيس أحب ليلى، فليلى عين المجلى، وكذلك بشر أحب هنداً، وكثير أحب عزة، وابن الدريج أحب لبنى، وتوبة أحب الأخيلية، وجميل أحب بثينة، هؤلاء كلهم منصاتٌ، تجلى الحق لهم عليها، وإن جهلوا من أحبوه بالأسماء، فإن الإنسان قد يرى شخصاً فيحبه، ولا يعرف من هو، ولا يعرف اسمه، ولا إلى من ينتسب، ولا منزله، ويعطيه الحب بذاته أن يبحث عن اسمه ومنزله حتى يلازمه، ويعرفه في حال غيبته باسمه ونسبه، فيسأل عنه إذا فقد مشاهدته، وهكذا حبنا الله تعالى نحبه في مجاليه، وفي هذا الاسم الخاص، الذي هو ليلى ولبنى أو من كان، ولا نعرف أنه عين الحق، فهنا نحب الاسم ولا نعرف أنه عين الحق، وفي المخلوق تعرف العين وتحب، وقد لا يعرف الاسم، ويأبى الحب إلا التعريف به، أي بالمحبوب، فمنا من يعرفه في الدنيا، ومنا من لا يعرفه حتى يموت محباً في أمر ما، فينقدح له - عند كشف الغطاء - أنه ما أحب إلا الله، وحجبه اسم المخلوق، كما عَبَدَ المخلوق هنا من عَبَدَه، وما عَبَدَ إلا الله من حيث لا يدري، قال تعالى: ﴿ وقضى ربك ﴾ أي حكم ﴿ أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ فما عبدوا إلا الألوهة وإن أخطأوا في النسبة، فقوله تعالى ﴿ الغفور الودود ﴾ فهو بالستر المسدل لم يعرف، وليس إلا الأسماء.

فهكذا الأمر إن عقلنا	فإن تكن فيه كنت أنتا
منصة الحق أنت حقاً	فأنت ما أنت حين أنتا
فقد ملكت الذي أردتا	وقد علمت الذي عبدتا
فليس ليلى وليس لبنى	سوى الذي أنت قد علمتا
إن كنت في حبه بصيرا	تشهده منك أنت أنتا
فما أحب المحب غيراً	سواه فالكل أنت أنتا

فما أعجب القرآن في مناسبة الأسماء بالأحوال، فهو الغفور الودود ذو العرش المجيد،

فعـال لما يريد فهو المحب، وهو فعال لما يريد فهو المحبوب، لأن المحبوب فعال لما يريد بمحبوبه، والمحب سامع مطيع مهيأ لما يريد محبوبه، لأنه المحب الودود، أي الثابت على لوازم المحبة وشروطها، والعين واحدة، فإن الودود هنا هو الفعال لما يريد.

(ف ح ٤ / ٢٥٩، ٢٦٠)

حكى بعض الصالحين أن قيساً المجنون كان من المحبين لله، وجعل حجابه ليلى، وكان من الموهلين، ويحتمل صدق هذا القول من حكايته التي قال فيها لليلى: «إليك عني فإن حبـك شغلني عنـك»، ومـا قربها ولا أدناها، ومن شأن المحب أن يطلب الاتصال بالمحبوب، وهذا الفعل نقيض المحبة، ومن شأن المحب أن يغشى عليه عند فجأة ورود المحبوب عليه ويدهش، وهذا يقول لها: «إليك عني» وما دهش ولا فني، فتحقق عندي بهذا الـفـعـل صدق ما قالـه العـارف في حق قيس المـجـنـون، ولـيس ببـعـيد، فلله ضنائن من عباده. (ف ح ٢ / ٣٥٢ ـ مسامرات ح ٢)

لوازم الحب:

الحب من حيث ما هو حب حقيقـة واحدة، غير أن المحبين مختلفون، فمنهم من تعشق بكـون، ومنهم من تعشق بالله، والشروط واللوازم من الأسباب واحدة، ولنا في أحكام المحبة ولوازمها:

ياحبـذا سَرْحَةُ الـوادي وبـانتـه — وحبـذا زَهَـرٌ بالـروض بسـام
أهـدى النسيمُ لنـا من عَرْفه خبراً — إن الـنـسـيـم إذا ما هبَّ نمام
بكـل فنٍّ من الألحـان ناطـقـة — أطـيـاره طربـاً والسرب نوَّام
وفي ترجُّعهـا بالصـوت لو علمت — للمستهـام بعين الشمس إعـلام
إن الهـوى عجمـة لا يستـطاع له — حدٌّ ولـكن له في النفس أحكـام
منهـا النحـول ومنهـا عبرة وجوى — ورقـة وصـبـابـات وتهـيـام
ومـا له آخـر تحيـا النفوس به — لأن أولـه موت وإعـدام
فإن تمادى الهـوى بالحب أضعفـه — كما يُضَـعِّـفُـهُ قرب وإِلمـام

ولما كان التجلي الإلهي في الصور يصحبه التحول، لذلك فإن حال المحب البث

والوجد والحزن والكرب والسكر والجوى والشفقة على المحبوب، فإن سطوات التجلي تؤثر فيه أحـوالاً مختلفة لاختلافها، طلباً للوصل الدائم، فللحب أحوال كثيرة، مثل الشوق والغـرام والهيام والكلف والبكاء والحزن والذبول والانكسار، وأمثال ذلك مما يتصف به المحبون، فإن المحبة المفرطة تذهب بالعقول، أو تورث النحول والفكر الدائم والهَمَّ اللازم، والقلق والأرق والشـوق والاشتياق والسهـاد، وتغيير الحال وكسوف البال، والوله والبله وسوء الظن بالمحبوب، أعني الموجود الذي تحب ظهور محبوبك فيه، الذي تزعم العامة فيه أنه المحبوب لها، فجميع هذه النعوت وصف للحب، كان المحبوب ما كان، وإنما المحبوب يختلف، وعلى الحقيقة الحب متعلق بالله، الذي هو المحبوب وإن كان غير مشعور به في مواطن عند قوم، ومشعوراً به عند قوم وهم العارفون، فما أحبوا إلا الله، مع كونهم يحبون أرواحهم وأهليهم وأصحابهم.

وإليك تفصيل بعض هذه النعوت التي هي كاللوازم للحب، فإن المعاني إذا قامت بشيء أوجبت له حكمها. (ذخائر الأعلاق - ف ح ٢ / ٣٣٧، ٣٥٢ - ذخائر الأعلاق)

الغرام:

الغـرام هو الاستهلاك في المحبوب بملازمة الكمد، لملازمة شهود المحبوب، فإن الغـريم هو الـذي لزمـه الـدين، وبه سمي غريماً، ومقلوبه أيضاً الرغام، وهو اللصوق بالتراب، فإن الرغام التراب، يقال: رغم أنفه؛ إذ كان الأنف محل العزة، قوبل بالرغام في الدعاء فألصقوه بالتراب، فيكون الغرام حكمه في المغرم من المقلوب، فهو موصوف بالذلة، لأن التراب أذل الأذلاء، والغرام اصطلام، نار المحبة لا تخمد، ودمعها لا ينفد، وقلقه لا يَبْعُد، وحرقه لا يُبْعَد، في التراب ينام، وإن كان صاحب اصطلام، فإن الغرام رغام، الذلة بالمحب صاحب الغرام منوطة، والمسكنة به مشروطة، ونفسه أبداً مقبوضة غير مبسوطة، وعقده براحات الأماني أنشوطة، يسرع إليها الانحلال، وهي وإن كانت مقيمة في زوال، فهي كالظل إذا فاء، وكالقاصر المشيئة إذا شاء. (ف ح ٢ / ٣٣٩ - ح ٤ / ٣٧٨)

ولما لازم الحب قلوب المحبين، والشوق قلوب المشتاقين، والأرق نفوس الأرقين، وكل صفة للحب موصوفها، منها سُمي صاحب هذه الملازمات كلها مغرماً، وسميت صفته

غراماً، فهو اسم يعم جميع ما يلزم المحبين من صفات الحب، وليس للحب صفة أعظم إحاطة من الغرام، وله في الحب سلطان عظيم[1]، فيه النحول والهيمان، والدموع والغليل والأنين والسقام وجميع الآلام، ويجتمع مع ذلك الفراق، وهو الغيبة عن مشاهدة المحبوب.

(ف ح ٢ / ٣٣٩ - ذخائر الأعلاق)

الكمد:

الكمد يورث الذوبان، وهو أشد حزن القلب، لا يجري معه دمع، إلا أنَّ صاحبه يكون كثير التأوه والتنهد، وهو حزن يجده في نفسه لا على فائت ولا تقصير، وهذا هو الحزن المجهول الذي هو من نعوت المحبين، ليس له سبب إلا الحب خاصة، وليس له دواء إلا وصال المحبوب، فيفنيه شغله به عن الإحساس بالكمد، وإن لم تقع الوصلة بالمحبوب اتصال ذوات فيكون المحبوب ممن يأمره، فيشغله القيام بأوامره وفرحه بذلك عن الكمد، فأكثر ما يكون الكمد إذا لم يقع بينه وبين المحبوب ما يشغله عن نفسه، وليس للحب صفة تزول مع الاشتغال غير الكمد.

لما تحكَّم عين الشمس في بصري ... تمكن الحبُّ بالسلطان في خلدي
وأنزل الجند في نفسي منازلهم ... كالوجد والشوق والتبريح والكمد
فعندما أخذوا مني منازلهم ... ناديت من لهب الأشواق في كبدي
الحب أرقني والحب أقلقني ... والحب يقتلني ظلماً وليس يدي
والحب حمّلني ما لست أحمله ... حتى بقيت له روحاً بلا جسد

(ذخائر الأعلاق - ف ح ٢ / ٣٤١ - مسامرات / ح ٢)

الذل:

الذلة من أثر الحب، ولذا قلنا: إنها بالمحب صاحب الغرام منوطة، والمسكنة به مشروطة، والعاشق وإن كان عالي الهمة، فإن سلطان الحب عليه ينزله من الذل أن يوطأ بالخف، يقول المحب:

---

(١) يقول ابن الفارض:

إن الغرام هو الحياة فمت به ... صباً فحقك أن تموت وتعذرا

يعيرني قومي بذلي في الهوى وكم من ذليل في الهوى يكسب العزّا
إذا كنت تهوى فاجعل الذل جُنَّةً فإني رأيت الكبر من ذي الهوى عجزا

(ف ح ٢ / ٣٥٣ ـ ح ٤ / ٣٧٨ ـ ذخائر الأعلاق ـ مسامرات / ح ٢)

الاصطلام:

المحبوب معتوب، والمحب منهوب، والقلب مصطلم، والنار في الجوانح تضطرم، لذا قلنا: الاصطلام نار لها اضطرام، إلا أنه تطفئها بتواليها الأنواء فتلحقها بالرغام، فلذلك حكمنا بالاصطلام، على المنعوت بين المحبين بالغرام.

(تاج الرسائل ـ ف ح ٤ / ٣٧٨)

فالاصطلام نار ترد على قلوب المحبين، تحرق كل شيء تجده ما سوى المحب، وقد تذهب في أوقات بصورة المحبوب في نفس المحب، وهو الوقت الذي يطلب المحب أن يتخيل محبوبه فلا يقدر على تخيله، ولا يقيم صورته لقوة سلطان حرقة لهيب نار المحبة، فيقال فيه في ذلك الحال مصطلم، وهو الذي أراد القائل بقوله (القائل مهيار الديلمي):

أودع فؤادي حرقاً أو دَعِ ذاتك توذي أنت في أضلعي
وارمِ سهام الحب أو كُفَّهاَ أنت بما ترمي مصابٌ معي
موقعها القلب وأنت الذي تَسْكُنه بذلك الموضع

(ف ح ٢ / ٣٦١، ٦٦٠ ـ ذخائر الأعلاق ـ المسامرات / ح ١)

ومن هذه الحال قال قيس بن الملوح مجنون بني عامر صاحب ليلى، وكان قد جاءته ليلى وهو مصطلم، يأخذ الجليد ويلقيه على صدره فيذيبه من ساعته حرارة الفؤاد، وهو يصيح: ليلى ليلى؛ طلباً لها لفقد صورتها في خياله، فنادته: يا قيس أنا مطلوبك أنا ليلى؛ فلم يكن لها في نفسه صورة متخيلة يعرفها بها، إلا أنه لما سمع منها اسمها قال لها: «إليك عني فإن حبك شغلني عنك» فهذا حال الاصطلام الملازم. (مسامرات / ح ٢)

وثم اصطلام يزول في الوقت، وهو ما يرد على القلب من مشاهدة المحبوب في صورة الخيال، فما دام هذا الخيال دام اصطلامه، وجلال الجمال يمحو هذه الصورة من النفس،

غيرة من التقييد بصورة، وله الإطلاق، فيزول اصطلام تلك الصورة المقيدة بزوالها، ويبقى الاصطلام اللازم، الذي هو أثر الجمال في النفس، فإن الاصطلام نعت لازم للحضرة الإلهية مؤثر، ولكل اسم إلهي مشهود فيه جمال الحق، يحول بين العبد وبين تكييف الحق، ويذهب بكل صورة يضبطها أو يتخيلها، فيرى المحب يكذب الصورة المتخيلة في نفسه التي تقول له: أنا محبوبك؛ ويعرض عنها إجلالاً لمحبوبه أن يقيده، لمعرفته بأن محبوبه لا يتقيد، لهذا يحترق في نفسه، حيث يريد أو يتمنى أن يضبط ما لا ينضبط لينعم به.

(ف ح ٢ / ٦٦١)

ولنا في هذا المعنى:

شغـل المحب عن الحبيب بحبه ... هذا يُعَـلُّ وذاك ليس يُعـلَّلُ
لولا الخيـال له وبـرٌّ وصـالِـه ... أضحـى بنـيران الهـوى يتحللُ

(مسامرات / ح ٢)

اللوعة:

هي حرقة الهوى.

قال العباس بن الأحنف:

إني وجدت الهوى في الصدر إذ ركدا ... كالنار بل زاد جوف الصدر متقدا
النـار تُطفىء ببرد الماء إن ضُرمت ... ولـو ضربت الهـوى بالمـاء ما بردا

(ذخائر الأعلاق ـ المسامرات / ح ٢)

وقال آخر:

إذا وجـدت أوار الحب في كبـدي ... أقبلت نحـو سقـاء القـوم أبـتردُ
هذا يبرِّدُ بردُ المـاء ظاهـرَه ... فمـن لحرٍّ على الأحشـاء يتقـدُ

(المسامرات / ح ٢)

ويقول ابن الرومي:

يا موقـد النـار قد هيجت أشجاناً ... ولم أطـق للذي هيـجت كتـمانـا
أوقـدت ناراً على عليـاء واحـدة ... وأوقـد الشـوق في الأحشاء نيرانا

(المسامرات / ح ٢)

الجوى:

هو الانفساح في مقامات المحبة، لأنه على الحقيقة مأخوذ من الجو[1].

(ذخائر الأعلاق)

من قول مجنون بني عامر:

وما سرني أني خليٌّ من الهوى ... على أن لي ما بين شرقٍ إلى غرب
فهذا دعائي كل يوم وليلةٍ ... بطول الليالي أو أغيّب في الترب
فلا خفف الرحمن ما بي من الهوى ... ولا رفع الرحمن من حبكم جنبي
ولا خير في حب بغير بليّةٍ ... ولا خير فيمن لم يمت من جوى الحب

(مسامرات / ح ٢)

العلة والمرض:

المرض الميل، وهو ما أثّر الهوى من الشدة والكرب في القلب، وعندما يميل المحبوب إلى المحب بالرحمة والتلطف، يتعلق قلب المحب بالمحبوب، فيكون الحب، فيكون المرض المحبوب، وهو الميل الدائم، ومن أمرضه الهوى، فما له علالة إلا الحديث فيه وعنه، وبما يَحْدُث منه.

مرضي من مريضة الأجفان ... عللاني بذكرها عللاني
هفت الورق في الرياض وناحت ... شجو هذا الحمام مما شجاني

(ذخائر الأعلاق ـ مسامرات / ح ٢)

الزَمِن:

هو المحب الواقف لمانع يمنعه. (ذخائر الأعلاق)

---

(١) يقول عبد الرحيم البرعي رضي الله عنه:

ودعتها والدمع يقطر بيننا ... وكذاك كل مودع مشتاق
شُغِلت بتنشيف الدمع يمينُها ... وشمالها مشغولة بعناق
لو أن مالكَ عالمٌ بجوى الهوى ... ومحله من أكبد العشاق
ما عذب العشاق الا بالهوى ... ولو استغاثوا غاثهم بفراق

الوله :

هو الشغل بالحب عن المحبوب، فالواله حيران، قال مجنون بني عامر:

وشغلت عن فهم الحديث سوى ما كان منكمْ وحبكم شغلي
وأديم لحظ محدثي ليرى أن قد فهمت وعندكم عقلي

حتى إذا جاءته قال لها: «إليكِ عني فإن حبك شغلني عنك».

(ذخائر الأعلاق ـ مسامرات / ح ٢)

السكر :

السكران حيران، والسكر يأخذ عن العقل ما عنده، فيذهب بالعقل، وهو المرتبة الرابعة في الحب، لأنه أوله ذوق، ثم شُربٌ، ثم رِيٌّ، ثم سُكْرٌ وهو الذي يذهب بالعقل[1].

(ذخائر الأعلاق)

الحيرة :

سبق أن ذكرنا في الحب الطبيعي، أنه قد تلتبس صورة المحبوب في خيال المحب فتلصق بصورة نفسه المتخيلة له، إذا تقاربت الصورتان في خياله تقارباً مفرطاً، وتلتصق به لصوق الهواء بالناظر، يطلبه المحب في خياله فلا يتصوره، ويضيع ولا ينضبط له للقرب المفرط، فيأخذه لذلك خبال وحيرة، مثل ما يأخذ من فقد محبوبه. **(ف ح ٢ / ١١١)**

ولما كان الهوى يطالب بالشيء ونقيضه، حار صاحبه وارتبك، فإنه من بعض مطالبه موافقة المحبوب فيما يريده المحبوب، وطلب الاتصال بالمحبوب، فإن أراد الهجر، فقد ابتلى المحب صاحب الهوى بالنقيضين أن يكونا محبوبين له، فهذه هي الحيرة التي لزمت الهوى، واتصف بها كل من اتصف بالهوى. **(ذخائر الأعلاق)**

---

(١) يقول عبد الرحيم البرعي رضي الله عنه:

يا ساقي العشاق راح صبابة أدر الصبابة واسقني يا ساقي
ودع المطايا إذا مرت بذي النقا تبكي الرسوم ولو بقدر فُوَاق(*)
إن كنت لم تذق الغرام فإنني ثمل بكأس للغرام دهاق

(*) الفواق هو زمن قدر رجوع اللبن إلى ضرع الناقة عند حلبها.

كنت يوماً أطوف وقد عراني حال أعرفه، فخرجت عن البلاط من أجل الناس، وطفت على الرمل، فحضرتني أبيات، فأنشدتها أسمع نفسي بها ومن يليني ـ لو كان هناك أحد ـ وأنا أقول وأبكي:

ليت شعري هل دَرَوْا أي قلب ملكوا
وفؤادي لو درى أي شعب سلكوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى في الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا وضربة بين كتفي من كفّ ألين من الخز، فرددت وجهي، فرأيت جارية من بنات الروم لم أر أحسن وجهاً، ولا أعذب منطقاً، ولا أرق حاشيةً، ولا ألطف معنىً، ولا أظرف محاورةً منها، قد فاقت النساء ظرفاً، وأدباً وجمالاً ومعرفة[1]، فقالت: ياسيدي كيف قلت؟ فقلت:

ليت شعري هل دَرَوْا أي قلب ملكوا؟

فقالت: عجباً منك وأنت عارف زمانك تقول مثل هذا؟ أليس كل مملوك معروف؟ ؛ وهل يصح المُلْك إلا بعد المعرفة؟ وتمني الشعور يؤذن بعدم المعرفة، والطريق لسان صدق، فكيف يتجوز مثلك؟ قل: فماذا قلت بعده؟ قلت:

وفؤادي لو درى أي شعب سلكوا

فقالت: الشعب بين الشغاف والفؤاد، وهو المانع له من المعرفة به، فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول إلى معرفته، والطريق لسان صدق، فكيف يتجوز مثلك يا سيدي؟ قل: فماذا قلت بعده؟ قلت:

أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا؟

فقالت: أما هم فسلموا، ولكن عنك ينبغي أن تسأل نفسك، هل هلكت أم سلمت؟ يا سيدي قل: فماذا قلت بعده؟ قلت:

حار أرباب الهوى في الهوى وارتبكوا

---

(١) هذه صورة مثالية من تجسد الأسماء والمعاني.

فصاحت وقالت: ياعجباً، كيف يبقى للمشغوف فضلة يحار بها؟ والهوى شأنه التعميم، يخدر الحواس، ويذهب بالعقول، ويدهش الخواطر، ويذهب بصاحبه في الذاهبين، فأين الحيرة هنا وما بقي باق يحار؟ والطريق لسان صدق، والتجوز على مثلك لا يليق، قلت: يابنت الخالة ما اسمك؟ قالت: قرة العين، قلت لها: لي.

(ذخائر الأعلاق - المسامرات / ح ٢)

الهيام:

العشق للجمال والهيمان في الدلال، والمحب هائم القلب، أي حائر في الوجوه التي يريد أن يتقلب فيها القلب، والمهيمون هم الذين يهيمون على وجوههم من غير قصد جهة مخصوصة، فالمحبون لله أولى بهذه الصفة، فإن الذي يحب المخلوق إذا هام على وجهه، فهو لقلقه ويأسه من مواصلة محبوبه، ومحب الله متيقن بالوصلة، وقد علم أنه سبحانه لا يتقيد ولا يختص بمكان يقصد فيه[1]، لأن حقيقة الحق تأبى ذلك، ولذلك قال: ﴿ فأينما تولوا فثمَّ وجه الله ﴾ وقال: ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ فمحبه مهيم في كل واد وفي كل حال، لأن محبوبه الحق، فلا يقصده في وجه معين، بل يتجلى له في أي قصد قصده، على أي حالة كان، فهو أحق بصفة الهيمان من محبي المخلوقين، فهو تعالى المشهود عند المحبين في كل عين، والمذكور بكل لسان، والمسموع من كل متكلم، هكذا عرفه العارفون، وبهذه الحقيقة تجلى للمحبين، فهيمهم بين بعده وقربه، فإذا تجلى الحق في جماله إلى قلب من شاء من عباده بضرب من ضروب المعرفة، هيمهم ذلك التجلي فيه، فتهون عليهم الشدائد التي تجري بها الأقدار عليهم (تاج الرسائل - ف ح ٢ / ٣٥٤، ٣٤٠، ٣٥٥ - ذخائر الأعلاق)

المدله:

المدلهَ سكران العقل لا تدبير له.

الحب يترك من أحب مدلّها حيران أو يقضي عليه فيسرع

(ف ح ٢ / ٣٥٩ - مسامرات ح ٢)

---

(١) اتفق لأبي يزيد البسطامي لما خرج في طلب الحق في أول مرة: فلقيه بعض الرجال فقال له: ما تطلب يا أبا يزيد. قال: «الله» قال له: «الذي تطلبه تركته ببسطام» فتنبه أبو يزيد ورجع إلى بسطام، ولزم الخدمة حتى فتح له فكان منه ما كان.

الشجي:

الشجي حزين على ما فاته، فالمحب ذو أشجان.

تقول أناس لو نعتَّ لنا الهوى ... ووالله ما أدري لهم كيف أنعت
فليس لشيء منه جزء أعدّه ... وليس لشيء منه وقت موقت
بلى غير أني لا أزال كأنني ... عليَّ من الأحزان بيتُ مبيَّت
وأنضح وجه الأرض طوراً بعبرتي ... وأقرعها طوراً بظفري وأنكت
وقد زعموا بي أنني لا أحبه ... فما لي أراه من بعيد فأبهت
إذا اشتد ما بي كان آخر حيلتي ... له وضع كفي تحت خدي وأصمت

(ذخائر الأعلاق ـ مسامرات ح ٢)

الحزن:

الحزن أصعب المحبة وأشقها، فإنه مأخوذ من الحَزَن الذي هو الوعر، وهو ينزل بالمحب إذا ارتفع صبره ورحل عنه، فلا تسأل عن شدة ما لقي المحب بعد فراق المحبوب من الوبال، لما غاب شخصه وبقي الخيال، وتذكرت النفس ليال الأنس والاتصال، وقد اشتمل عليها الحزن لذلك أي اشتمال، وخالطها الجنون والخبال، فهام المحب سائحاً في بطون الأودية وقنن الجبال، شوقاً لذلك الجمال، وهيماناً في ذلك الإدلال، كم نور أظلمته سبحاتك، كم روض أذبله وجناتك، كم دم سفكته لحظاتك، واحرَّ قلباه من قلب لم تؤلمه دواعي الأشواق، ولا أنضجته حرارة الفراق، إلى متى آسى وتسلو؟ إلى كم أشكو وتلهو؟!

خليليَّ مهما جئتما علما نجد ... فَمُنَّا بتبليغ السلام على هند
وقولا لها رفقاً بقلب متيم ... تركناه بالجرعا يموت من الوجد
فلو كان من أهواه مثلي وعنده ... من البث والشوق المبرِّح ما عندي
لما كنت أخشى أن أموت من النوى ... لأن الذي أهواه مثلي في الود
ولكنني آسى ويسلو وأشتكي ... ويلهو فمن للحب إن مت من بعدي

(ذخائر الأعلاق ـ تاج الرسائل ـ ذخائر الأعلاق)

البث:

البث هي الهموم المتفرقة، من أجل الصور الكثيرة التي يقع فيها تجلي محبوبه، والمحبة

المفرطة إذا مدها البث، والبث إذا صاحبه التوقان، والتوقان إذا خالطه الهيمان، والهيمان إذا مازجه الارتياع، والارتياع إذا طمع فخانته الأطماع، يذوب لها الفؤاد، ويذهب لها السواد، ويتصدع لها الجماد، وينفطر لها السبع الشداد، والمحبة على قدر المحبوب، والطلب على قدر المطلوب.

كل محبوب سوى الله سَرَفْ ... وهموم وغموم وأَسَفْ
كل محبوب فمنه خَلَفْ ... ما خلا الرحمن ما منه خلف
إن للحب دلالات إذا ... ظهرت من صاحب الحب عرف
صاحب الحب حزين قلبه ... دائم الغصّة مهموم دنف
همُّه في الله لا في غيره ... ذاهب العقل وبالله كلف
أشعث الرأس خميص بطنه ... أصفر الوجنة والطرف ذرف
دائم التذكار من حب الذي ... حبه غاية غايات الشرف
فإذا أمعن في الحب له ... وعلاه الشوق من داء كشف
باشر المحراب يشكو بثه ... وأمام الله مولاه وقف
قائماً قدامه منتصباً ... لهجاً يتلو بآيات الصحف
راكعاً طوراً وطوراً ساجداً ... باكياً والدمع في الأرض يكف

(ذخائر الأعلاق ـ تاج الرسائل ـ مسامرات ح ٢)

الوجد:

هو ما يصادف القلب من الأحوال المفنية له عن شهوده، وهو حزن مما يجده المحب من الهموم، فالمحب عندما يُرَدُّ من مشاهدته في عالم الفناء عن الإحساس المعتاد في عالم الشهادة، حيث كان مؤنساً ضاحكاً في ابتهاج وسرور وغبطة وحبور، عندما يُرَدُّ إلى إحساسه ومشاهدة عالم الضيق والحرج، وفراق تلك الفسحات والفرج العلوية والمسارح، تأخذه الوحشة لتلك الفرقة، ويصير عبوساً مهموماً مغموماً، فيتبع المحب تلك المشاهدة بخياله، ومثاله في نفسه، فإن المحب إذا رجع إلى عالم الكون، بعد أنسه بتلك العين المقدسة والشهود الأقدس، يجد من الألم مثل ما يجده المتعشق عند نزول الموت، ومفارقة المألوفات التي كان يأنس بها، فلم يجد رزية أعظم من المنية لمن لا يحب المفارقة، ومعاينة أسباب الموت

ـ التي هي كرباتـه وغمراته ـ أعظم من الموت، فيؤثر ذلك في المحب النحول والهيمان، والدموع والغليل والأنين والسقام، وجميع الآلام التي توجب الغرام، ثم يجتمع مع ذلك الفـراق، وهـو الغيبـة عن مشاهدة المحبوب، برجوعه إلى كونه وحسه، وطول الوحشة يضاعف الحسرات، وتوالي الوجد يردف الزفرات، ودوام المرض يعظم الكربات، والوجد لذاته يقتضي ما يقتضي.

(ف ح ٢ / ١٣٣ ـ تاج الرسائل ـ ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٢ / ٣٥٢)

الكرب:

هو ما يجده المحب من غليل الهوى وحرقاته واصطلامه وزفراته، فلا راحة لمحب.

الحب حلو البدء مر العقب ... وأصعب الأدواء داء الحب

وصاحب الحب حليف الكرب ... مدله العقل عميد القلب

(ف ح ٢ / ٣٥٦ ـ مسامرات ح ٢)

الزفرات:

قال المحب:

إن كنت تنكر ما ألقاه من ألم ... وما يضرّم في قلبي معذبه

أشر بعود من الكبريت نحو فمي ... وانظر إلى زفراتي كيف تلهبه

وقال الآخر:

ياقادح النار بالزناد ... وطالب الجمر في الرماد

دع عنك شكاً وخذ يقيناً ... واقتدح النار من فؤادي

(مسامرات ح ٢)

فرط التولع علة في وجود الزفرة، والزفير زيادة الأشواق، وإنما يقع من مشاهدة زيادات الحسن في المشهود، في نظر العين عند الشهود، وزفرات الأشواق هي أصوات نيرانها السخنة، فإن الزفير صوت النار، فالزفرة من النَّفَس تكاد تحرق، فهي من غلبة الاصطلام الوارد على القلوب، فهي نار نور محرقة، يضيق القلب عن حملها، فتخرج منضغطة لتراكمها مما يجده المحب من الكمد، فيسمع لخروجها صوت تنفس شديد

الحرارة، كما يسمع لصوت النار صوت يسمى ذلك الصوت زفرة، ولا يكون ذلك إلا في الجسم الطبيعي خاصة، وقد يكون في الصورة المتجسدة، ولهذا تتصف الصورة المتجسدة عن المعنى المجرد إذا ظهر فيها، وقيل هذه صورته.

(ذخائر الأعلاق - تاج الرسائل - ف ح ٢ / ٣٤٠)

ولما كان حبنا نتيجة عن حبه تعالى، فإن النيران الشوقية من المحب، تتعالى نحو عنصرها الأعظم الموصوف به الجناب العالي، يؤثر في المحب ذرف الدمع، بحكم ما في النفس من ألم البعد، ووجود الصد والهجران، الذي هو نعت لازم، فكان فيه حرارة، لأن زفرات الأشواق سخنة، فلا يرتفع عن المحب البكاء والزفرات لرؤية الأغيار، إذ كان ينبغي له أن لا ينظر إلى غير محبوبه، إلى أن يغلب عليه مقام نظره بعين الله، أو مقام رؤية الله في كل شيء، فحينئذ يرتفع عنه البكاء والزفرات لهذا المشهد الكريم، وهو الغاية التي يصل إليها العارف، والمحب متردد بين عبرته وزفرته، من نار الأسى وحرارة الشجن، فإنها حالة شوقية للقاء المحبوب والظفر بالمطلوب، فلا نَفَسٌ رحماني بارد يثلج به الفؤاد، فيبرد حرارة الحزن لفوت المحزون عليه، بمشاهدة ما عن عناية إلهية، ولا منج يأخذ بيده ليخلص من الغرق في بحر الدموع. (ذخائر الأعلاق)

أقول لأصحابي وقد طلبوا الصلى ... ألا فاصطلوا إن خفتم القرَّ من صدري
فإن لهيب النار بين جوانحي ... إذا ذُكِرَتْ ليلى أحر من الجمر
فقالوا: نريد الماء نسقي ونستقي ... فقلت: تعالوا فاستقوا الماء من نهري
فقالوا: فأين النهر؟ قلت: مدامعي ... سيغنيكم فيض الدموع عن الحفر
فقالوا: ولِمْ هذا؟ فقلت: من الهوى ... فقالوا: لحاك الله قلت: اسمعوا عذري

(مسامرات ح ٢)

البكاء والدمع[1]:

قال ابن الرومي:

---

(١) عن رفاعة بن المهدي بن أبي القاسم:

تعلَّم الريحُ هز الغصن من قلقي ... والطير ناح كنوحي يوم هجراني
والأفق رش كدمعي السحب إذ همعت ... ونار فارس شبت مثل نيراني

(كتاب مختصر الخلفاء)

بعيني دموع لو جرين بقفرة — لأضحت بقاع الأرض من ملثها وحلا
وفي القلب نار لو تصب على الورى — لمات جميع الناس واحترقوا كلا
(مسامرات ح ٢)

وله أيضاً:

ياموقد النار يزكيها ويخمدها — برد الشتاء بأرياح وأمطار
قم فاصطلي النار من قلبي مضرَّمة — بالشوق تغن بها ياموقد النار
ويا أخا الذود قد طال الظماء بها — لم تدر ما الرأي في جدب وإقتار
رد بالظباء على عيني ومحجرها — تروي الظباء بدمع مسبل جار
يامزمع البين إن جد الرحيل فلا — كان الرحيل فإني غير صبار
(مسامرات ح ٢)

اعلم أنه قد تجري الدموع للسرور من غير بكاء، ولا يكون البكاء إلا مع الحزن، فهو دموع حارة لأنها عن حزن، والإنسان مركب من روح وطبع، فبكاء الأرواح من غير دمع، وبكاء الأشباح بدمع لوجود هذا الهيكل، ولما كانت منازل الأحبة يذهب الأنس بها لذهاب المحبوبين، إذ لا وجود لها من كونها منازل إلا بهم، فإنها تخرب بعد رحيل الأحبة عنها وخلوها عن ساكنيها فتصبح أطلالاً، فيكون بكاء المحب بعد فقد الأحبة ورسوم المنازل، أو إذا رأى أطلال منازل الأحبة حيث لم يكن معهم، فالمحب العارف إذا ارتحل عنه جلساؤه من الروحانيات الملكية، جائلين في الفسحات العلى، لا يقيدهم مكان طبيعي، ويبقى المحب مرتهناً بهذا الهيكل وتدبيره، مقيداً به عن الانفساح في مسارح فرج تلك الأطباق العلى، يسكب الدمع بذلك ويشكو حرقة الشوق الذي بفؤاده مما حل به، كما أن المحب إذا فكر في البينونة بكى لها قبل وقوعها، حتى لو وقعت لم تجد العين دمعة ترسلها عند الفراق، لأنها فنيت تلك الرطوبات من نار الحب وعظم حرارتها، وكثرة ما أرسلته من العبرات خوف البين، وقد يكون البكاء حالة شوقية للقاء المحبوب والظفر بالمطلوب، وقد يكون من العارف على تقصيره، إذ لا يساعده مركبه الطبيعي - أي جسده - فيما يريده من الطاعات،

وقـد يكـون حنيناً إلى بدايتـه، حيث ليس شيء أعـظم لذة من البـداية، فيبكي على عصر البدايات"[1]. (ذخائر الأعلاق)

وللشيخ الأكبر:

رعـى الله طيراً على بانـة ... قد افصح لي من صحيح الخبر
بأن الأحـبـة شدُّوا على ... رواحلهم ثم راحـوا سحـر
فسرت وفي القلب من أجلهم ... جحـيـم لبينهـمُ تستعـر
أتـابعـهـم في ظلام الـدجى ... أنـادي بهم ثم أقـفـو الأثـر
ومـا لي دليـل على إثـرهم ... سوى نَفَسٍ من هواه عطر
رفعن السجاف أضاء الدجا ... فسار الركـاب لضوء القمر
وأرسلت دمعي أمام الـركاب ... فقـالـوا متى سال هذا النهر
ولم يستـطيعـوا عبـوراً له ... فقلت دمـوعي جريـن درر
كأن الـرعـود للمع البروق ... وسـير الغمام لصوب المطر
وجيب القلوب لبرق الثغـور ... وسكب الـدموع لركب النفر
فيـا من يشبّـه لين القـدود ... بلين القضيب الـرطيب النضر
ولـو عكس الأمر مثل الذي ... فعلت لكـان سليم النـظر
فلين الغصـون للين القـدود ... وورد الـريـاض لورد الخفر

(مسامرات ح ٢)

ولنا أيضاً:

نادى الحـبيب من الـذي ... بالبـاب؟ قلت: فتى دعي
قال: ادعـى هل شاهـدٌ ... يدريـه؟ قلت: نعم معي
إن كنـت أكـذب سيـدي ... حسـبي شهـادة أدمـعي
وتـسـهـدي وتـبلـدي ... وتوجعـي وتفجعـي

---

(١) ولعبد الرحيم البرعي رضي الله عنه:

لا كانت الـريـح تبـدي لنـا خبرا ... من المـحـبـين أو تهدي لهم خبرا
حسبي من الـوجـد أني ما ذكـرتهم ... إلا تكـفكف ماء العـين وانحـدرا

وتلهفي وتحيري ... وتسرعي بتشرعي
ما زلت أسهر باكياً ... حتى بكاني مضجعي
شهدت بذلك زفرتي ... وسنا النجوم الطُلَّع

(كتاب الإسراء)

الحنين والأنين:

ومن عجب أني أحن إليهمو ... وأسأل عنهم من أرى وهمو معي
وترصدهم عيني وهم في سوادها ... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

(ف ح ١ / ١٧٨، ١٧٩)

الحنين للاشتياق، والأنين للهيمان، ولقاء الأحبة وفراقها مرتبط بسبق العلم وحلول الوقت وكرور الدور.

يحن الحبيب إلى رؤيتي ... وإني إليه أشد حنينا
وتهوى النفوس ويأبى القضا ... فأشكو الأنين ويشكو الأنينا

وحنين العارف حنين محبة وشوق، لا حنين عرض يزول بزوال متعلقه، فإذا وصفت روحه بالبكاء، فإنما ذلك لحنينه إلى المناظر العلى، وأن لا تُحْجَب بتعشق الأكوان عما خلقت له، فإن رؤية الحق في الخلق والتجلي في الصور، يؤدي إلى التعلق بالأكوان، لما ظهر التجلي فيها، فإن للحق تنوعاً في صور التجليات على حسب ما تعطيه المقامات والأحوال، وإذا وقع التجلي على القلوب، يحن المحب إلى عالم التنزيه والغيب، فحنين المحب إلى مواطن التجلي من حيث التجلي، لا من حيث ما هي. (ذخائر الأعلاق)

أبداً تحن إليكم الأرواح ... ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم ... وإلى زمان لقاكمو ترتاح
وارحمتا للعاشقين تحملوا ... ثقل المحبة والهوى فضّاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم ... وكذا دماء البائحين تباح

(مسامرات ح ٢)

الصبر[1]:

هو القـدرة على ملك الـوجـد، فلا يظهر في المحب سلطانه، والصبر والشوق لا يجتمعان، كما أن العلو والسفل لا يجتمعان، لأن الصبر ليس محل اللقا، كما أن الصبر يكون لعزة الحضرة الإلهية وامتناعها عن التجلي للمحب، فيحبس نفسه عن الشكوى، ويقوم الحزن في قلب المحب من فراق التجليات الإلهية. (ذخائر الأعلاق)

الكتمان والستر:

هو كتمان المحب ما أكَنّه من الجوى، غيرة على عِرض المحبوب، لئلا يقع العاذل في جناب من يستحق التعظيم بما لا يليق بجنابه، فيفعل ذلك صيانة للمحبوب وإيثاراً.

(ذخائر الأعلاق)

قال الضحاك:

يقـولـون مجنـون بسمـرا مولَّع ... ألا حبــذا جنٌّ بها وولــوع
وكيف أطيـع العاذلات وحبها ... يؤرقـني والعــاذلات هجــوع
وإني لأخفي حب سمراء عنهمو ... ويـعـلم قلبي أنــه سيشيــع

(مسامرات / ح ٢)

فالكتمان في المحبة أصل، بكل وجه وفصل، فتارة من باب الاحترام، وتارة شفقة من الآلام، كما قلت:

عليـل الجسم قد هجـر المنـاما ... يصـاحب خيفـة الواشين لاما[2]

(١) ولعبد الرحيم البرعي رضي الله عنه:

قضت الصبــابــة أن تكــون متيــماً ... فاصــبر تنــل بالصـبر أجـر مصــاب

ويقول ابن الفارض:

والـــصـــبر صبر عنهـــم وعــليـهـم ... عنــدي أراه إذن أذىً أزاذا

ويقول:

وعقبى اصـــطبـاري في هواكِ حميدة ... عليــكِ ولــكـن عنــكِ غير حميــدة
فصــبري أراه تحت قدرتي عليــكـم ... مطاقــا وعنكم فاعـذروا فوق قدرتي

(٢) اللأمة: الدرع.

يهيم بروح قدس لا يسامى إذا ما أبصر الشِّعْرى تساما
يقول أنا القتيل بغير سهم وذاتي كلها ملئت سهاما
شكوت اسم الحبيب إليّ وحدي وراعيت المودة والذماما
ولم أُخْفِ اسمه حذراً عليه ولكني ابتغيت الاحتراما

(تاج الرسائل)

البوح والإفشاء والإعلان[1]:

هو عند فقد الصبر بما تنطوي عليه الضلوع، فالمحب عندما يفقد كل ما كان يشهده من صور التجلي الجمالي، يسكب الدمع ويشكو حرقة الشوق الذي بفؤاده مما حل به، فلا يقدر على الكتمان والصبر، ويظهر فيه سلطان الوجد والإفشاء والإعلان، فتأبى الدموع بانسكابها إلا الإفشاء والبوح، فإن الوجد أملك، وهو أبلغ في المحبة من الكتمان، فإن صاحب الكتمان له سلطان على الحب، والبائح يغلب عليه سلطان الحب فهو أعشق، وأما قول القائل:

باح مجنون عامر بهواه وكتمت الهوى فمتُّ بوجدي
فإذا كان في القيامة نودي من قتيل الهوى تقدمت وحدي

فإن هذا القائل لم يتمكن منه الحب تمكن مَنْ لم يترك فيه سلطاناً لغيره، فإن الذي حجب الحب عن ظهور سلطانه أقوى منه، فكان أغلب عليه، ولا خير في حب يدبر بالعقل، بل أحكام المحبة تناقض العقول، فإن الحب غلاب، لا يبقي ستراً إلا هتكه، ولا سراً إلا أعلنه، زفراته متصاعدة، وعبراته متتابعة، تشهد جوارحه بما تحمله من الأسقام والسهر، وتَنُمُّ به أحواله، إن تكلم تكلم بما لا يعقل، ما له صبر ولا جلد، همومه مترادفة وغمومه متضاعفة. (ذخائر الأعلاق - المسامرات - ف ح ٢ / ٣٦١)

من بستان الوامق:

ياقلب من مواطن لم يرض منها وطنا

---

(١) للإمام البرعي:

يخفي الغرامَ تجلدي فتذيعه عبرات جفن عن صبابة صابي

ويـوم سلع لم يكـن　　يومـي بسـلع هيّـنـا
وقـفـت أسـتـسقي الـظما　　فيـه وأسـتـشفي الضنـا
وفـضـحـت سرَّ الهـوى　　عيـني فصـار علنـا
ويـوم ذي الـبـان تبـا　　يعـنـا فحـزت الـغبـنـا
كان الـغـرام المـشـتري　　وكـان قلبـي الـثـمـنـا

(مسامرات ح ٢)

الهلاك:

الهـالك من تحرقه سطوات هيبة التجلي فلا يبقى المحب، وذلك عند عدم الصبر ونزول الحزن به، والهوى إذا أفرط أدى إلى الهلاك أي الموت. حكي عن جماعة من المحبين أن محبوبه قال له: إن كنت تحبني فمت، فوقع من حينه في الأرض بين يديه ميتاً.

(ذخائر الأعلاق)

وروينا عن إبراهيم بن موسى قال: رأيت فتى صلى يوم عيد الأضحى وقد شم روائح اللحوم، فدخل إلى زقاق، فسمعته يقول: تقرب المتقربون إليك بقربانهم، وأنا أتقرب إليك بطول حزني، يامحبوبي كم تتركني في أزقة الدنيا محزوناً؟ ثم غشي عليه، وحمل إلى منزله، فدفناه بعد ثلاث، هذا هو فتح بن شرف الموصلي، من سادات القوم.

(مسامرات ح ٢)

الموت:

يكون بالذوبان، خوفاً من أنوار وسطوات الهيبة، كما يموت المحب ويقاسي الآلام، بين طلب الوصل بالمحبوب، وبين عزة المحبوب ومنعته، ولنا:

وبي منه ما لو كنت أنطق باسمه　　إلى الخلق مات الخلق من قوة الحب

والمحب إذا خاف الموت إنما يكره الموت من أجل أنه إذا مات لم ير محبوبه:

والله ما خفـت المـنـون وإنـما　　خوفي أمـوت فلا أراهـا في غد

أملى علينا صاحبنا أحمد بن مسعود بن شداد المقري، بمدينة الموصل سنة إحدى وستمائة، فيمن أفناه الشوق، وأودى به التوق، وأماته التذكر، وأفناه التفكر، حتى صارت جزيئاته وكلياته لله، وحركاته وسكناته بالله، ولحظاته وخطراته من الله، وضمائره وسرائره

مع الله، فني به عنه، لما منحه به منه، وذلك حين زهد في شهواته ولذاته، وتجوهر في صفاته وذاته، ففني بمولاه عن تربه ونفسه، بما أولاه من قربه وأنسه، عرض عَرَضه على الخلق، وجاهر بجوهره لدى الحق، حتى صار بين الأتراب من عالم التراب، ومن أولي الألباب عند رب الأرباب، بقي صورة في الفِناء، ومعنى في عالم الفَنَاء، فعين السعادة لم تزل، تلاحظه من قبل الأزل، فهو في عالم الصور معنا، وفي عالم الأرواح يشاهد المعنى. فلما أفناه موجده عن وجوده، بما حباه من طَوْله وجوده، تحيط جوهر روحانيته، في عَرَض إنسانيته، وطمعت في الخلاص الأرواح، من حصر أقفاص الأشباح، هتفت بها هواتف الأقدار بالعشي والإبكار، هذا يقرأ عليها: ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ﴾ وهذا يتلو عليها: ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فحينئذ هدرت بلابل بلبالها، وغردت قماري أقمار أحوالها، وأنشدت لسان حالها.

ياحسرتي كيف ألقاهم ولي جسدٌ	ولي فؤاد ولي سمع ولي بصر
ماذا أقول إذا قالوا فديتهمو	أين النحول وأين الدمع والسهر
إذا اعتذرت أجابتني محاسنهم	ما لامرىء لم يمت في حبنا عذر

(ذخائر الأعلاق ـ مسامرات ح ٢)

الهيبة:

إن الجمال مهوب حيثما كانا	لأن فيه جلال الملك قد بانا
الحُسْنُ حليته واللطف شيمته	لذاك نشهده روحا وريحانا
فالقلب يشهده يسطو بخالقه	والعين تشهده بالذوق إحسانا

الهيبة من أثر الجمال على كل حال، الجمال محبوب وهو أعز مصحوب، من صحبه الجمال لم يزل في اعتلال، من زاد شهوده في غلته، زاد في علته، إن الله جميل يحب الجمال، فلا تضربوا لله الأمثال. (ف ح ٢ / ٥٤٠ ـ ح ٤ / ٣٧٩)

جعل العلماء من أهل الله الأنس بالجمال مربوطاً، والهيبة بالجلال مربوطة، وليس الأمر كما قالوه، وهو أيضاً كما قالوه بوجه ما، وذلك أن الجلال والجمال وصفان لله تعالى، والهيبة والأنس وصفان للإنسان، فإذا شاهدت حقائق العارفين الجلال هابت وانقبضت، وإذا شاهدت الجمال أنست وانبسطت، فجعلوا الجلال للقهر والجمال للرحمة، والحقيقة أن

الجلال لله معنى يرجع منه إليه، وهو منعنا بالمعرفة به تعالى، والجمال معنى يرجع منه إلينا، وهو الذي أعطانا هذه المعرفة التي عندنا به والتنزلات والمشاهدات والأحوال، وله فينا أمران: الهيبة والأنس، وذلك لأن لهذا الجمال علواً ودنواً، فالعلو نسميه جلال الجمال وفيه يتكلم العارفون، وهو الذي يتجلى لهم ويتخيلون أنهم يتكلمون في الجلال الأول الذي ذكرناه، وهذا جلال الجمال قد اقترن معه الأنس، والجمال الذي هو الدنو قد اقترنت معه منا الهيبة، فإذا تجلى لنا جلال الجمال آنسنا، ولولا ذلك لهلكنا، فإن الجلال والهيبة لا يبقى لسلطانهما شيء، فيقابل ذلك الجلال منه بالأنس منا، لنكون في المشاهدة على الاعتدال، حتى نعقل ما نرى ولا نذهل، وإذا تجلى لنا الجمال هنا، فإن الجمال مباسطة الحق لنا، والجلال عزته عنا، فنقابل بسطه معنا في جماله بالهيبة، فإن البسط مع البسط يؤدي إلى سوء الأدب، وسوء الأدب في الحضرة سبب الطرد والبعد، ولهذا قال من قال من المحققين ممن عرف هذا المعنى: «اقعد على البساط وإياك والانبساط» فإن جلاله في أنفسنا يمنعنا في الحضرة من سوء الأدب، كما أن هيبتنا في جماله وبسطه تمنعنا من سوء الأدب، ولهذا فإن القرآن يحوي على جلال الجمال والجمال، فأما الجلال المطلق فليس لمخلوق في معرفته مدخل ولا شهود، انفرد الحق به، وهو الحضرة التي يرى فيها الحق سبحانه نفسه بما هو عليه، فلو كان لنا فيه مدخل لأحطنا علماً بالله وبما عنده، وهذا محال، فجلال الجمال يكسوك الهيبة فتهاب المقام، وهو الذي يجده المحب والعارف من تعظيم المحبوب، فيؤثر جنابه على كل شيء. (كتاب الجلال والجمال - ف ح ٢ / ٦٦١)

فالجمال مهوب معظم، والجلال المطلق مهوب معظم وليس بمحبوب، فإنه من سطوات القهر والجبروت، فتَفْرَق منه النفوس.

قال الشاعر:

اشتاقه فإذا بدا أطرقت من إجلاله
لا خيفة بل هيبة وصيانة لجماله

(ذخائر الأعلاق - ف ح ٢ / ١٠٥ - ح ٤ / ٢٤١)

فإن قلت: إلى أي حقيقة من الحقائق الإلهية تستند الهيبة؟ قلنا: لما كان الجمال يهاب لذاته، والحق لا يهاب شيئاً، وقد وصفه العالم ﷺ بأنه جميل، والهيبة تجعل صاحبها أن يترك

أموراً، كان في نفسه في وقت حديث النفس، أن يفعلها مع محبوبه عند الاجتماع به واللقاء، فتمنعه هيبة الجمال مما حدثته به نفسه، وقد وصف الله نفسه بالحياء من عبده إذا لقيه، فقام الحياء لله مقام الهيبة في المخلوق. (ف ح ٢ / ٢٧٠)

الأدب:

أحبك حباً لا أعنّف بعده | محباً ولكني إذا ليم عاذره
أحبك ياسلمى على غير ريبة | ولا بأس في حب تعف سرائره

إن مشاهدة المحبوب، هي البغية والمطلوب، وهي أعز موجود، وأصعب مفقود، وعليك آداب في المشاهدة لها علامات، منها الثبات وعدم الالتفات، والخشوع والإقناع، والخضوع والارتياع، والمحب لا يستدبر جهة محبوبه أبداً أدباً وعشقاً.

قال أبو فراس:

الحب آمِرُه والصون زاجره | والصبر أول ما يأتي وآخره
إن الفتى إن صبا أو شفه غزل | فللعفاف وللتقوى مآزره
وأشرف الناس أهل الحب منزلة | وأشرف الحب ما عفت سرائره

وعن مجاهد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «من عشق فكتم، وعف وصبر، غفر الله له وأدخله الجنة». (مسامرات ح ٢ ـ تاج الرسائل ـ ذخائر الأعلاق ـ مسامرات ح ٢)

عظمة المحبوب:

لا يعظم أحد في عين أحد لذاته إلا المحبوب خاصة، فإنه يعظم في عين محبه لذاته، فكل شيء يكون منه، يتلقاه المحب الصادق الحب بالقبول والرضى، وما كل محب محب، لأن طلب الغرض من المحب لا يصح في الحب الصادق، الذي استفرغ قواه، وإنما ذلك لمن بقيت فيه فضلة يعقل بها أنه محب، وأن محبوبه غيرٌ له، لذلك يطرأ العذاب على المحبين من عدم الملائمة في أغراضهم، فإذا فني المحب عن غرضه، وكان مع ما يريد منه وبه محبوبه، صار كل شيء في هواه حسناً، لأنه غرض لمحبوبه، وفيه إرادته، كما قيل: «وكل ما يفعله المحبوب محبوب» «وعذب العذاب منهم في رضاهم كان عنده أحلا من الشهد»، وإذا كان الأمر بهذه المثابة، ويكون المحب صادقاً في هذا المقام، لم يَشْكُ ما يجد، ولا يجد حزناً،

ولا يشكو تعباً، فإن إرادته عين إرادة محبوبه، فقد اتفق له جميع ما يريد، ومن اتفق له مراده فهو مسرور، فإن باطن الإنسان ـ وهو الذي رزقه الله الالتذاذ بالطاعات ـ تُصَرِّفه المحبة، فلا يحس المحب بالمشقة ولا بالتعب في رضى المحبوب، وإن كان بناء هذا الهيكل يضعف عن بعض التكاليف، فإن الحب يهونه ويسهله، فالمحب يتلقى بالحب تكاليف محبوبه، بالقبول والرضى والمحبة ورفع المشقة والكلفة، فالمحب كلما فرغ نصب، لا يعرف التعب، روحه عطية، وبدنه مطية، لا يعلم شيئاً سوى ما في نفس محبوبه، قرير العين متحر لمراضيه.

(ف ح ٤ / ٢٤٤ ـ ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٤ / ٤٢١ ـ ذخائر الأعلاق)

الاهتضام:

وهو يورث التواضع. ذكر عن المأمون قوله:

إن الهوان هو الهوى قُلِبَ اسمه ... فإذا هويت لقد لقيت هوانا
فإذا تَعَبَّدك الهوى فاخضع له ... واسجد لإلفك كائناً من كانا

(ذخائر الأعلاق ـ مسامرات ح ٢)

الخجل:

وهو من أثر الحياء الذي يطرأ على القلب من التجلي. (ذخائر الأعلاق)

الذبول[1]:

هو نعت صحيح في أرواح المحبين وأجسامهم، أما في أجسامهم، فسببه ترك ملاذ الأطعمة الشهية التي لها الدسم والرطوبة، وهي مستلذة للنفوس وتورث في الأجسام نضرة النعيم، فلما رأوا ـ رضي الله عنهم ـ أن الحبيب كلفهم القيام بين يديه ومناجاته ليلاً، عند تجليه ونوم النائمين، ورأوا أن الرطوبات الحاصلة في أجسامهم، تصعد منها أبخرة إلى الدماغ، تخدر الحواس وتغمرها، فيغلبهم النوم عما في نفوسهم من القيام بين يدي محبوبهم، لمناجاته في خلواتهم حين ينامون، ثم إن تلك الأبخرة تورث قوة في أبدانهم، تؤدي

---

(١) قال السري السقطي:

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني ... فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا
فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشا ... وتذهل حتى لا تجيب المناديا

تلك القوة الجوارح إلى التصرف في الفضول، الذي حجّر عليهم التصرف فيه محبوبهم، فتركوا الطعام والشراب إلا قدر ما تمس الحاجة إليه من ذلك، فقلّت الرطوبة في أجسامهم، فزالت عنهم نضرة النعيم، وذبلت شفاههم واسترخت أبدانهم، وراح نومهم وتقوى سهرهم، فنالوا مقصودهم من القيام بين يديه، ووجدوا المعونة على ذلك بما تركوه، فذلك هو ذبول أجسامهم؛ وأما ذبول أرواحهم، فإن لهم نعيماً بالمعارف والعلوم، لأن لهم نسبة إلى أرواح الملأ الأعلى، ليأنسوا بالجنس ورغبة في المعاونة، لما سمعوا الله يقول: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ فتخيلوا أنهم المخاطبون بذلك، وليس الأمر كذلك، فإن الذين خوطبوا بذلك، هم الذين يليق بهم أن يتعاونوا على الإثم والعدوان، ولذلك أردف النهى فقال: ﴿ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله ﴾ وهذا ليس من صفات الملأ الأعلى، فلما عرفوا غلطهم في ذلك، عدلوا عن هذه الآية إلى قوله: ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ أي احبسوا نفوسكم مع الله، فلما فارقوا الجنس بهذه الآية، ذبلت أرواحهم وقد كانت في نضرة النعيم بمجالسة الجنس، لأنها تعلقت بمن ليس كمثله شيء، فلم تعرف بينها وبينه مناسبة مثلية فتتعلق بها، فقالت لها المعرفة بالله: هو ما خاطبك سبحانه إلا بلسانك ولحنك ولغتك، وما تواطأ عليه أهل ذلك اللسان الذين أنت منهم، فارجعي إلى مفهوم ما خاطبك به، فإنه لم يخرجه عن حقيقة مدلوله، ولا تنال بجهلك النسبة إليه من ذلك، فإن تلك الصفة التي خاطبك بها تطلبه بذاتها، لأنه وصف نفسه بها، ولا تكون صفاته إلا بمناسبة خاصة منا إليه، فإذا تعلقت أنت بتلك الصفة ولزمتها، بالضرورة تُحَصِّلُك عنده، فتعلم عند ذلك صورة نسبتها إليه، علم ذوق وتجلٍ إلهي، فيزيد ذبولك حتى تصير كالنقطة المتوهمة، كما قال بعضهم:

أصبحت فيك من الضنا كالنقطة المتوهمة

وهي التي لا وجود لها إلا في الوهم، فهذا نعتهم في الذبول، وقد روينا في خبر مؤيد بكشف، أن إسرافيل - وهو من أرفع الأرواح العلوية - يتضاءل في نفسه كل يوم لاستيلاء عظمة الله على قلبه سبعين مرة حتى يصير كالوضع، كما يحشر المتكبرون في نفوسهم على عباد الله يوم القيامة كأمثال الذر، ذلة وصغاراً، فهذا نعت ذبولهم في أرواحهم وأجسامهم.
(ف ح ٢ / ٣٣٩)

النحول :

وهو نعت يتعلق بكثائفهم وبلطائفهم ، فأما تعلقه بلطائفهم ، فإن أرواح المحبين وإن لطفت عن إدراك الحواس ، ولطفت عن تصوير الخيال ، فإن الحب يلطفها لطافة السراب ، لمعنى أذكره ، وذلك أن السراب يحسبه الظمآن ماء لظمئه ، لولا ذلك ما حسبه ماء ، لأن الماء موضع حاجته ، فيلجأ إليه لكونه مطلوبه ومحبوبه ، لما فيه من سر الحياة ، فإذا جاءه لم يجده شيئاً ، وإذا لم يجده شيئاً ، وجد الله عنده عوضاً عن الماء ، فكان قصده حساً للماء ، والله يقصد به إليه من حيث لا يشعر ، فكما أنه تعالى يمكر بالعبد من حيث لا يشعر ، كذلك يعتني بالعبد في الالتجاء إليه والرجوع إليه والاعتماد عليه ، بقطع الأسباب عنه عندما يبديها له من حيث لا يشعر ، فوجود الله عنده عند فقد الماء المتخيل له في السراب ، هو رجوعه إلى الله ، لما تقطعت به الأسباب ، وتغلقت دون مطلوبه الأبواب ، رجع إلى من بيده ملكوت كل شيء ، هو كان المطلوب به من الله ، هذا فعله مع أحبائه ، يردهم إليه اضطراراً واختياراً ، كذلك أرواحهم يحسبونها قائمة بحقوق الله التي فرضها عليها ، وأنها المتصرفة عن أمر الله محبة لله ، وشوقاً إلى مرضاته ، ليراها حيث أمرها ، فإذا كشف لها الغطاء واحتد بصرها ، وجدت نفسها كالسراب في شكل الماء ، فلم تر قائماً بحقوق الله ، إلا خالق الأفعال وهو الله تعالى ، فوجدت الله عين ما تخيلت أنه عينها ، فذهبت عينها عنه ، وبقي المشهود الحق بعين الحق ، كما فني السراب عن السراب ، والسراب مشهود في نفسه وليس بماء ، كذلك الروح موجود في نفسه وليس بفاعل ، فعلم ذلك أن المحب عين المحبوب ، وأنه ما أحب سواه ، ولا يكون إلا كذلك ، وألطف من هذا النحول في الأرواح فلا يكون ؛ وأما النوع المتعلق من النحول بكثائفهم ، فهو ما يتعلق به الحس من تغير ألوانهم ، وذهاب لحوم أبدانهم ، لاستيلاء جولان أفكارهم ، في أداء ما كلفهم المحبوب أداءه مما افترضه عليهم ، فبذلوا المجهود ليتصفوا بالوفاء بالعهود ، إذ كانوا عاهدوا الله على ذلك ، وعقدوا عليه في إيمانهم به وبرسوله ، وسمعوه يقول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ وقال : ﴿ أوفوا بعهدي ﴾ وقال : ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ وقال : ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ فهذا سبب نحول أجسامهم ، هذا علاوة على ما ذكرناه من أثر الحب الطبيعي في أجسام المحبين ، وأن مواد الغذاء تنصرف إلى صورة المحبوب في الخيال فتعظم ، وتقل عن البدن فينحل ،

فإن حرقة الشوق تحرقه، فلا يبقى للبدن ما يتغذى به، وفي ذلك الاحتراق نمو صورة المحبوب في الخيال، فإن ذلك أكلها. (ف ح ٢ / ٣٣٨)

وللشيخ الأكبر:

صيرني حبك معقولاً ... بحكمه وكنت محسوسا
لطفت حتى لا يراني الهوى ... فلم يجد عندي تعريسا
فقلت لم نفسك أنت الذي ... ألبستني الضراء والبوسا
حتى تحيرت وحيرتني ... بيس الذي فعلته بيسا
أفنيتني عنك وعني فلم ... تجد مقيلاً فيه تنفيسا
قد كنت ليثاً كاسراً نابه ... وكانت أحشاي لكم خيسا[1]
جار الهوى واعتل في نفسه ... فهل سمعتم بالهوى بوسا
فأين جالينوس يأسوه أو ... محيي العبيد نبينا عيسى

(مسامرات / ح ٢)

الاستعطاف والاستلطاف:

المحب منه النصرة والإيمان، والرقة واللطافة، استعطافاً لرضى المحبوب واستلطافاً به، والمحبوب إذا لم يكن محباً في نفس الوقت، له الجفا والبعد، والغلظة والقهر، والمحب إذا داخل حاله الاعتلال، والجسم قد خالطه الانسلال، والعقل قد مازجه الخبال، تذكرت النفس أياماً سلفت، فهامت فتلفت، يستعطف المحبوب بأن يرد الله عليه شباب تلك الأيام والليال، ويقر عينه بالتنزه في محاسن ذلك الجمال، يا طول حزنه على الفوت، ويا شرَّ حياته إن لم يره قبل الموت، يعاتب محبوبه فيقول له: أخبرني رسول الود ـ الذي بيني وبينك ـ أنكِ عني سالية، وديارك عن محبتي خالية، على عروشها خاوية، لا أخطر لك في جَنَان، ولا أحضر لك في لسان، ولا أتمثل لك في خيال، ولا أجري لك على بال، وقد علمت يا قرة العين أني قد قطعتُ المألوفات، وتركت المستحسنات، وقصدتك من دون العالم أجمع، وخيمت بفنائك لأخصب وأرتع، ورغبت في سِلْمِ الأعداء رغبة في جوارك، وأعطيت الرشوة للرقباء ليسمحوا لي في دنو مزارك، وأنت تأنفين عن ذكري، وتتوقفين عن ملاحظة

---

(١) الخيس: بالكسر موضع الليث.

سري، كان نعيمي بك طيباً فكدرته، وكان سري بك مطلقاً فأسرته، فقلت: هذا كله لإيثاري إياك على كل مخلوق ومصحوب، وتقديمي إياك على كل محبوب، وحملي عظيم بلائك، وجهدي في بلوغ رضائك، ثم لم أزل بين يديك متنصباً، أتضرع إليك منتحباً، أشكو منك إليك، وأتماوت لك عليك، وأصعق عند رؤيتك، وأفرق عند زورتك، يا قلباً تقلب على جمر الغضى، أترى يعود إليك محبوبك بالرضى؟ يا نفساً غرقت في بحر الأسى، تعللي بذكره لعل وعسى، فربما يمسي عندك مُعَرِّساً، يا نظرة زودتنيها ليتها ما كانت، يا حسرة أورثتنيها ليتها لو زالت، وَرَدَ الفال الذي هو لسان الزمان، أنَّ آن الوصال قد آن، وقد جاءت الرواحل بالبشائر، وانتظمت القبائل والعشائر ألا تصغين لشرح حالي معك؟ لا قلاك ربي ولا ودعك، لم أزل منك في كل لحظة وآن، في وصف إلهي كل يوم هو في شان، سنفرغ لكم أيها الثقلان، كلما ظهرت منك آية، أعقبتها عماية، ومتى تحققت منك صفاء، تلاه كدر، كيف يبقى جسم قد أنضجت كبده حرارة الأشواق؟ وغشيت عيناه من البكاء حذر الفراق، في أيام التلاق والعناق؟ إن باح خاف من الوشاة، وإن كتم هلك بتوالي الحسرات والزفرات، فلا أدري والله في أي واد أهيم؟ ولا على أي حالة أحوم؟ كلما باسطتك انقبَضْتِ، وكلما أقبلت عليك أعرَضْتِ، أطلب أبلغُ رضاك، ولا أنظر لجهلي بقضاك، أموري كلها بالبلايا معروفة، وعلى الرزايا موقوفة، أما تحنيّ؟ أما ترثي؟ أما تنظري في حزني وبثي؟ ها أنا ماثل بين يديك، ناظر بعين الذلة والمسكنة إليك، حيران لا دين لي، ولهان لا عقل لي، مبهوت، بلا نفس عين تجود، وحزن شديد، لا يبلى ولا يبيد، وأخ غير مساعد ولا موافق، وليل لا صبح له ولا مرافق. ولا قائل يقول:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

(ذخائر الأعلاق ـ تاج الرسائل)

طلب الرحمة[1]:

المحب يطلب الرحمة به، فإن المحبة حكم توجب رحمة الموصوف بها بنفسه، ولذا

---

(١) يقول ابن الفارض:

زدني بفرط الحب فيك تحيرا ... وارحم حشاً بلظى هواك تسعرا

وإذا سألتك أن أراك حقيقة ... فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى

يجد المتنفس راحة في نَفَسِه، فبروز النفس من المتنفس عين رحمته بنفسه، فكان مقام المحبة الإلهي أول مرحوم، فخلق الخلق، وهو نَفَس الرحمن. (ف ح ٣ / ٤٢٩ ـ ح ٤ / ٢٥٦)

الدهش:

وسببه فجأة المحبوب، والمحب إذا ورد على منزل الأحبة، أخذه دهش وحيرة في أول وروده، وربما يغشى عليه، وكذلك يدركه تبلبل، فلا يوفي الأدب في السلام مع هذا الدهش. (ف ح ٢ / ٣٥٧ ـ ذخائر الأعلاق)

الخرس:

تكلم منا في الوجوه عيوننا ... فنحن سكوت والهوى يتكلم
تشير فأدري ما تقول بطرفها ... وأطرف طرفي عند ذاك فتعلم

لأن المقام واحد، فتفهم عني ما أريد وأفهم ما تريد، فالمحب مقامه الخرس، لأن حاله يترجم عنه، ولنا في هذا المقام:

والهوى بيننا يسوق حديثا ... طيباً مطرباً بغير لسان

ومن ريحانة العاشق:

خرس اللسان ولا دموع تنطق ... إن الهوى بحشاشتي متعلق
لما رأيت أحبتي يوم النوى ... شط الرحيل ببينهم فتفرقوا
سلطت طوفان الدموع عليهم ... وبعثت أنفاسي لكي لا يغرقوا
فتأوه الحادي وقال لهم قفوا ... فبإثركم لا شك من يتعشق
فأجبتهم من تحت صوت باهتاً ... قامت قيامة عبدكم فترفقوا
ردوا الصِبَاح لناظريَّ فما أرى ... إلا سيوف الموت حولي تبرق

(ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٢ / ٤٦ ـ مسامرات ح ٢)

الشفقة:

الشفقة من المحب على المحبوب الممثل في خلده، فإنه يتخيل أن نيران الأشواق القائمة به، تؤثر في ذلك المثال الذي خلده منه، فتحن الضلوع على المحبوب شفقاً لتحول

بينه وبين النار، لذا كانت الضلوع محنية من أجل المحبوب، لتضمه عناقاً وحذراً عليه أن يصيبه أذى، قال الشيخ رضي الله عنه في ذلك.

ما خفت إذ أضرمت نار الأسى   في أضلع تحرقك النار

وأما الشفقة من المحبوب على المحب، بأن لا يزيد المحبوب في عذاب المحب، فيرفق به من حيث لا يريد المحب، فإن النظرة من المحبوب تزيد المحب وجداً إلى وجده، وحباً إلى حبه، فتزيده عذاباً، فإن المحبوب صاح والمحب سكران، فالمحب مؤثر في المحبوب الرحمة به والشفقة، لما يعطيه شاهد حاله. **(ذخائر الأعلاق)**

الأنفاس:

تحصل من سطوات هيبة التجلي الذي هو الجمال، وقيل: ليس الطيب إلا أنفاس الأحبة، لولا أعرافهم ما فاح المسك لمستنشق. **(ذخائر الأعلاق)**

الوصل الدائم:

هو مع بقاء العين، فيكون برد السرور وثلج اليقين، ولهذا قلنا: ينبغي للعارف أن لا يقف إلا مع الذات، ولا يتعشق باسم دون اسم، فإنه في كل حال مفارق لاسم مواصل لآخر، وما أعذب اللثم والعناق عند العشاق.

واعلم أن الحق تعالى ما دعا عباده إليه، ولا شرع لهم الطريق الموصل إليه، إلا ليسعدوا بالاتصال به، فهم الواصلون، أهل الأنس والوصال.

فهم الذين هم هم   أهل المودة في القديم

(ذخائر الأعلاق ـ تاج الرسائل ـ ف ح ٢ / ٣٨)

الغيرة:

الغيرة تقتضيها المحبة فإنها من نعوتها، وهي من رؤية الأغيار، فالمحب يغار لما يقتضيه تعظيم المحبوب وغيرة أن تنتهك حرمته، حتى يغار المحب أن يكون له وجود في نفسه لغير محبوبه، والمحب يغار على عرض المحبوب، لئلا يقع العاذل في جناب من يستحق التعظيم بما لا يليق بجنابه، ومن عاين الحق في كل شيء لا غيرة عنده، فإنه ما رأى في كل شيء إلا

وجهه، والحق واحد، ولكن للحق التنوع في صور التجليات على حسب ما تعطيه المقامات والأحوال، فمن هنا يظهر لسان الغيرة في جناب الحق، ولو أن الحق واحد في ذاته[1].

(ف ح ٢ / ٣٥١، ٣٨ ـ كتاب النجاة ـ ذخائر الأعلاق)

الصبابة[2]:

هي رقة الشوق إلى لقاء المحبوب، فهي وصف للمحبة بالرقة، لأنها انتقال إلى عالم اللطف، فإن الكثيف غليظ الحاشية، والصب المائل بالمحبة الذي ما له مُقيم، ومنه ريح الصبا أى المائلة، وصبا فلان إلى دين فلان إذا مال إليه، والصب في الحب الإلهي هو المائل إلى الحضرة الإلهية، يخفي ما تنطوي عليه الضلوع من رقة الشوق للمنظر الأجلى.

الحب حلو أمرّتْهُ عواقبه — وصاحب الحب صب القلب ذائبه
أستودع الله مَنْ بالقلب ودعني — يوم الرحيل ودمع العين سائله
ثم انصرفتُ وداعي الحب يهتف بي — ارفق عليك فقد عزت مطالبه

(ف ح ٤ / ٢٥٩ ـ مسامرات ح ٢)

وللشيخ الأكبر رضي الله عنه:

درست ربوعهم وإن هواهم — أبداً جديداً بالحشى لا يُدْرَسُ
هذي طلولهم وهذي الأربُعُ — ولذكرها أبداً تذوب الأنفسُ
مرّغتُ خدي رقة وصبابة — فبحق حق هواكم لا توئيسوا
من ظل في عبراته غرقاً وفي — نار الأسى حرقاً ولا متنفس
ياموقد النار الرويدا هذه — نار الصبابة شأنكم فلتقبسوا

وله أيضاً:

ياإله الخلق ياأملي — وياسميري في دجى الظلم
جد على صب حليف ضنى — ياكثير الجود والنعم

(مسامرات ح ١ ـ كتاب الإسراء)

---

(١) راجع المحب غيور على محبوبه منه ـ نعوت المحبين.

(٢) ولعبد الرحيم البرعي:

ما كنت أعرف ما الصبابة والبكا — لولا فراق خريدة معتاق

الشوق والاشتياق:

اعلم أن الشوق إلى الحضرة الإلهية ذاتي للعارف، والصبر عرضي، والشوق للمحبة وصف لازم تابع لها، فإن الحب يتحكم بسلطانه في المحب، فيؤثر فيه على البعد الشوق، وعلى القرب الاشتياق، فسواء بَعُدَ الحبيب أو قَرُبَ، فإن أثر الحب في المحب أمر لازم، فالشوق يسكن باللقاء، والاشتياق يهيج بالالتقاء، لا يعرف الاشتياق إلا العشاق، من سكن باللقاء قلقه فما هو عاشق، عند أرباب الحقائق، من قام بثيابه الحريق كيف يسكن؟ وهل مثل هذا يتمكن؟ للنار التهاب وملكة، فلا بد من الحركة، والحركة قلق، فمن سكن فما عشق، كيف يصح السكون؟! وهل في العشق كمون؟! هو كله ظهور، ومقامه نشور، العاشق ما هو بحكمه، وإنما هو تحت سلطان عشقه، ولا يحكم من أحبّه، هكذا تقتضي المحبة، فما حب محب إلا نفسه، أو ما عشق عاشق إلا معناه أو حسه، لذلك العشاق يتألمون بالفراق، ويطلبون لذة التلاق، فهم في حظوظ نفوسهم يسعون، وهم في العشاق الأعلون، فإنهم العلماء بالأمور، وبالذي خبأه الحق خلف الستور، فلا منة لمحب على محبوبه، فإنه مع مطلوبه، وما له مطلوب، ولا عنده محبوب ومرغوب، سوى ما تقر به عينه، ويبتهج به كونه، ولو أراد المحب ما يريده المحبوب من الهجر، هلك بين الإرادة والأمر، وما صح دعواه في المحبة، ولا كان من الأحبة. (ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٤ / ٣٦٨)

والشوق حركة روحانية إلى لقاء المحبوب، وحركة طبيعية جسمانية حسية إلى لقاء المحبوب، إذا كان من شكله ذلك المحبوب، فإذا لقيه أي محبوب كان، فإنه يجد سكوناً في حركة، فيتحير لماذا ترجع تلك الحركة مع وجود اللقاء، ويراها تتزايد، ويدركه معها خوف في حال الوصلة، فيجد الخوف متعلقه توقع الفرقة، ويجد الحركة الاشتياقية تطلب استدامة حالة الوصلة، ولذلك يهيج باللقاء، كما قيل في الشوق:

وأبـرح ما يكـون الشـوق يومـاً إذا دنت الـديـار من الـديـار

فإن الشوق أبرح ما يكون إذا أبصر المحب دار المحبوب، والشوق المبرح هو المظهر لما يكنه الجنان من الهوى، ولنا:

شوق بتحصيـل الوصال يزول والاشتيـاق مع الوصال يكون
إن التخيـل للفـراق يديمـه عنـد اللقـاء فربـه مغبـون

من قال هون صعبه قلنا له ... ما كل صعب في الوجود يهون
هو من صفات العشق لا من غيره ... والعشق داء في القلوب دفين
ما حكم هذا النعت إلا ههنا ... وهناك يذهب عينه ويبين

فالشوق يسكن باللقاء، فإنه هبوب القلب إلى غائب، فإذا ورد سكن، والاشتياق حركة يجدها المحب عند اجتماعه بمحبوبه فرحاً به، لا يقدر يبلغ غاية وجده فيه، فلو بلغ سكن، لأنه لا يشبع منه، فإن الحس لا يفي بما يقوم في النفس من تعلقها بالمحبوب، فهو كشارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً، قال عليه السلام: «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا» من حيث ما هو محب في تحصيل كل واحد منهما، وما للعلم غاية ينتهي إليها فلهذا لا يشبع، وكذلك الدنيا فإنها مشتهى النفوس والشهوة تطلبها، ولولا الشهوة ما طابت الجنة، فالشوق ما سكن، والاشتياق ما بقي.

(ف ح ٢ / ٣٤٠ - ح ٣ / ٣٩٣ - ح ٢ / ٣٦٤)

ولنا في هذا الباب:

ليس يصفو عيش من ذاق الهوى ... دون أن يلقى الذي يعشقه
فإذا أبصره يُسَكِّنه ... ذلك المعنى الذي يقلقه
وهو معنى حكمُه مختلف ... عند من يعرف ما أطلقه

وإن كان الحب لا يتعلق إلا بمعدوم كما قدمنا، لذلك الشوق لا يصح أن يتعلق بحاضر، وإنما متعلقه غائب غير مشهود له في الحال، ولذا كان الشوق من أوصاف المحبة، ولهذا يطّرد وينعكس، فيقال: كل محب مشتاق، وكل مشتاق محب، ومن ليس بمشتاق فليس بمحب، ومن ليس بمحب فليس بمشتاق؛ وقد ورد خبر لا علم لي بصحته، أن الله تعالى ذكر المشتاقين إليه وقال عن نفسه: إنه أشد شوقاً إليهم، كما يليق بجلاله[1]، فشوقه إليهم أن ينيلهم الراحة بلقاء من اشتاقوا إليه، والوقت المقدر الذي لم يتبدل لم يصل، فلا بد من تأخر ما وقع الشوق الإلهي إليه، هذا إن صح الخبر، ولا علم لي به لا من الكشف ولا

---

(١) هو قوله تعالى لداود عليه السلام: «يا داود إني أشد شوقاً إليهم» يعني المشتاقين إليه سبحانه. كما جاء في الخبر.

من رواية صحيحة، إلا أنه مذكور مشهور، وقد اتصفت الجنة بالاشتياق إلى عليّ وسلمان وعمار وبلال، وتكلم الناس في ذلك من حيث اشتقاق أسماء هؤلاء، من العلو والسلامة والعمران والاستبلال، ولكن ما هو محقق، فإن الشوق أمر ذوقي يعرفه كل مشتاق من نفسه.

وقال آخر من الخوف في حال الوصلة:

وأبكي إن نأوا شوقاً إليهم وأبكي إن دنوا خوف الفراق[1]

هذا جزاء من أحب غير عينه، وجعل وجود عين محبوبه فيما هو خارج عنه، فلو أحب الله لم تكن هذه حالته، فمحب الله لا يخاف فرقة، وكيف يفارق الشيء لازمه، وهو في قبضته لا يبرح، وبحيث يراه محبوبه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، ولو كانت آلام المحبة التي يعطيها الغرام، هان على العارف ما يجده من حرقة الاشتياق مع اللقاء، وحرقة الشوق أشد للمفارقة.

ولا معنى لشكوى الشوق يوماً إلى من لا يزول من العيان

(ف ح ٢/ ٣٦٤، ٢٩٥)

ولهذا ينبغي للعارف أن لا يقف إلا مع الذات، ولا يتعشق باسم دون اسم، فإنه في كل حال مفارق لاسم مواصل لآخر، أين الفراق وما في الكون إلا هو؟! ولنا في ازدياد المحبة مع المشاهدة والشوق.

أغيب فيفني الشوق نفسي فألتقي فلا أشتفي فالشوق غيباً ومحضراً
ويحدث لي لقياه ما لم أظنه مكان الشفا داءً من الوجد آخراً
لأني أرى شخصاً يزيد جماله إذا ما التقينا نضرة وتكبراً
فلابد من وجد يكون مقارناً لما زاد من حسن نظاماً محررا

---

(١) قيل:

هبك تبكي من القطيعة والهجر فلماذا يبكيك عند الوصال

قلت:

أبكي في الهجر شوقاً إلى الوصل وفي الوصل خيفة من الزوال

(كتاب نسيم الأرواح لأبي عبدالرحمن السلمي)

أشير إلى تجليه سبحانه في صور مختلفة في الآخرة لعباده، وفي الدنيا لقلوب عباده، كما ورد في صحيح مسلم من تحوله سبحانه في الصور، كما ينبغي لذاته من غير تشبيه ولا تكييف. وفي ذلك يقول رضي الله عنه:

النـار تضـطرم في قلبي وفي كبدي   شوقاً إلى نور ذات الواحد الصمد
فجـد عليَّ بنـور الـذات منفـرداً   حتى أغيب عن التـوحيد بالأحد
جاد الإلـه به في الحـال فارتسمت   حقيقـة غيَّبت عقـلي عن الجسـد
فصرت أشـهـده في كل نازلـة   عنـاية منه في الأدنى وفي البعـد

(ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٢ / ٣٢٦ ـ مسامرات ح ٢ ـ ديوان / ١٣)

الغربة والاغتراب:

الغربة مفتاح الكُرَب، لولاها ما كانت القُرَب، القريب هو الغريب وهو الحبيب، ولا يقال في الحبيب إنه غريب، هو للمحب عينه وذاته، وأسماؤه وصفاته، لا نظر له إلا إليه، فإنه ليس شيئاً زائداً عليه، ما هو عنه بمعزل، وما هو له بمنزل، قيل لقيس ليلى: من أنت؟ قال: ليلى؛ قيل له: من ليلى؟ قال ليلى؛ فما ظهر له عين، في هذا البين، فما بقي اغتراب، فإنه في تباب، فقد عينه، وزال كونه، العشاق، لا يتصفون بالشوق والاشتياق، الشوق إلى غائب، وما ثَمَّ غائب، من كان الحق سمعه كيف يطلبه؟ ومن كان لسانه كيف يعتبه؟! فأين تذهبون وما ثَمَّ أين؟! عند من تحقق بالعين. (ف ح ٤ / ٣٧٧)

الحب يعمي ويصم:

رأيت أخا الحب الذي ليس يقصرُ   يقـالُ له أعـمـى وإن كان يبصر
ويخبط كالعشواء في حالك الدجى   سواء عليـه السهـل والمتـوعـر

اعلم أن كل حب لا يحكم على صاحبه، بحيث يصمه عن كل مسموع، سوى ما يسمع من كلام محبوبه، ويعميه عن كل منظور سوى وجه محبوبه، ويخرسه عن كل كلام إلا عن ذكر محبوبه، وذكر ما يحب محبوبه، ويختم على قلبه فلا يدخل فيه سوى محبوبه، ويرمي قفله على خزانة خياله فلا يتخيل سوى صورة محبوبه، إما عن رؤية متقدمة، وإما عن وصف ينشيء منه الخيال صورة، فيكون كما قيل:

خيالـك في عيني وذكرك في فمي ... ومثـواك في قلبي فأين تغـيـب

فبه يسمع وله يسمع، وبه يبصر وله يبصر، وبه يتكلم وله يتكلم، وإلا فليس بحب، كما أن الحب يعمي، فلا تقع عين المحب على ما يخاف منه، مما يحول بينه وبين مطلوبه، ويصم عن سماع ما يتخوف به كل طالب من طريق مطلوبه، فالصادق في حبه، لا يرهبنه ما يرى من الشـدائد، فإن الصدق في الشوق يهون الشدائد والأمور الصعاب، مما يجده المحب من الشوق إلى المحبوب، لهذا قلنا: , إن الحب يورث الشجاعة.

(مسامرات ح ٢ ـ ف ح ٢ / ٣٢٥ ـ ذخائر الأعلاق)

المحبة تورث الشجاعة:

المحب يرمي بنفسه من أجل محبوبه فيما يعلم وفيما لا يعلم، لا يفكر في عاقبة، ولا خير في حب يدبر بالعقل.

لذيـذ الهـوى مُرّ لدى كل جاهـل ... كما مره حلو لدى كل عاقـل
فيـارب لا تُخْلِ فؤادي من الهوى ... ولا تخلني ما عشت من عذل عاذل
تطيب لنـا الـذكرى إذا ذكرت لنا ... فعيش الفتى في البين ذكر العواذل
فما أعـذب التعـذيب ممن أحبـه ... فكيف مذاق الحب عند التواصل
يلطفـني لطفـاً وظـرفـاً ورقـة ... ويـورثني الإقـدام عنـد النـوازل
فما لي لا أهـوى الهـوى وألـذه ... وفيـه إذا أنصفت كل الفضـائـل

(ذخائر الأعلاق ـ مسامرات ح ٢)

لا خير في حب يدبر بالعقل:

كل حب يبقي في المحب عقلاً يعقل به غير محبوبه أو تعقلاً، فليس بحب خالص، وإنـما هو حديث نفس، قال بعضهم: «ولا خير في حب يدبـر بالعقـل» فالحب يذهب بالعقول، قال أبوالعباس المقراني الكساد: «الحب أملك للنفوس من العقول» وإنما قالوا ذلك لأن العقل يقيد صاحبه، والحب من أوصافه الضلال والحيرة، والحيرة تنافي العقل، فإن العقل يجمعك، والحيرة تفرقك، قال أخوة يوسف ليعقوب عليه السلام: ﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾ يريدون حيرته في حب يوسف، والحيرة تفرق ولاتجمع، ولهذا وصفت

المحبة بالبث، وهو تفرق هموم المحب في وجوه كثيرة، والمحب في حكم محبوبه، فلا تدبير له في نفسه، وإنما هو بحكم ما يعطيه ويأمره به سلطان الحب المستولي على قلبه، ومن ضلاله في حبه أنه يتخيل في كل شخص، أن محبوبه حسن عنده، وأنه يرى منه مثل ما يراه هذا المحب، وهذا من الحيرة، وعلى هذا جرى المثل: حسن في كل عين تود؟ ؛ يعني عندك أيها المحب، تتخيل أن كل من يرى محبوبك يحسن عنده كما يحسن عندك، ومن ضلالة المحب أنه يتحير في الوجوه التي يرى أنه يُحَصِّل محبوبه منها، فيقول: أفعلُ كذا لنصل بهذا الفعل إلى محبوبي، أو كذا وكذا، فلا يزال يحار في أي الوجوه يشرع، لأنه يتخيل أن وجود اللذة بمحبوبه في الحس أعظم منها في الخيال، فيحار المحب في تحصيل الوجوه التي بها يصل من خارج، ويسأل عن ذلك من يعرف أن عنده خبراً من هذا الشأن، عسى يجد عنده حيلة في ذلك، ولاسيما وقد سمع في ذلك قول القائل: «لو صح منك الهوى أرشدت للحيل» يعني فيما تصنع، حتى تتصل بالمحبوب. (ف ح ٢ / ٣٢٥، ٣٣٨)

المحبة تقتضي الجمع بين الضدين:

يقول المحب:

لو كان قلبي من نار لأحرقه ... لأن أحزانه أزكى من النار
الماء ينبع منها في محاجرها ... بالرجال لماء فاض من نار

فإن الحب يقتضي من المحب الاتصاف بالنقيضين، إذا اتفق أن يكون أحدهما محبوباً للمحبوب مما يكرهه المحب، لكون الحب لا يطلبه ولا يقتضيه، فمن أوصاف المحبة أن يجمع المحب في حبه بين الضدين، ليصح كونه على الصورة، لما فيه من الاختيار، وهذا هو الفرق بين الحب الطبيعي والروحاني، والإنسان يجمعهما وحده، والبهائم تحب ولا تجمع بين الضدين، بخلاف الإنسان، وإنما جمع الإنسان في حبه بين الضدين، لأنه على صورته ؛ وقد وصف نفسه بالضدين، وصورة جمع الحب بين الضدين، أن الحب من صفاته اللازمة له حب الاتصال بالمحبوب، ومن صفاته اللازمة حب ما يحبه المحبوب، فيحب المحبوب الهجر، فإن أحب المحب الهجر، فقد فعل ما لا تقتضيه المحبة، فإن المحبة تطلب الاتصال، وإن أحب الاتصال، فقد فعل ما لا تقتضيه المحبة، فإن المحب يحب ما يحب

محبوبه ولم يفعل، فالمحب محجوج على كل حال، وغاية الجمع بينهما، أن يحب حب المحبوب للهجر لا الهجر، ويحب الاتصال لأن الهجر ما هو عين حب المحبوب الهجر، وحب الحيوان ليس كذلك، لأنه حب طبيعي لا روحاني، فيطلب الاتصال بمن يحب خاصة، ولا يعلم أن محبوبه له حب في كذا، لا علم له بذلك، ولهذا قسمنا الحب الذي هو صفة الإنسان إلى نوعين: فيه حب طبيعي وبه يشارك البهائم، وحب روحاني وبه ينفصل ويتميز عن الحب الحيواني.

والمحب الإلهي إذا تجلت له صور التجلي، أحاطت به الأشواق ولزمته، سواء في حال البعد أو القرب، فيوصف بالشوق إلى هذه التجليات المثالية، فإن الشوق للمحبة وصف لازم، وموصوف بالصبر، لأن الحياة الدنيا ليست بمحل اللقاء، ولما كان الخطاب يشجي المحب، والرؤية تورث العشق، فإذا حيل بين المحب وبين هذه المناظر العلى التي كانت متجلية له، وهو ناظر إليها بفترة، أو وراد إلهي له حكمة بالغة، ولم يعط الصبر على ذلك، أداه هذا الفراق إلى إظهار ما كان يخفيه من رقة الشوق والهوى، كما أنه عند تجلي الجمال يذوب خوفاً من أنوار الهيبة، فإن الجمال مهوب معظم محبوب، ومع ذلك فالمحبوب طالب دوام الرؤية بحكم الاتصال، فإنه هو الذي تيمه وهيمه بنيران النظر إلى جمال المحبوب، فيزداد شوقه وزفيره في مشاهدة زيادات الحسن في المشهود، في نظر العين عند الشهود، فالمحب موصوف بالضدين.

للشوق في مضمر الأحشاء نيران ... وللمدامع في خديَّ خدّان[1]
نار تضرّم أحشائي بلوعتها ... ونار شوق تفيض الدمع من شان
فالقلب في حرق الأحشاء محترق ... وناظري غرقٌ في ماء أجفاني
فمن رأى الماء للنيران مقترناً ... تمازجا وهما في الأصل ضدان

(مسامرات ح ٢ - ف ح ٢ / ٤٣٤ - ذخائر الأعلاق)

نعوت المحبين الإلهيين رضي الله عنهم:

اعلم أن الله تعالى ميادين تسمى ميادين المحبة كلها، ثم يختص كل ميدان منها باسم

(١) الخد: الحفرة المستطيلة.

من نعوت المحبة، مثل ميدان الوجد، وميدان الشوق، وكل حال فيه جولان وحركة، فله ميدان، هذا أمر كليّ.

وأول ما أذكره من نعوت المحبين قول ذي النون المصري إذ يقول: «إن لله عباداً ملأ قلوبهم من صفاء محض محبته، وفسّح أرواحهم بالشوق إلى رؤيته، فسبحان من شوّق إليه أنفسهم، وأدنى منه فهمهم، وصفت له صدورهم، فسبحان موفقهم، ومؤنس وحشتهم، وطبيب أسقامهم «إلهي لك تواضعت أبدانهم، وإلى الزيادة منك انبسطت أيديهم، فأذقتهم من حلاوة الفهم عنـك ما طيبت به عيشهم، وأدمت به نعيمهم، ففتحت لهم أبـواب سمواتك، وأبحت لقلوبهم الجولان في ملكوتك، بل ما نسيت محبة المحبين، وعليك معول شوق المشتـاقـين، وإليك حنت قلوب العارفين، وبك أنست قلوب الصادقين، وعليك عكفت رهبة الخائفين، وبك استجارت أفئدة المقصرين، قد يئست الراحة من فتورهم، وقل طمع الغفلة فيهم، فهم لا يسكنون إلى محادثة الفكر فيما لا يعنيهم، ولا يفترون عن التعب والسهر، يناجونه بألسنتهم، ويتضرعون إليه بمسكنتهم، يسألونه العفو عن زلاتهم، والصفح عما وقع من الخطأ في أعمالهم، فهم الذين ذابت قلوبهم بفكر الأحزان، وخدموه خدمة الأبرار». (ف ح ٢ / ٣٤٩، ٣٣٨)

ولنذكر إن شاء الله طرفاً من نعوت الحب، الذي ينبغي أن يكون المحب عليها، وبها يسمى محباً، فهي كالحدود للحب، فمن ذلك أنه موصوف بأنه مقتول، تالف، سائر إليه بأسمائه، طيار، دائم السهر، كامن الغم، راغب في الخروج من الدنيا إلى لقاء محبوبه، متبرم بصحبة ما يحول بينه وبين لقاء محبوبه، كثير التأوه، يستريح إلى كلام محبوبه وذكره بتلاوة ذكره، موافق لمحاب محبوبه، خائف من ترك الحرمة في إقامة الخدمة، يستقل الكثير من نفسه في حق ربه ويستكثر القليل من حبيبه، يعانق طاعة محبوبه ويجانب مخالفته، خارج عن نفسه بالكلية، لا يطلب الدية في قتله، يصبر على الضراء التي ينفر منها الطبع لما كلفه محبوبه من تدبيره، هائم القلب، مؤثر محبوبه على كل مصحوب، محو في إثبات، قد وطأ نفسه لما يريده به محبوبه، متداخل الصفات، ما له نفس معه، كله له، يعتب نفسه بنفسه في حق محبوبه، ملتذ في دهش، جاوز الحدود بعد حفظها، غيور على محبوبه منه، يحكم حبه فيه على قدر عقله، جرحه جبار، لا يقبل حبه الزيادة بإحسان المحبوب ولا النقص بجفائه، ناس

حظه وحظ محبوبه، غير مطلوب بالآداب، مخلوع النعوت مجهول الأسماء، كأنه سالٍ وليس بسال، لا يفرق بين الوصل والهجر، هيمان متيم في إدلال، ذو تشويش، خارج عن الوزن، يقول عن نفسه إنه عين محبوبه، مصطلم مجهود، لا يقول لمحبوبه: لم فعلت كذا؟ وقلت كذا؟ مهتوك الستر، سره علانية، فضيحة الدهر لا يعرف الكتمان، لا يعلم أنه محب، كثير الشوق ولا يدري إلى من؟ عظيم الوجد ولا يدري فيمن؟ لا يتميز له محبوب، مسرور محزون، موصوف بالضدين، مقامه الخرس، حاله يترجم عنه، لا يحب العوض، سكران لا يصحو، مراقب متحر لمراضيه، مُؤَثِّر في المحبوب الرحمة به والشفقة لما يعطيه شاهد حاله، ذو أشجان، كلما فرغ نصب، لا يعرف التعب، روحه عطية وبدنه مطية، لا يعلم شيئاً سوى ما في نفس محبوبه، قرير العين، لا يتكلم إلا بكلامه.

المحبون هم المسمون بحملة القرآن، لما كان المحبون جامعين جميع الصفات، كانوا عين القرآن، كما قالت عائشة وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» لم تجب بغير هذا، وسئل ذو النون عن حملة القرآن من هم فقال: «هم الذين أمطرت عليهم سحاب الأشجان، وأنصبوا الركب والأبدان، وتسربلوا الخوف والأحزان، وشربوا بكأس اليقين، وراضوا أنفسهم رياضة الموقنين، فكان قرة أعينهم فيما قل وزجى، وبلغ وكفى، وستر ووارى، كحلوا أبصارهم بالسهر، وغضوها عن النظر، وألزموها الصبر، وأشعروها الفكر، فقاموا ليلهم أرقاً، واستهلت آماقهم نسقاً، فصحبوا القرآن بأبدان ناحلة، وشفاه ذابلة، ودموع زائلة، وزفرات قاتلة، فحال بينهم وبين نعيم المتنعمين، وغاية آمال الراغبين، فاضت عبراتهم من وعيده، وشابت ذوائبهم من تحذيره، فكأنَّ زفير النار تحت أقدامهم، وكأنَّ وعيده نصب قلوبهم».

وإليك تفصيل ما ذكرناه وأوجزناه، مع رد بعض هذه النعوت إلى الحقيقة الإلهية التي تستند إليها. (ف ح ٢ / ٣٤٥)

المحب مقتول:

وذلك لأنه مركب من طبيعة وروح.

والروح نور والطبيعة ظلمة　　　وكلاهما في عينه ضدان

والضدان متنافران، والمتنافران متنازعان، كل واحد يطلب الحكم له، وأن يرجع

الملك إليه، والمحب لا يخلو إما أن تغلب الطبيعة عليه، فيكون مظلم الهيكل، فيحب الحق في الخلق، فيدرج النور في الظلمة، اعتماداً على الأصل في قوله: ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾، والنهار نور، فعلم أنهما متجاوران، وإن كانا ضدين: وأن أحدهما يجوز أن يكون مبطوناً في الآخر، فما يضرني أن أحب الحق في الخلق، لأجمع بين الأمرين، وأما إن غلب عليه الروح، فيكون منور الهيكل، فيحب الخلق في الحق لقوله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه» فأحبه في النعم عن أمره، فمشهوده الحق، ومهما وقعت الغيرة بين الضدين، ورأى كل ضد أن مطلوبه ربما يتخلص لضده، يقول: «اقتله حتى لا يظفر به ضدي دوني» فإن قتلته الطبيعة مات وهو محب للأكوان، وإن قتله الروح كان شهيداً حياً عند ربه يرزق، فهو مقتول بكل حال، كل محب في العالم هكذا، وإن كان لا يشعر بذلك.

حدَّث الشيخ أبونا ... عن أبيه عن قتاده
عن عطاء بن يسار ... عن سعيد بن عباده
أن من مات محباً ... فله أجر الشهاده
ثم قد جاء بأخرى ... مثل هذا وزياده
عن فضيل بن عياض ... وهو من أهل الزياده
أن من مات خلياً ... كانت النار مهاده

قال المحب:

محب بكت عيناه من حب قاتل ... فياقاتلاً يبكي عليه قتيلُ
خليلي جفاني كان روحي لروحه ... خليلاً وهل يجفو الخليلَ خليلُ

(ف ح ٢ / ٣٥٠ ـ ديوان / ٤١٩ ـ مسامرات ح ٢)

المحب تالف:

وذلك أنه خلقه الله من اسمه الظاهر والباطن، فجعله عالم غيب وشهادة، وخلق له عقلاً يفرق به بين حكم الاسمين، لإقامة الوزن بين العالمين في ذاته، ثم تجلى له في اسمه ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فحيره، فلم يعطه هذا التجلي إقامة الوزن ولا سيما وقد قال له: ﴿ وهو السميع البصير ﴾، فتلف من حيث لم ير حالاً توجب العدل وإقامة الوزن، فخرج عن حد التكليف، إذ لا يكلف إلا عاقل لما تقيد بعقله، فهذا نعت المحب بأنه تالف.

(ف ح ٢ / ٣٥٠)

المحب سائر إلى محبوبه بأسمائه:

وذلك أنه تجلى له في أسماء الكون، وتجلى له في أسمائه الحسنى. فتخيل في تجليه بأسماء الكون، أنه نزول من الحق في حقه، ولم يك ذلك من أفقه، فلما تخلق بأسمائه الحسنى. غلبه ما جرت عليه طريقة أهل الله من التخلق، وهو يتخيل أن أسماء الكون خلقت له لا لله، وأن منزلة الحق فيها بمنزلة العبد في أسمائه الحسنى، فقال: لا أدخل عليه إلا بأسمائي. وإذا خرجت إلى خلقه أخرج إليهم بأسمائه الحسنى تخلقاً، فلما دخل عليه بما يظن أنها أسماؤه، وهي أسماء الكون عنده، رأى ما رأته الأنبياء من الآيات، في إسرائها ومعارجها في الآفاق وفي أنفسهم. فرأى أن الكل أسماؤه تعالى، وأن العبد لا اسم له، حتى أن اسم العبد ليس له، وأنه متخلق به كسائر الأسماء الحسنى، فعلم أن السير إليه والدخول عليه والحضور عنده ليس إلا بأسمائه، وأن أسماء الكون أسماؤه، فاستدرك الغلط بعد ما فرط ما فرط، فجبر له هذا الشهود، ما فاته حين فرق بين العابد[1] والمعبود، وهذا مجلى عزيز في منصة عظمى. كانت غاية أبي يزيد البسطامي دونها، فإن غايته ما قاله عن نفسه: «تقرب إليَّ بما ليس لي» فهذا كان حظه من ربه، ورآه غاية، وكذلك هو، فإنه غايته لا الغاية، وهذه طريقة أخرى ما رأيتها لأحد من الأولياء ذوقاً، إلا للأنبياء والرسل خاصة، من هذا المجلى وصفوه سبحانه بما يسمى في علم الرسوم صفات التشبيه، فيتخيلون أن الحق وصف نفسه بصفات الخلق، فتأولوا ذلك، وهذا المشهد يعطي أن كل اسم للكون فأصله للحق حقيقة، وهو للخلق لفظاً دون معنى، وهو به متخلق. (ف ح ٢ / ٣٥٠)

المحب طيار

نعت المحب بأنه طيار علم صحيح ما عليه غبار

هذا بيت غير مقصود، هو ما ذكرناه من أسماء الكون، كان يتخيل أن تلك الأسماء وكره، فلما تبين له أنه في غير وكره ظهر، فطار عن كونه وكره، وحلق في جو كونه أسماء حقه، فهو في كل نفس يطير منه إلى نفس آخر، لأن عين الأسماء كلها لمن هو كل يوم في شأن، فما من يوم إلا والمحب يطير فيه من شأن إلى شأن، هذا يعطيه الشهود.

(ف ح ٢ / ٣٥١)

(١) راجع كتابنا ترجمة حياة الشيخ «كل الاسماء والصفات لله تعالى بالأصالة»

المحب دائم السهر:

لما رأى أن المحبوب لا تأخذه سنة ولا نوم، علم أن ذلك من مقام حبه لحفظ العالم، ودعاه إلى هذا النظر، كون الحق يتجلى في الصور، وللصور أحكام، ومن أحكام بعض الصور النوم، ورآه في مثل هذه الصورة لا تأخذه سنة ولا نوم، من حيث هذه الصورة، فعلم أن ذلك من مقام حبه لحفظ العالم، وإذا كان المحب جليس محبوبه، ومحبوبه بهذه الصفة، فالنوم عليه حرام، فالمحب يقول مع الفراق: «إن النوم عليه حرام» فكيف مع الشهود والمجالسة، قال بعضهم في سهر الفراق.

النوم بعدكمُ عليَّ حرام مَنْ فارق الأحبابَ كيف ينام

فالنوم مع المشاهدة أبعد وأبعد[1]. (ف ح ٢ / ٣٥١)

المحب كامن الغم:

أي غمه مستور لا ظهور له، فسبب ذلك قوله تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ ثم يرى في شهوده أنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه تعالى، إذ هو محركها بما تتحرك فيه، ويرى في شهوده ما يقابل الكون به خالقه من سوء الأدب، وما لا ينبغي أن يوصف به. مما مدلوله العدم، فيريد أن يتكلم ويبدي ما في نفسه من الغيرة التي تقتضيها المحبة، ثم يرى أن ذلك بإذنه، لأنه ممن يرى الله قبل الأشياء، مقام أبي بكر، فيسكن، ولا يتمكن له أن يظهر غمه، لأن الحب حكم عليه، بأن ذلك الذي يعامل به المحبوب لا يليق به، ويرى أنه سلط خلقه عليه بما أنطقهم به وما عذرهم، وأرسل الحجاب دونهم، فكمن غم هذا المحب في الدنيا، فإنه في الآخرة لا غم له، ولهذا يطلب الخروج من الدنيا. (ف ح ٢ / ٣٥١)

---

(١) أحب الله قوماً فاستقاموا على طرق الوداد فلم يناموا
سقاهم بالصفا من كأس ودٍّ فصاموا في محبته وقاموا

(كتاب المقدمة في التصوف/ لأبي عبد الرحمن السلمي)

وللإمام البرعي:

لو ذقت كأس الهوى العذري ما هجعت عيناك في جنح ليل جَنَّ مُظْلِمُه
ولا ثنيّتَ عنان الشوق عن طلل بالٍ عَفَتْ بيد الأنواء أرسُمُه
ما الحب إلا لقوم يعرفون به قد مارسوا الحب حتى هان معظمه
عذابه عندهم عَذْبٌ وظُلمتُه نورٌ ومَغْرَمُه بالراء مَغْنَمُه

المحب راغب في الخروج من الدنيا إلى لقاء محبوبه:

وهـذا لما ذكـرنـاه قبل، لأن النفس من حقيقتها طلب الاستراحة، والغم تعب، وكمونه أتعب، والدنيا محل الغموم، والذي يختص به هذا النعت هو رغبة المحب في لقاء محبوبه، هو لقاء خاص عيَّنه الحق، إذ هو المشهود في كل حال، ولكن لما عَيَّنَ ما شاء من المواطن، وجعله محلاً للقاء مخصوص، رغبنا فيه، ولا نناله إلا بالخروج من الدار التي تنافي هذا اللقاء، وهي الدار الدنيا. خُيِّرَ النبي ﷺ بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى الأخرى فقال: «الرفيق الأعلى» فإنه في حال الدنيا في مرافقةٍ أدنى، وورد في الخبر أنه: «من أحب لقاء الله» يعني بالموت «أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» فلقيه في الموت بما يكرهه، وهو أن حجبه عنه، وتجلى لمن أحب لقاءه من عباده، ولقاء الحق بالموت له طعم لا يكون في لقائه بالحياة الدنيا، فنسبة لقائنا له بالموت نسبة قوله «سنفرغ لكم أيها الثقلان» والموت فينا فراغ لأرواحنا من تدبير أجسامها، فأراد وأحبَّ هذا المحب أن يحصِّل ذلك ذوقاً، ولا يكون ذلك إلا بالخروج من دار الدنيا بالموت لا بالحال، وهو أن يفارق هذا الهيكل الذي وقعت له به هذه الألفة، من حين ولد وظهر به، بل كان السبب في ظهوره، ففرق الحق بينه وبين هذا الجسم لما ثبت من العلاقة بينهما، وهو من حال الغيرة الإلهية على عبيده لحبـه لهم، فلا يريد أن يكون بينهم وبين غيره علاقة، فخلق الموت وابتلاهم به تمحيصاً لدعـواهم في محبته، فإذا انقضى حكمه، ذبحه يحيى عليه السلام بين الجنة والنار، فلا يموت أحد من أهل الدارين، فهذا سبب رغبتهم في الخروج من الدنيا إلى لقاء المحبوب، لأن الغيرة نصب، ويحيى الموت بالذبح حياة خاصة كما هو حكمنا بعد الموت، فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فترى المحب يدعو بالهلاك على عالم التقييد والتركيب، الذي يمسكه عن اللحـوق بالمشهد العالي الدائم للعالم البسيط، الذي هو للأرواح، فإن المحب مقيد بالجهال، وغائب عن وجه الحق في كل شيء، في ظلمة ونور، ومركب وبسيط، ولطيف وكثيف، فلو تحقق ذلك ما أحس بألم الفراق، ولا هيجته الغيرة، كما أن المحب يريد أن ينطلق من هذا البدن المقيِّد له من معارجه، حيث يريد الحركة، فإنه سمع الداعي يقول: لن يرى ربه أحد حتى يموت، فيرى في هذا العالم الخسيس كل الحجاب، والظلمة وطمس الأنـوار والغمـة، ولكنه يعزي نفسه بزمن الفناء والغيبة، في أوقات الأحوال والواردات

الإلهية، مع بقاء طلب الرحلة بالكلية، فأكثر نفوس العارفين تطلب التجرد من هذا الهيكل، والالتحاق بعالمها البسيط بالموت، لتلحق بالأرواح العلى ومن سبقتها من أرواح الأنبياء، للتفَسُّح في المجلى الأبهى، ولكن عند المحققين إنما تطلب التجرد عن هذا الهيكل حالاً وفناء، لا انفصال علاقة، لما لها بوجوده من المزيد فيما هي بسبيله، فهي متحققة أن الأجل المحتوم ما حان، ولا يقع الانفصال قبل الأوان، ولهذا ما طلب الرسول ﷺ الرحلة إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن خُيِّر، وقد علم ﷺ أنه لا يخير إلا بانقضاء الأجل.

(ف ح ٢ / ٣٥١ - ذخائر الأعلاق)

المحب متبرم بصحبة ما يحول بينه وبين لقاء محبوبه:

هذا النعت أعم من الأول في المحب، فإن العارف ما يحول بينه وبين لقاء محبوبه إلا العدم، وما هو ثَمَّ، وليس الوجود سواه، فهو شاهده في كل عين تراه، فليس بين المحب والمحبوب إلا حجاب الخلق، فيعلم أن ثَمَّ خالقاً ومخلوقاً، فلم يقدر على رفع صحبة هذه الحقيقة فإنها عينه، والشيء لا يرتفع عن نفسه، ونفسه تحول بينه وبين لقاء محبوبه، فهو متبرم بنفسه لكونه مخلوقاً، وصحبته لنفسه ذاتية لا ترتفع أبداً، فلا يزال متبرماً أبداً، فلهذا يتبرم، لأنه يتخيل أنه إذا فارق هذا الهيكل فارق التركيب، فيرجع بسيطاً لا ثاني له، فينفرد بأحديته، فيضربها في أحدية الحق وهو اللقاء، فيكون الحق الخارج بعد الضرب لا هو، فهذا يجعله يتبرم، والعارف المحب لا يتبرم من هذا، لمعرفته بالأمر على ما هو عليه.

(ف ح ٢ / ٣٥١)

المحب كثير التأوه:

وهو قوله: ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾ وصِفَ الحقُّ من كونه اسمه الرحمن أن له نَفَساً ينفس به عن عباده، وفي ذلك النفس ظهر العالم، ولذلك جعل تكوين العالم بقول «كن»، والحرف مقطع الهواء، فالهواء يولده، ما هو هو، لأنه لا يظهر الحرف إلا عند انقطاع الهواء، والهواء نفس، ولهذا الهواء في العناصر هو نَفَس الطبيعة، ولهذا يقبل الحروف، وهو ما يظهر فيه من الأصوات عند الهبوب، والظاهر من تلك الأصوات حرف الهاء والهمزة، وهما أقصى المخارج - مخارج الحروف - فإنهما مما يلي القلب، وهما أول حروف الحلق، بل حروف الصدر، فهما أول حرف يصوره المتنفس، وذلك هو التأوه لقربه من

القلب، الذي هو محل خروج النفس وانبعاثه، فيظهر عنه جميع الحروف، كما يظهر العالم بالتكوين عن قول «كن»، فإذا تجلى الحق من قلب المحب، ونظرت إليه عين البصيرة ـ لأن القلب وسع الحق ـ ورأى ما يقع من الذم على هذه النشأة الطبيعية، وهي تحتوي على هذه الأسرار الإلهية، وأنها من نفس الرحمن ظهرت في الكون، فذُمت وجُهِل قدرُها، فكثر منه التأوه لهذه القادحة، لما يرى في ذلك من الوضوح والجلاء، والناس في عماية عن ذلك لا يبصرون، فيتأوه غيرة على الله، وشفقة على المحجوبين، لكون النبي ﷺ جعل كمال الإيمان في المؤمن أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، فلهذا يتأسف على من حرمه الله هذا الشهود، ويتأوه لحبه في محبوبه، من أجل ما يراه من عمى الخلق عنه، ومن شأن المحب الشفقة على المحبوب، لأن الحب يعطي ذلك. (ف ح ٢ / ٣٥٢)

المحب يستريح إلى كلام محبوبه وذكره بتلاوة ذكره:

قال تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ فسمى كلامه ذكراً، فاعلم أن أصل وجود الكون لم يكن عن صفة إلهية إلا عن صفة الكلام خاصة، فإن الكون لم يعلم منه إلا كلامه، وهو الذي سمع فالتذ في سماعه، فلم يتمكن له إلا أن يكون، ولهذا السماع مجبول على الحركة والاضطراب والنقلة في السامعين، لأن السامع عندما سمع قول «كن» انتقل وتحرك من حال العدم إلى حال الوجود، فتكوَّن، فمن هنا أصل حركة أهل السماع، وهم أصحاب وجد، ولا يلزم فيمن؟ فإن الوجد لذاته يقتضي ما يقتضي، وإنما المحبوب يختلف، فمن هناك استراح المحبون إلى كلام المحبوب وذكره، والقرآن كلامه وهو ذكر، فلا يؤثرون شيئاً على تلاوته، لأنهم ينوبون فيه عنه، فكأنه المتكلم، كما قال: ﴿ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ والتالي إنما هو محمد ﷺ، فأهل القرآن هم أهل الله وخاصته، فهم الأحباب المحبون، فيا أيها المدعي حبه تعالى، ما لك تتغنى بغير كلامه وهو الذي سواك وعدلك؟! وما لك تسمع وتصغى إلى غير خطابه وهو الذي اصطفاك وفضلك؟! وما لك تلحظ غير ذاته وهو الذي قد فطرك على الصورة؟! وما لك تتعشق بغير جماله وهو الذي أنار بسريرة العشق منك السريرة؟! فمهما أراد المحب أن ينطق فباسم الحبيب، ومهما أراد أن يسمع فكلام الحبيب، وكلما أراد أن ينظر فإلى وجه الحبيب، من نظر إلى غير وجه محبوبه هلك وتلف، ومن سمع غير كلام معشوقه ندم وأسف. (ف ح ٢ / ٣٥٢ ـ تاج الرسائل)

المحب موافق لمحاب محبوبه:

هذا ما يكون إلا من نعوت المحبين لله خاصة، لكونه تعالى لا يُحَدُّ ولا يتقيد، وهو المتجلي في الاسم القريب، كما يتجلى في الاسم البعيد، فهو البعيد القريب، قال المحب: «وكل ما يفعل المحبوب محبوب» فإذا فعل البعد، كان محبوبه البعد عن المحبوب، لأنه محبوب المحبوب، فإنه أحبه لحب المحبوب لا بنفسه، ولا يحبه بحب المحبوب لا بنفسه، حتى يكون المحبوب صفة له، وإذا كان المحبوب من صفات المحب قام به، وإذا قام به فهو في غاية الوصلة، في عين البعد أوصل منه به في القرب، لأنه في القرب بصفة نفسه لا بصفة محبوبه، لأنه لا يقوم بالمحل علتان لمعلول واحد، هذا لا يصح، فما يحب القرب إلا لنفسه، كما لا يحب البعد إلا بمحبوبه، فهو في حب البعد أتم محبة منه في حب القرب، ولنا في هذا المعنى:

هوى بين الملاحة والجمال ... يقاسيه القوي من الرجال
ويضعف عنه كل ضعيف قلب ... تقلب في النعيم وفي الدلال
وتقليبي مع الهجران عندي ... ألذ من العناق مع الوصال
فإني في الوصال عُبَيْد نفسي ... وفي الهجران عبدٌ للموالي
وشغلي بالحبيب بكل وجه ... أحب إليَّ من شغلي بحالي

ففي هذا الشعر إيثار ما آثره المحبوب، ويتضمن ما أشرنا إليه في كلامنا قبله، وأما قولنا: «إن المحبوب صفة المحب» فيما ذكرناه، فهو قوله تعالى: ﴿ فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ﴾ فجعل عينه سمع العبد وبصره، فأثبت أنه صفته، فما أحب المحب البعد إلا بمحبوبه، وهذا غاية الوصلة في عين البعد، فالمحب لله من عباد الله، هو المنقطع إلى الله، المؤثر جناب الله، الساعي في محاب الله ومراضيه، والأحباب أرباب، والمحبوب خلف الباب، المحب رب دعوى، فهو صاحب بلوى، لولا دعوى المحبة ما وقع التكليف، ولولا المحبة ما طلبنا الجزاء من اللطيف، المحبوب إن شاء وصل وإن شاء هجر، فإذا ادعى محبة مُحِبِّه اختُبِر، فالمحب في الاختبار، والحبيب مصان عن الأغيار، ولهذا لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار. (ف ح ٢ / ٣٥٢، ٥٢٥ - ح ٤ / ٣٦٧)

المحب خائف من ترك الحرمة في إقامة الخدمة:

وذلك أنه لا يخاف من هذا إلا عارف متوسط، لم يبلغ التحقيق في المعرفة، إلا أنه يشعر به من غير ذوق سوى ذوق الشعور، وهو محب، والمحب مطيع لمحبوبه في جميع أوامره، وتحقيق الأمر يعطي أن الآمر عين المأمور، والمحب عين المحبوب[1]، إلا أن الظاهر يظهر بحسب ما تعطيه حقيقة المظهر، وبالمظاهر تظهر التنوعات في الظاهر، وتختلف الأحكام والأسامي، وبها يظهر الطائع والعاصي، فالذي هو في مقام الشعور، ولم يحصل في حد أن ينزل الأشياء منازلها في الظاهر، يخاف أن يصدر منه ما يناقض الحرمة في خدمته، إذ يقول: ليس إلا هو، كما يذهب إلى ذلك من يرى الأعيان عيناً واحدة، ولكن لا يعرف كيف؟ فلا يزال يسيء الأدب، لأنه أخذ ذلك عن غير ذوق، فيخاف المحب إن صدرت منه قلة حرمة بهفوة وغلط، أن يستند فيها بعد وقوعها إلى ما ذكرناه، فيحصل في قلة المبالاة بما يظهر عليه من ذلك، والمحبة تأبى إلا حرمة المحبوب، وإن كان المحب مُدِلاً بحبه لغلبة الحب عليه، وأنه يرى نفسه عين محبوبه فيقول: أنا من أهوى ومن أهوى أنا؛ فهذا سبب خوفه لا غير.
(ف ح ٢ / ٣٥٢)

إسناد بعض النعوت إلى حقائقها الإلهية

المحب يستقل الكثير من نفسه في حق ربه ويستكثر القليل من حبيبه:

وذلك أنه يفرق بين كونه محباً، لما يرى في نفسه من الانكسار والدلة والدهش والحيرة، التي هي أثر الحب في المحبين، ويرى نخوة المحبوب وتيهه ورياسته وإعجابه عليه، فيرى أنه إذا أعطاه جميع ما يملكه فهو قليل، لما أعطاه من نفسه، وأن حق محبوبه أعظم عنده من حق نفسه، بل لا يرى لنفسه حقاً، وإن كان في الحقيقة ما يسعى إلا في حق نفسه، هكذا تعطيه المحبة، كان لبعض الملوك مملوك يحبه اسمه إياس، فدخل على الملك بعض جلسائه، ورأى قدمي المملوك في حجر الملك، والملك يكبسهما، فتعجب، فقال إياس: ياهذا ما هذه أقدام إياس، هذه قلب الملك في حجره يكبسه؛ هذا معنى قولنا: إن المحب

(١) راجع كتابنا: في شرح كلمات الصوفية «هو الظاهر في المظاهر» ص (٣٤٠).

في حق نفسه يسعى، فإن له في ذلك الفعل لذة عظيمة، لا ينالها إلا بذلك الفعل، فالمحبوب ممتن عليه إذا مكنه مما تقع للمحب به لذة من المحبوب، فيرى المحب أي شيء جاء من المحبوب فهو كثير، فهو إنعام سيد على عبد، وأي شيء كان من المحب في حق المحبوب، ولو كان تلف الروح والمهجة في رضاه، لكان قليلاً، لأنه طاعة عبد لسيد محسان، وما قدروا الله حق قدره، فالمحبوب غني، فقليله كثير، والمحب فقير، فكثيره قليل، ولكن إن كان هذا نعت المحب عندهم، فهو نعت محب ناقص المعرفة، كثير الحب على عماية، لأن المحب إذا كان المخلوق، ليس له شيء يملكه، حتى يستقل أو يستكثر.

وأما إذا كان المحب الله، فإنه يستكثر القليل من عبده، وهو قوله: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ و ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾، وأما استقلاله الكثير في حق أحبابه من عباده، فإن ما عند الله ما له نهاية، ودخول ما لا نهاية له في الوجود محال، فكل ما دخل في الوجود فهو متناه، فإذا أضيف ما تناهى إلى ما لا يتناهى، ظهر كأنه قليل، أو كأنه لا شيء وإن كان كثيراً، وهنا نظر يطول. (ف ح ٢ / ٣٥٣)

المحب يعانق طاعة محبوبه ويجانب مخالفته:

قال شاعرهم:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

المحب عبد، والعبد من وقف عند أوامر سيده، وتجنب مخالفة أوامره ونواهيه، فلا يراه حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، لا يزال ماثلاً بين يديه، فإذا أمره رأى هذا المحب أنه قد امتن عليه، حيث استعمله وأمره، وأن هذا من عنايته به وإن فقد رؤيته ومشاهدته فيما شغله به، فهو في نعيم ولذة، بكونه يتصرف في مراسيم سيده وعن إذنه.

فإن كان المحب الله، فأمر المحبوب له، دعاؤه ورغبته فيما يَعِنُّ له ويحبه، ثم إنه يكره أشياء، فيدعوه بصفة النهي مثل قوله: ﴿ لا تزغ قلوبنا ﴾ ﴿ ولا تحمل علينا إصراً ﴾ ﴿ ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ فهذا سؤال بصفة نهي، فقد وقع منه الأمر والنهي لسيده، وإجابة الحق هذا العبد من حيث هو محب لهذا العبد، كالطاعة من العبد لأوامر سيده ومجانبة مخالفته. (ف ح ٢ / ٣٥٣)

المحب خارج عن نفسه بالكلية:

اعلم أن نفس الشخص الذي يتميز به عن كثير من المخلوقات إنما هو إرادته، فإذا ترك إرادته لما يريد به محبوبه، فقد خرج عن نفسه بالكلية، فلا تصرف له، فإذا أراد به محبوبه أمراً ما، وعلم هذا المحب ما يريده محبوبه منه أو به، سارع أو تهيأ لقبول ذلك، ورأى أن ذلك التهيؤ والمسارعة من سلطنة الحب الذي تحكّم فيه، فلم ير المحبوب في محبه من ينازعه فيما يريده به أو منه، لأنه خرج له عن نفسه بالكلية، فلا إرادة له معه، ولكن مع وجود نفسه وطلبه الاتصال به، وإن لم يكن كذلك، فهو في مرتبة الجهاد الذي لا إرادة له، فما له لذة إلا اللذة التي متعلقها التذاذ محبوبه بما يراه منه في قبوله.

المحب الله ـ أوحى إلى موسى: ﴿ ياابن آدم خلقت الأشياء من أجلك ﴾. يعني الدنيا والآخرة، لأنه العين المقصودة[1]، وهو رأس الأحباء محمد ﷺ، فالكل في تسخير هذه النشأة الإنسانية، الأفلاك وما تحتوي عليه، والكواكب وما في سيرها، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة، فما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، حتى نهاية الأمر، وهو التجلي الإلهي يوم الزور الأعظم، فهذا معنى خروج المحب عن نفسه بالكلية في كل ما يمكن أن يحتاج إليه المحبوب، وما لا حاجة للمحبوب به ولا يعود عليه منه لذة وابتهاج، فلا يدخل تحت هذا الباب. (ف ح ٢ / ٣٥٤)

المحب لا يطلب الدية في قتله:

لأنا وصفناه أولاً بأنه مقتول، قتل المحب شهادة، فقتله حياته، والحي لا دية فيه، إنما يودى القتيل الذي يموت، فله شرعت الدية.

لله قوم وجود الحق عينهم ... هم الأحياء إن عاشوا وإن ماتوا
هم الأعزاء لا يدرون أنهم ... هم ولا ما هم إلا إذا ماتوا
لله درهم من سادة سلفوا ... وخلفونا على الآثار إذ ماتوا
لا يأخذ القوم نوم لا ولا سنة ... ولا يؤدهم حفظ ولو ماتوا
رأيتهم وسواد الليل يسترهم ... عن العيون قياماً كلما ماتوا

(١) أي هو ﷺ المقصود بقوله تعالى: ﴿يا ابن آدم﴾.

فكيف بالشمس لو أبدت محاسنهم أقسمتَ بالله إن القــوم ما ماتــوا
وكنتَ تصــدق أن الله أخـبرنــا عن مثـلهـم أنهم والله ما ماتــوا
أحياء لم يعـرفـوا موتـاً وما قتلوا في معـرك وذووا رزق وقـد ماتوا
فلو تراهـم سكــارى في محاربهـم لقـلت إنهم الأحيــا وإن ماتــوا
الله كرمــهــم الله شرفــهــم الله يحيــيــهــم به إذا ماتــوا
لقــد رأيتهم كشفــاً وقـد بعثـوا من بعد ما قبروا من بعد ما ماتوا

المحب الله ـ كون العبد محبوباً إرادته نافذة، لا إرادة للمحب تنازع إرادته، المقتول لا إرادة له، ومن كان بإرادة محبوبه فلا إرادة له، وإن كان مريداً، ولا دية له لأن الحي لا دية فيه، والحياة الذاتية له، وهو حب الفرائض، إذا أداها أحبه الله، ففي النوافل يكون سمع العبد وبصره، وفي الفرائض يكون العبد سمع الحق وبصره، ولهذا ثبت العالم، فإن الله لا ينظر إلى العالم إلا ببصر هذا العبد، فلا يذهب العالم للمناسبة، فلو نظر إلى العالم ببصره لاحترق العالم بسبحات وجهه، فنظر الحق العالم ببصر الكامل المخلوق على الصورة، هو عين الحجاب الذي بين العالم وبين السبحات المحرقة.

(ف ح ٢ / ٣٥٤ ـ ح ٤ / ٣٩٥ ـ ح ٢ / ٣٥٤)

المحب يصبر على الضراء التي ينفر منها الطبع لما كلفه محبوبه من تدبيره:

الإنسان مجموع الطبع والنور، فالطبع يطلبه والنور يطلبه، وكُلِّف النور أن يغتبن ويترك كثيراً مما ينبغي له وتطلبه حقيقته، لما يطلبه الطبع من المصالح، وأُمِرَ النور الذي هو الروح أن يوفيه حقه، وهو قوله ﷺ لمن قال له: «من أبرّ» قال: «أمك» ثلاث مرات، ثم قال له في الرابعة «ثم أباك» فرجح بر الأم على بر الأب، والطبيعة الأم، وهو قوله ﷺ: «إن لنفسك عليك حقاً» وهي النفس الحيوانية «ولعينك عليك حقاً» فهذا كله من حقوق الأم التي هي طبيعة الإنسان، وأبوه هو الروح الإلهي وهو النور، فإذا ترك أموراً كثيرة من محابه من حيث نوريته، فإنه يتصف بأنه مضرور، وهو مأمور بالصبر، فهذا معنى يصبر على الضراء، وإن كانت حقيقته تنفر من ذلك، ولكن أمر الله أوجب، ثم قال له في صبره: «واصبر وما صبرك إلا بالله» فإن الله تسمى بالاسم الصبور، فكأنه قال له: أنا على عزة جلالي، قد وصفت نفسي بأني أوذى، وأني أحلم وأصبر، وتسميت بالصبور، وأنا غير مأمور

ولا محجور عليّ، فأدخلت نفسي تحت محاب خلقي، وتركت ما ينبغي لي لما ينبغي لخلقي، إيثاراً لهم ورحمة مني بهم، فأنت أحق بأن تصبر على الضراء بي، أي بسبب أمري. وبسبب كوني صبوراً على أذى خلقي، حين وصفوني بما لا يقتضيه جلالي. وهذا من كون الله محباً في هذا المجلى، وأما كونه كذلك لما كلفه محبوبه من تدبير نشأته الطبيعية، فإذا كان المحبوب الخلق والمحب الحق، فصورة التكليف ما يطلبه العبد من سيده ـ إذا عرف أنه محبوب لسيده ـ من تدبير مصالحه، بشرط الموافقة لأغراضه ومحابه، فيفعل الحق معه ذلك، فهذا هو ذلك المعنى الذي نعت به المحب. (ف ح ٢ / ٣٥٤)

المحب هائم القلب:

قال المحب:

ولي فؤاد إذا طال العذاب به هام اشتياقاً إلى لقيا مُعَذِّبِه
يفديك صَبٌّ لو يكون له أعز من نفسه شيئاً فداك به

لما كان القلب سمي بذلك لكثرة تصرفاته وتقليبه، كثرت وجوهه وتوجهاته، وهذه صفة الهائم. ولاسيما إذا كان الحق يظهر له في كل وجه يتوجه إليه، وفي كل مصرف يتصرف فيه، فإنه ناظر إلى عين محبوبه في كل وجه، وكثرة الوجوه في الأمر الواحد، تؤدي إلى التردد أيها يفعل؟ وكلها رضى المحبوب، فنحن لا نعرف الأرضى، وهو يعرف الأرضى في حقنا، غير أنا نعرف الأرضى ما بين النوافل والفرائض، فنقول الفرائض أرضى، ولكن إذا اجتمعت بحكم التخيير كالكفارة التي فيها التخيير، فلا يُعرف الأرضى إلا بتعريف مجدد، وكذلك الأرضى في النوافل لا يعرف إلا بتوقيف، والنوافل كثيرة، وما منها إلا مرضي من وجه وأرضى من وجه، فلابد من تعريف جديد، ففي مثل هذا يكون المحب هائم القلب، أي حائراً في الوجوه التي يريد أن يتقلب فيها.

المحب الله ـ ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ «ما ترددت في شي أنا فاعله».

(مسامرات ح ٢ ـ ف ح ٢ / ٣٥٤)

المحب مؤثر محبوبه على كل مصحوب:

لما كان العالم كله، كل جزء منه عنده أمانة للإنسان، وقد كُلِّف بأداء الأمانة، وأماناته كثيرة، ولأدائها أوقات مخصوصة، له في كل وقت أمانة، منها ما نبه عليه أبوطالب المكي من

أن الفلك يجري بأنفاس الإنسان، بل بنفس كل متنفس. والمقصود الإنسان بالذكر خاصة، لأنه بانتقاله ينتقل الملك ويتبعه حيث كان، فلا يزال العالم يصحبه الإنسان لهذه العلة، ثم إن الإنسان مفتقر لهذه الأمانات التي عند العالم، ومع افتقاره إليها، فإن المحبين من رجال الله العارفين شغلوا نفوسهم بما أمرهم به محبوبهم، فهم ناظرون إليه حباً وهيماناً، قد تيمهم بحبه، وهيمهم بين بعده وقربه، فمن هنا نعتوا بأنهم آثروه على كل مصحوب، لأنه صاحبهم لقوله تعالى: ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ وكل من في العالم يصحبه أيضاً لأجل الأمانة التي بيده، فيؤثر الإنسان ـ لمحبته لله ـ جناب الله على كل مصحوب، قيل لسهل: «ما القوت؟» قال: «الله» قيل له: «ما نريد إلا ما تقع به الحياة» قال: «الله» فلم ير إلا الله، فلما ألحوا عليه وقالوا له: «إنما نريد ما به عمارة هذا الجسم»، فلما رآهم ما فهموا عنه، عدل إلى جواب آخر فقال: «دع الديار إلى بانيها، إن شاء عمرها وإن شاء خربها» يقول: ليس من شأن اللطيفة الإنسانية صحبة هذا الهيكل الخاص، ولابد أن تشتغل هي بما كلفها المحبوب، الذي هو عين حياتها ووجودها، وأي بيت أسكنها فيه سكنته، هذا إن كان يقول بعدم التجريد عن النشأة الطبيعية، كما نقول وكما أعطاه الكشف، وإن كان يقول بالتجريد عن الطبيعة وارتفاع العلاقة، فهو على كل حال، ممن يؤثر الله على كل مصحوب.

المحب الله ـ آثر الحق الإنسان من كونه محبوبه على جميع العالم، فأعطاه الصورة الكاملة، ولم يعطها لأحد من أصناف العالم، وإن كان موصوفاً بالطاعة والتسبيح لله، فقد آثره على كل مصحوب، قال تعالى: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ أعطاه جميع الأسماء الإلهية كلها، فسبَّحه بكل اسم إلهيٍّ له بالكون تعلق، ومجَّده وعظَّمه، وما ثَمَّ في المخلوقات أشرف من المَلَك، ومع هذا فقد فضل عليه الإنسان الكامل بعلم الأسماء، فهو في هذه الحضرة وهذا المقام أفضل، فهذا حد إيثار الحق له. (ف ح ٢ / ٣٥٥)

المحب محو في إثبات:

أما إثباته فظهر في تكليفه، ومن العبادات الفعلية في صلاته، فقسمها بينه وبين عبده فأثبته، وأما محوه في هذا الإثبات فقوله: ﴿ والله خلقكم وما تعلمون ﴾ وقوله: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ وقوله: ﴿ إن الأمر كله لله ﴾ وقوله: ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ وقوله: ﴿ مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ فهذا في غاية البيان من كتاب الله، محو في

إثبات، فالمحب ما له تصرف إلا فيما يُصرَّف فيه، قد حيره حبه، الآن يريد سوى ما يريده به، والحقيقة في نفس الأمر تأبى إلا ذلك، وكل ما يجري منه فهو خلق الله، وهو مفعول به لا فاعل، فهو محل جريان الأمور عليه، فهو محو في إثبات.

المحب الله - لاتقع العين إلا على فعل العبد، فهذا محو الحق، ولا يعطى الدليل العقلي والكشف إلا وجود الحق، لا وجود العبد ولا الكون، فهذا إثبات الحق فهو محو في عالم الشهادة، إثبات في حضرة الشهود. (ف ح ٢ / ٣٥٥)

المحب قد وطّأ نفسه لما يريده به محبوبه :

لما حال الحب بين المحب وبين رؤية الأسباب، ولم يبق له نظر إلا إلى جناب محبوبه تعالى، جهل ما يحتاج العالم إليه فيه، ولابد له في نفس الأمر أن يؤدي إليه ما يطلبه به من حقوقه، كما قال ﷺ: «ولزورك عليك حقاً» فأتى بما يدخل فيه جميع العالم، وهو الزيارة، وهذا من جوامع كلمه، فوطأ هذا المحب نفسه لما يرُيده به محبوبه، فعلم ما للعالم من الحقوق عليه، من جهة ما أراده به محبوبه من تصريفه فيما صرفه، والحق حكيم، فلا يحركه إلا في العمل الخاص، وأداء الحق الخاص، فيما يطلبه به مَنْ كان من العالم في ذلك الوقت، فيعرف العَالَم من الله، فيربح شهود الحق، وهو قول الصديق: «ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله» فشاهد عين العالم في شهود الله.

المحب الله - لما كان في نفس الأمر، أن الحق سبحانه لا تقبل ذاته التصريف فيها، وجعل في نفوس العالم الافتقار إليه، فيما فيه بقاؤهم ومصالحهم وتمشية أغراضهم، فكأنه قد وطّأ نفسه لجميع ما يريدونه منه وما يريدونه به، ولهذا إذا سألوه فيما لم يجيء وقته قال لهم: ﴿ سنفرغ لكم ﴾ فهو الفاعل في كل حال، وليست ذاته بمحل لظهور الآثار، فقد وقعت التوطئة، أنه مهيأ لما يحتاج إليه الكون لا لنفسه، وله في كل ما أوجده تسبيح هو غذاء ذلك الموجود، فلهذا أخبر سبحانه أنه ما من شيء إلا وهو يسبح بحمده.

(ف ح ٢ / ٣٥٦)

المحب متداخل الصفات[1] :

وذلك أن المحب يطلب الاتصال بالمحبوب، ويطلب اتباع إرادة المحبوب، وقد يريد المحبوب ما يناقض الاتصال، فقد تداخلت صفات المحب في مثل هذا.

---

(١) راجع المحبة تقتضي الجمع بين الضدين ص ١٢٣.

المحب الله ـ هو الأول من عين ما هو آخر، فدخلت آخريته على أوليته، ودخلت أوليته على آخريته، وما ثَمَّ إلا عينه، فأوليته عينه وآخريته عبده، وهو محبوبه، فقد تداخلت صفاته في صفات محبوبه، فإن قلت عبد لم تخلص، وإن قلت سيد[1] لم تخلص، وأنت صادق في الأمرين، فهذا حكم التداخل. (ف ح ٢/ ٣٥٦)

المحب ما له نَفَسٌ مع محبوبه:

يقول ما هو مستريح مع محبوبه، لأنه مراقب محبوبه في كل نَفَس، يرى أين محابه فيتصرف فيها، فلا يبرح ذا عناء ببذل المجهود في رضى المحبوب، ورضاه مجهول، فلا راحة للمحب، فهذا معنى قولهم ما له نَفَسٌ، أي يستريح من التنفيس، وهو إزالة الكرب والشدة، وهذا نعت المحب الصادق في حبه.

المحب الله ـ قوله: ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ ولا يتصرف إلا في حق عباده، ولا يقصد من عباده إلا أحبابه، وينتفع الباقي بحكم التبعية، يأكلون فضلات موائدهم، فشلغه بمصالحهم دنيا وآخرة، غير أنه موصوف بأنه لا يمسه لغوب، يقول تعالى: ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ وهو قوله ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ يعني في كل نفس هو تعالى في خلق جديد في عباده، وهو قوله: ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ وقال في أهل السعادة ﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ مع كونهم في كل حال يتصرفون في حق الله لا في حق نفوسهم، ثم إن ذلك يعود عليهم، لا يقصدونه من أجل عوده عليهم، بل الحقائق تعطى ذلك، فلهذا وصف المحب بأنه لا نَفَس له مع محبوبه. (ف ح ٢ / ٣٥٦)

المحب كله لمحبوبه:

وذلك أنه مجموع، وبحكم جمعيته ظهر عينه، فآحاده لله، إذ الأحدية لله، وليس المجموع سوى هذه الآحاد، فكله لله، فإن كل واحد من المجموع إذا ضربته في الواحد

---

(١) انظر إلى دقة التعبير ووضوحه، فلم يقل: «وإن قلت إله» وهذا يفسر ما قد يجيء في بعض الكتب أو العبارات من قوله «عبدٌ ربٌ» أي «عبدٌ سيدٌ» فإن الرب من معانيه السيد.

الحق، كان الخارج من ذلك واحد الحق، فهذا معنى كله لمحبوبه، وهو واحد المجموع، لأن المجموع له أحدية، وعلى هذا يخرج.

إذا كان المحب الله ـ فالكل في حق الله مع أحديته، إنما ذلك الأسماء الإلهية وهي التسعة والتسعون، فظهرت الكثرة في الأسماء، فصح اسم الكل، وآحاد هذا الكل عين كل اسم على حده، يطلب من العبد ذلك الاسم حقيقة واحدة، يظهر سلطانه فيها، ولا تكون إلا واحدة، فنضرب الواحد في الواحد، فيظهر في الشاهد واحد العبد، وهو المحبوب، فكله لله، لأن الأسماء كلها تظهر أحكامها في العبد، والأسماء لله، فالكل للعبد المحبوب عند الله، فما في الحضرة الإلهية شيء إلا للعبد المحبوب، فإن الله بذاته غني عن العالمين، فهو غني عن الكثرة وعن الدلالة عليه. (ف ح ٢ / ٣٥٦)

المحب يعتب نفسه بنفسه في حق محبوبه:

وذلك أن المحب يرى أنه يعجز عما لمحبوبه عليه من الحقوق، التي أوجبها حبه عليه، ولا علم له بطريق الإحاطة بمحاب محبوبه، فيجهد في أنه يعمل بقدر ما علم من ذلك، ثم يقول لنفسه: لو صدقت في حبك لكشف لك عن جميع محابه، فإنك في دار التكليف وهي دار محصورة، ومحاب الحبيب فيها معينة، بخلاف الآخرة فإنك مُسَرَّحُ العين فيها، لأنها كلها محابه، فلا عتاب هناك، فلهذا عتب المحب هنا نفسه بنفسه في حق محبوبه.

المحب الله ـ وصف نفسه بالتردد في حق حبه للعبد المؤمن، إذ من حق المحبوب أن لا يعمل له المحب ما يكرهه، والمحبوب يكره الموت، والحق يكره مساءته، من حيث ما هو محبوب له، فهذا معنى العتب، ولابد له من الموت لما سبق من العلم، ولكن لجهل العبد بما له في اللقاء من الخير، بخلاف المحبين، فإنهم يحبون الموت لا للراحة، بل للالتقاء مع المحبوب، ومن المحبين من يغلب عليه رضى المحبوب، ويرى أنه لا يحصل ذلك على حالة يعرف بها قدر حب المحب إلا بوجود التحجير، وتميز ما يرضي مما يسخط، ولا يكون ذلك إلا في دار التكليف، وأما في الآخرة فلا تحجير، فيقع التساوي، فيرتفع تميز قدر المحب في تصرفه من غير المحب فيكره بعض المحبين الموت لهذا المعنى، وهذا لصدقهم في المحبة.

المحب الله أيضاً ـ في هذه الحقيقة وقد قضى بالموت على الجميع، وكان غرض هذه الطائفة المخصوصة ـ التي تريد التمييز ـ أن لا يرتفع عنها التحجير، ليعلم قدر محبتها لسيدها على

غيرها من الطوائف، ويأبى سبق العلم بالكائن إلا أن يكون، فهذا القدر يسمى عتباً في حق الحق، يميزه قوله تعالى: ﴿ فعال لما يريد ﴾ لا بل يميزه ﴿ ويختار ﴾ خاصة، والذي يُفهم أيضاً من قوله: ﴿ ولو شاء ﴾ فهذا وأمثاله موجب العتب، لا الإرادة ولا العلم، فإن الحكم لهما، فتفطن لما ذكرناه، فكل ذلك أسرار إلهية، غاروا عليها أصحابنا لما رأوا من عظيم قدرها، وهو كما قالوه، غير أن هذا الذي أبرزنا منها، بالنظر إلى ما عندنا من العلم بالله قشر، فهذا سبب إقدامنا على إبرازه، ولما فيه من المنفعة في حق العباد.

(ف ح ٢/ ٣٥٧)

المحب ملتذ في دهش:

الدهش سببه فجأة المحبوب، وهو المعبر عنه بالهجوم، ولما كان الحق دعا قلوب العباد إليه، وشرع لهم الطريق الموصلة المشروعة، وتعرف إليهم بالدلالات فعرفوه، وتحبب إليهم بالنعم فأحبوه، فلما تجلى لهم على غير موعد عندما دخلوا عليه ـ وهم غير عارفين بأنهم في حال دخول عليه ـ فجأهم تجليه، فعرفوه بالعلامة، فدهشوا لفجأة التجلي، والتذوا لعلمهم بالعلامة في نفوسهم أنه حبيبهم ومطلوبهم، فهذا التذاذهم في دهش.

المحب الله ـ الله وصف نفسه بالاختيار وأنه على كل شيء قدير، وأنه لو شاء فعل، وأنه لا مُكْرِه له، وهو الصادق في قوله، وما حكم به على نفسه، وهو أيضاً المُقِيت، فقد ترتبت الأمور ترتيب الحكمة، فلا معقب لحكمه، فهو في كل حال يفعل ما ينبغي كما ينبغي لما ينبغي، فِعْلَ حكيم عالم بالمراتب، فتأتيه أسئلة السائلين، وما يوافق توقيت الإجابة في عين ما سألوه فيه، وقد تقرر أنه لا مكره له، ولابد من التوقف عند هذا السؤال، لمناقضته إذا أجابه ترتيب الحكمة، فهذا المقدار يسمى دهشاً، وأما التذاذه، فإن السائل في ذلك محبوب، فهو يحب سؤاله ودعاءه، كما ورد في الخبر، أن شخصين محبوباً لله وبغيضاً، سألا الله في حاجة، فأوحى الله للمَلَك أن يقضي حاجة البغيض مسرعاً، حتى يشتغل عن سؤاله، لكونه يبغضه ويبغض صوته، ويقول للمَلَك: توقف عن حاجة فلان، فإني أحب أن أسمع صوته وسؤاله فإني أحبه؛ فهذا مقضي الحاجة على بغض، وهذا غير مقضي الحاجة مع حب وعناية، فلو كشف لهذا المحبوب هذا السر في وقت تأخر الإجابة، ما وسعه شيء

من الفرح بذلك، فالتوقف عن الإجابة كتوقف الداهش، لصدق قوله في أنه لا مكره له، والالتذاذ علمه بأنه لابدّ من وصوله إلى ما طلب وفرحه به، فسبحان العزيز الحكيم.
(ف ح ٢ / ٣٥٧)

المحب جاوز الحدود بعد حفظها:

هذا مُعَيَّنٌ في أحياء أهل بدر، فإنهم ممن جاوز الحدود بعد حفظها، فقال لهم: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم؛ وأما في غير المعينين في العموم وهم معينون في الخصوص، وقد عين الحق صفتهم، فهو ما ذكر الله سبحانه في قوله: «أذنب عبد ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، فقال في الرابعة أو الثالثة، اعمل ما شئت فقد غفرت لك» فأباح له، وأخرجه من التحجير في الدنيا، إذ كان الله لا يأمر بالفحشاء، فما عصى الله صاحب هذه الصفة، بل تصرف فيما أباحه الله له، وقد كان قبل هذه الصفة من أهل الحدود، فجاوزها بعد حفظها، فهذا أعطاه شرف العلم مع وجود عقل التكليف، بخلاف صاحب الحال، فإن حكم صاحب الحال حكم المجنون، الذي ارتفع عنه القلم، فلا يكتب لا له ولا عليه، وهذا يكتب له ولا عليه، فهذا قدر ما بين العلم والحال، فما أشرف العلم!! فالمحب إذا كان صاحب علم هو أتم من كونه صاحب حال، فالحال في هذه الدار الدنيا نقص وفي الآخرة تمام، والعلم هنا تمام وفي الآخرة تمام وأتم.

المحب الله ـ لما علم من عباده المحبين له، أنهم غير مطالبين لله ما أوجبه لهم على نفسه، جاوز الحدود بعد حفظها، فأعطاهم ما أوجبه على نفسه وهو حفظها، ثم أعطاهم بغير حساب، وهو مجاوزته الحدود، فإن الحد الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ومجاوزة الحدود الزيادة في قوله: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ وهو حفظ الحد ﴿ وزيادة ﴾ وهي ما جاوز الحد ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾. (ف ح ٢ / ٣٥٧)

المحب غيور على محبوبه منه:

وهذا أحق ما يوجد في حق من يحب الله، وهذا مقام الشبلي، أداه إلى ذلك تعظيم محبوبه في نفسه وحقارة قدره، فرأى أنه لا يليق بذلك الجناب العزيز إدلال المحبين، فإن المحبين لهم إدلال في الحضرة الإلهية، إلا المحبين الموصوفين بالغيرة، فإنه لا إدلال لهم، لما

غلب عليهم من التعظيم، فهم الموصوفون بالكتمان ـ وسببه الغيرة ـ والغيرة من نعوت المحبة، فهم لا يظهرون عند العالم بأنهم من المحبين، وهذا مقام رسول الله ﷺ، فإنه وصف نفسه بأنه أغير من سعد، بعد ما وصف سعداً بأنه غيور، فأتى ببنية المبالغة في غيرة سعد، ثم ذكر أنه ﷺ أغير من سعد، فستر محبته وما لها من الوجد فيه، بالمزاح وملاعبة الصغير، فإظهار حبه فيمن أحبه ـ من أزواجه وأولاده وأصحابه ـ هذا كله من باب الغيرة، وقوله: ﴿ إنما أنا بشر ﴾ فلم يجعل عند نفسه أنه من المحبين، فجهلته طبيعته وتخيلت أنه معها، لما رأته يمشي في حقها أو يؤثرها، ولم تعلم بأن ذلك عن أمر محبوبه إياه بذلك، فقيل: إن محمداً ﷺ يحب عائشة والحسن والحسين، وترك الخطبة يوم الجمعة ونزل إليهما، لما رآهما يعثران في أذيالهما، وصعد بهما وأتم خطبته، هذا كله من باب الغيرة على المحبوب أن تنتهك حرمته، وهذا ما ينبغي أن يكون الأمر عليه تعظيماً للجناب الأقدس أن يُعَيَّنْ، ثم لا يظهر ذلك الاحترام من الكون، فسدل ستر الغيرة في قلوب عباده المحبين.

المحب الله ـ قال ﷺ في هذا الحديث: «والله أغير مني ومن غيرته حرم الفواحش» ليفتضح المحبون في دعواهم محبته، فغار أن يدعي فيه الكاذب دعوى الصادق، ولا يكون ثَمَّ ميزان يفصل بين الدعويين، فحرم الفواحش، فمن ادعى محبته وقف عند حدوده، فتبين الصادق من الكاذب، والكل بالله قائم، فغار على محبوبه منه، فأضاف الأفعال إليه لا إلى العبد، حتى لا ينسب نقص للعبد.

فتنبه أيها الغافل، واستيقظ أيها النائم، فقد جاءك النصح بالتصريح، وما قنع بالإشارة والتلويح، هذه عين قد نظرت إلى بهجتها، وأذن أصغت إلى نغمتها، ويد عطفت فقطفت، ورجل سعت فوصلت، وقلب عشق فلحق، وعقل سار فحار، وعين مفتونة بلون، وقلب متعشق بكون، وعقل حائر في قضية عين، فلا لون انتقل، ولا كون اتحد بذات عاشقه فاتصل، ولا حاكم على وجه الحق عثر في قضية العين فحصل، فلا حبيب تدلى، ولا محب دنا، فعَبْرَة تُسْكَب، وقلب بنار الأسى يتقلب، فإن هَمَّ الحبيب بالاتصال، وجاد بالوصال، وأذن بالتجلي، فسترى أيها المحب جبالك تتصدع، وشامخك يخشع، وأمنك يفرق، وقائمك يُصْعَق، وروضك يُحْرَق، وجديدك يُخْلَق، غيرة أن يبقى عزيزاً لعزه، وآمناً لأمنه، أو قائماً لقيوميته، أو دائماً لديموميته. **(ف ح ٢ / ٣٥٨ ـ تاج الرسائل)**

المحب يحكم حبه فيه على قدر عقله :

لأن عقله قَيْده، فعقله قيّده، وما خاطب تعالى إلا العقلاء، وهم الذين تقيدوا بصفاتهم، وميزوها عن صفات خالقهم، فلما وقع التباين حصل التقييد، فكان العقل، ولهذا أدلة العقول تميز بين الحق والعبد، والخالق المخلوق، فمن وقف مع عقله في حال حبه، لم يتمكن أن يقبل من سلطان الحب إلا ما يقتضيه دليله النظري، ومن وقف مع قبول عقله لا مع نظر عقله، فقبل من الحق ما وصف به نفسه، تحكم فيه سلطان الحب بحسب ما قبله عقله من ذلك، فالعقل بين النظر والقبول، فحكم الحب في العقل الناظر والقابل ليس على السواء، فافهم فإن هنا أسراراً.

المحب الله - نسبة العقل إلينا نسبة العلم إليه، فلا يكون إلا ما سبق به علمه، كما لا يكون منا إلا قدر ما اقتضاه عقلنا، فحُكْم حبه في خلقه لا يجاوز علمه، وحكم حبنا فيه لا يجاوز عقلنا نظراً أو قبولاً، فافهم. (ف ح ٢ / ٣٥٨)

المحب مثل الدابة جرحه جُبَار :

حكي أن خطافاً راود خطافة كان يحبها في قبة لسليمان عليه السلام، وكان سليمان في القبة، فسمعه وهو يقول لها: لقد بلغ مني حبك أن لو قلت لي: اهدم هذه القبة على سليمان لفعلت، فاستدعاه سليمان عليه السلام وقال له: ما هذا الذي سمعته منك؟ فقال: يا سليمان لا تعجل عليّ، إن للمحب لساناً لا يتكلم به إلا المحبون، وأنا أحب هذه الأنثى فقلت ما سمعت، والعشاق ما عليهم من سبيل، فإنهم يتكلمون بلسان المحبة لا بلسان العلم، فضحك سليمان ورحمه ولم يعاقبه، فهذا جرح قد جعله جُبَاراً، وأهدره ولم يؤاخذه به، كذلك المحب، كل ما أعطاه إدلال الحب وصدق المودة من الخلل في ظاهر الأمر، لا يؤاخذ به المحب، فإن ذلك حكم الحب، والحب مزيل للعقل، وما يؤاخذ الله إلا العقلاء لا المحبين، فإنهم في أسره وتحت حكم سلطان الحب، البهيمة لا تقصد ضرر العباد ولا تعقل، فجرحها جبار، المحب محكوم عليه، فغيره هو القاتل، فجرحه جبار.

المحب الله - جرحه جبار وهو الصادق، وتوعد على الخطيئة بما توعد به، ثم عفا ولم يؤاخذ من غير توبة من العاصي، بل امتناناً منه وفضلاً، فأهدر ما كان له أن يأخذ به، كان

ما اجترحه المسيء جباراً، وما توعد به الحق من وقوع الانتقام به جبار، لأنه عفا عنه من غير سبب، ولله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين. (ف ح ٢ / ٣٥٨)

المحب لا يقبل حبه الزيادة بإحسان المحبوب ولا ينقص بجفائه:

هذا الحكم لا يكون إلا في محب أحبه لذاته، عن تجلٍ تجلى له في اسمه الجميل، فلا يزيد بالبر ولا ينقص بالإعراض، بخلاف حب الإحسان والنعم، فإنه يقبل الزيادة والنقص، وهو الحب المعلول، قالت المحبة: لو قطعتني إرباً إرباً لم أزدد فيك إلا حباً؛ يعني أنه لا ينقص حبنا لذلك، وهو قول المرأة المحبة، يقال إن هذا قول رابعة العدوية المشهورة، التي أزبت على الرجال حالاً ومقاماً، وقد فصَّلت وقَسَّمت رضي الله عنها، وهو أعجب الطرق في الترجمة عن الحب:

أحبك حبين حب الهوىٰ وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له فكشفك الحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وقالت الأخرى - جارية عتاب الكاتب - :

يا حبيب القلوب من لي سواكا ارحم اليوم زائراً قد أتاك
أنت سؤلي وبغيتي وسروري قد أبى القلب أن يحب سواك
يا منايا وسيدي واعتمادي طال شوقي متى يكون لقاكا
ليس سؤلي من الجنان نعيماً غير أني أريدها لأراكا

ولنا في هذا النعت:

نعيمك أو عذابك لي سواء فحبك لا يحول ولا يزيد
فحبي في الذي تختار مني وحبك مثل خلقك لي جديد

هذا ميزان الاعتدال، وهو الميزان الإلهي، لا تؤثر فيه العوارض، ولا يتأثر بالأحوال.

المحب الله ـ لا ينتفع بالطاعة ولا يتضرر بالمخالفة، من أحبه من عباده لم تضره الذنوب، ولا قدحت في منزلته، بل بَشَّره فقال: ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ فقدم العفو على السؤال عندنا، وعلى العتاب عند غيرنا ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ فقدم المغفرة على الذنب، وليس بذنب عنده، وإنما ذكره لتعرف العناية الإلهية بأحبابه، لا ذنب لمحبوب، ولا حسنة لمحب عند نفسه، ومع هذا كله، فإنه مقام خفي غير جلي، سريع التفلت في المحب، يتصور فيه المطالبة مع الأنفاس، مُدَّعيه حافظ لميزانه، إن أخلَّ به قامت الحجة عليه من الجانبين، فلا يحفظه إلا ذو معرفة تامة، وذو حب صادق، قوي السلطان، ثابت الحكم. (ف ح ٢ / ٣٥٩ ـ مسامرات ح ٢ ـ ف ح ٢ / ٣٥٩)

المحب غير مطلوب بالآداب:

إنما يطلب بالأدب من كان له عقل، وصاحب الحب ولهان مُدَلَّه العقل، لا تدبير له، غير مؤاخذ في كل ما يصدر عنه.

فإذا كان المحب الله ـ فهو الكبير المالك، مشرع الآداب في العقلاء، مؤدب أوليائه كما قال ﷺ: «إن الله أدبني فأحسن أدبي» والسيد لا يقال يتأدب مع غلامه، وإنما يقال السيد يعطي ما يستحقه العبد المحبوب عنده المكرم لديه منة منه وفضلاً، فالسيد غير مطالب بالأدب مع عبده، وإن كان محبوباً له. (ف ح ٢ / ٣٥٩)

المحب ناس حظه وحظ محبوبه:

حب الحب هو الشغل بالحب عن متعلقه، فإن العاشق المحب من أشرب في قلبه الحب، وعِشْقُ العشقِ هو الحب الصدق، جاءت ليلى إلى قيس وهو يصيح: ليلى ليلى؛ ويأخذ الجليد ويلقيه على فؤاده فتذيبه حرارة الفؤاد، فسلمت عليه وهو في تلك الحال، فقالت له: أنا مطلوبك، أنا بغيتك، أنا محبوبك، أنا قرة عينك، أنا ليلى! فقال العاشق المجنون لمعشوقه على التعيين: إليك عني وتباعدي مني، فإن حبك شغلني عنك، وأنت مني وأنا منك؛ فوقف مع الألطف، وزهد في الأكثف، لأنه عرف ما كثف، فوقف وما انحرف، وهذا ألطف ما يكون، وأرق في المحبة، فحب الحب ينسي المحب حظه وحظ محبوبه، فإن الحب استفرغه، فأنساه المحبوب وأنساه نفسه، والحقيقة الإلهية التي صدرت منها هذه

الحقيقة لا تنقال، نعم تنقال، إلا أنها من الأسرار التي لا تذاع، فمن كشفها عرفها، ولا يجوز أن يُعَرِّف بها، وآيتها من كتاب الله: ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ ومن نسي صورته نسي نفسه. (ف ح ٢ / ٣٢٥ ـ ح ٤ / ٣٨٣ ـ ح ٢ / ٣٢٥، ٣٥٩)

المحب مخلوع النعت:

المحب لا نعت له يُقَيِّد به ولا صفة، فإنه بحيث يريد محبوبه أن يقيمه فيه، فنعته ما يراد به، وما يراد به لا يعرفه، فهو مخلوع النعوت، ومن هنا قال أبو يزيد البسطامي لما سئل: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة، وأنا لا صفة لي[1].

المحب الله ـ هو كامل لذاته، لا يكمل بالزائد، فلا نعت له ولا صفة، لأنه ليس كمثله شيء، فسبحان ربك رب العزة عما يصفون. (ف ح ٢ / ٣٦٠)

المحب مجهول الأسماء:

قال الشاعر:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

فهذا مثل قولهم: إنه مخلوع النعوت، فالعبودية له ذاتية، فما له اسم معين سوى ما يسميه به محبوبه، فبأي اسم سماه ودعاه به، أجابه ولبَّاه، فإذا قيل للمحب: ما اسمك؟ يقول: سل المحبوب، فما سماني به فهو اسمي، لا إسم لي، أنا المجهول الذي لا يُعْرَف، والنكرة التي لا تتعرف.

المحب الله ـ لا إسم له يدلُّ على ذاته، وإنما المألوه ـ الذي هو محبوبه ـ نظر إلى ما له فيه من أثر فسماه بآثاره، فقبل الحق ما سماه به، فقال المألوه: يا الله، قال الله له: لبيك؛ قال المربوب: يا رب، قال له الرب: لبيك: قال المخلوق له: يا خالق، قال الخالق: لبيك؛ قال المرزوق: يا رزاق، قال الرزاق: لبيك؛ قال الضعيف: يا قوي، قال القوي: أجبتك؛ فأحوالنا تدعوه دعاء تحقيق، فيتخذها أسماء، ولهذا تختلف ألفاظها وتركيب

---

(١) راجع شرح ذلك في كتابنا «شرح كلمات الصوفية».

حروفها بحسب اللسان، والمعنى الموجب للاسم معقول عند المخلوقين، فيقول العربي: يا الله، للذي يقول له الفارسي: أي خداي، ويقول له الرومي: إيشا، ويقول له الأرمني: أي أصفاج، ويناديه التركي: أي تنكري، ويناديه الأفرنجي: أي كريطور، ويقول له الحبشي: واق؛ فهذه ألفاظ مختلفة لمعنى واحد مقصود من كل مخلوق، فلهذا قلنا: إنه مجهول الأسماء، إذ الأسماء دلائل، فالمحبوب بأي اسم دعا محبه أجابه.

(ف ح ٢ / ٣٦٠)

المحب كأنه سال وليس بسال:

وهذا النعت يسمى البهت والسُّبَات، ولا يكون له هذا إلا في حال الاستغراق فيما عنده من حب محبوبه، حتى إن محبوبه ربما يكون بإزائه ولا يعرفه به، ويناديه ولا يعرف صوته مع نظره إليه، فهو كالسالي في حاله، وهو في غاية الهيمان فيه.

المحب الله ـ والله غني عن العالمين، ويطالبهم بأنفاسهم أن يكون تنفسهم بذكره، وأنه سميع الدعاء. (ف ح ٢ / ٣٦٠)

المحب لا يفرق بين الوصل والهجر:

وذلك لشغله بما عنده من محبوبه، فهو مشهوده دائماً، أو يكون كما قال القائل:

فالليل إن وصلت كالليل إن هجرت   أشكو من الطول ما أشكو من القصر

فهو في الحالين صاحب شكوى، فما تغيرت عليه الحال، فهو في عذاب دائم، وأما نحن فعلى المذهب الأول، ما لنا شغل إلا به، فهو مشهودنا لا نعرف غيره، ولا نشهد سواه، ولنا في ذلك:

شغلي بها وصلت ليلاً وإن هجرت   فما أبالي أطال الليل أم قصرا

المحب الله ـ الكلمة الإلهية واحدة، قال تعالى: ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ لا تفريق عنده، فبعده عين قربه، وقربه عين بعده، فهو البعيد القريب، ما عنده وصل بنا فيقبل الفصل، ولا هجر فيقبل الوصل.

فعين الوصل عين الهجر فيه   وما يدريه إلا من رآه

(ف ح ٢ / ٣٦٠)

المحب متيم في إدلال:

المتيم الذي تَعَبَّده الحب وأذله، مع إدلال يجده عنده، ولا يعرف سببه سوى ما تعطي الحقائق، من أن المحب يعطي المحبوب سيادته عليه، فكأنه ولّاه، ومن حالته هذه، فلا بد أن تشم منه رائحة إدلال في إذلال وخضوع، وهذا يعطيه مقام الحب.

المحب الله ـ «عبدي جعت فلم تطعمني، ظمئت فلم تسقني، مرضت فلم تعدني» «من تقرب إلي شبراً، تقربت منه ذراعاً» فضاعف التقريب: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ فتضاعف الأجر إدلال، والسؤال سؤال.

(ف ح ٢ / ٣٦٠)

المحب ذو تشويش:

سبب ذلك جهله بما في نفس المحبوب، فلا يدري بأية حالة يكون معه، أما إذا كان الحق محبوبه، فإنه قد عرف ذلك بما شرع له، فلا يبقى عليه تشويش في قلبه، إلا فيما منحه من الأسرار وما حباه به من اللطائف، وهو يحب أن يحببه إلى خلقه، حتى تجتمع الهمم والقلوب كلها عليه؛ ولا يتمكن له إلا بإذاعة أسراره، لأن النفوس مجبولة على حب المنح والهبات والعطايا، ثم إنه لا يعلم هل يرضى إذاعة تلك الأسرار ربه أم لا؟ فهذا سبب تشويش قلوب المحبين لله.

المحب الله ـ نفذ الأمر الإلهي بأن يؤمن من سبق علمه فيه أنه لا يؤمن، وقوله وعلمه واحد، فمن أي حقيقة قال آمراً من علم أنه لا يمتثل أمره؟ فقد عَرَّضه للمعصية، وهو الحكيم العليم، فمن هنا صدر التشويش في العالم، واختلاف الأغراض والمنازعات.

(ف ح ٢ / ٣٦٠)

المحب خارج عن الوزن:

التصرفات على الوزن المعتبر في الحكمة تطلب الفكر الصحيح، والمحب لا فكرة له في تدبير الكون، وإنما همه وشغله بذكر محبوبه، قد أفرط فيه الخيال فلا يعرف المقادير، فإن كان محبوبه الله ـ لما وسعه قلبه ـ فذلك الخارج عن الوزن، فلا يزنه شيء، ألا ترى إلى التلفظ بذكره وهي لفظة «لا إله إلا الله» لا تدخل الميزان، ولما دخلت بطاقتها من حيث ما هي

مكتوبة في الميزان لصاحب السجلات، طاشت السجلات وما وزنها شيء، ولو وضعت أصناف العالم ما وزنتها، وهي لفظة من قائل لم يتصف بالمحبة، فما ظنك بقول محب؟! فما ظنك بحاله؟! فما ظنك بقلبه الذي هو أوسع من رحمة الله؟![1] وسِعَتُه إنما كانت من رحمة الله، فهذا من أعجب ما ظهر في الوجود، أن اتساع القلب من رحمة الله، وهو أوسع من رحمة الله، يقول أبو يزيد: «لو أن العرش وما حواه مائة ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس بها» فكيف حال المحب؟!

المحب الله ـ تعالى عن الموازنة محبوب الحق عند الحق، لأن المحب لا يفارق محبوبه، وما عند الله باق، فالمحبوب باق، وما يبقى ما يوازنه ما يفنى. (ف ح ٢ / ٣٦١)

المحب يقول عن نفسه: إنه عين محبوبه:

اعلم أن الصدق في المحبة يجعل المحب يتصف بصفة المحبوب، فإن المحب إذا عشق مَنْ صفتُه كذا، حكم عليه هذا المعشوق، فنقله إليه وكساه من ملابسه، فأخرجه عن الذي يقتضيه عالم الطبيعة من كدر الشبه، إذا كان المعشوق عِلماً، والشبهات والحرام، إذا كان المعشوق عملاً، والشهوات الطبيعية، إذا كان المعشوق روحاً مجرداً عن المواد، وعن البشرية، إذا كان المعشوق مَلَكاً، وعما سوى الله، إذا كان المحبوب هو الله، فالمحب يقول عن نفسه: إنه عين محبوبه، وذلك لاستهلاكه فيه، فلا يراه غيراً له، قال قائلهم في ذلك: «أنا من أهوى، ومن أهوى أنا» وهذه حالة أبي يزيد[2].

المحب الله ـ المحب الصادق من انتقل إلى صفة المحبوب، لا من أنزل المحبوب إلى صفته، ألا ترى الحق سبحانه ـ لما أحبنا ـ نزل إلينا في ألطافه الخفية بما يناسبنا؟ مما يتعالى

---

(١) راجع شرح ذلك في كتابنا «شرح كلمات الصوفية».

(٢) حكي أن بعض المتحابين ركبا في البحر، فسقط أحدهما في البحر وغرق، فألقى الآخر نفسه في البحر، فقام الغواصون فأخرجوهما سالمين، فقال الأول لصاحبه: أما أنا فسقطت في البحر، فأنت لم ألقيت نفسك؟ فأنشد:

أنا غائب بك عني توهمت أنك أني

(مقدمة التصوف/ لأبي عبد الرحمن السلمي)

جده وكبرياؤه عن ذلك، فنزل إلى التبشيش بنا إذا جئتنا إلى بيته لقصد مناجاته، وإلى الفرح بتوبتنا ورجوعنا إليه من إعراضنا عنه، والتعجب من عدم صبوة الشاب من الشاب الذي في محل حكم سلطانها وإن كان ذلك بتوفيقه، وإلى نيابته عنا في جوعنا وعطشنا ومرضنا، وإنزاله نفسه إلينا منزلتنا، لما جاع بعض عبيده قال للآخرين: «جعت فلم تطعمني» ولما عطش آخر من عباده قال سبحانه لعبد آخر: «ظمئت فلم تسقني» ولما مرض آخر من عباده قال لآخر من عباده: «مرضت فلم تعدني» فإذا سأله هؤلاء العبيد عن هذا كله يقول لهم: «أما إن فلاناً مرض فلو عدته لوجدتني عنده، أما إنه جاع فلان فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي، أما إنه عطش فلان فلو سقيته لوجدت ذلك عندي» - والخبر صحيح - وأحب الله بعض عباده، فكان سمعه وبصره ولسانه، فهذا من ثمرة المحبة حيث نزل إلينا.

وكذا العبد الصادق في محبته ربه يتخلق بأسمائه، فيتخلق بالغنى عن غير الله، وبالعز بالله تعالى، وبالعطاء بيد الله تعالى، وبالحفظ بعين الله تعالى، فالمتخلقون بأسماء الله لما أحبوه اتصفوا بصفاته على حد ما يليق بهم[1]. (ف ح ٢ / ٥٩٦، ٣٦١، ٥٩٦، ٣٦١، ٥٩٦)

المحب مصطلم مجهود لا يقول لمحبوبه: لم فعلت كذا؟ لم قلت كذا؟:

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: لِمَ لم تفعله؟ لأنه كان يرى تصريف محبوبه فيه، وتصريف المحبوب في المحب لا يُعَلَّل بل يُسَلَّم، لا بل يستلذ، لأن المحب مصطلم بنار تحرق كل شيء تجده في قلبه ما سوى محبوبه، غيرة، فهو يبذل المجهود ولا يرى أنه وفّى، ولا يخطر له أنه تحرك فيما يرضي محبوبه.

المحب الله- في هذا الموطن لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، فكيف يقول: لِمَ؟ وما فعل إلا هو، يقول الحق لمحبوبه «أنا يدك اللازم له»[2] لكل محبوب تجل لا يكون لغيره، فما يجتمع عنده اثنان ولا يصح، فهذا الاصطلام، ونعته بالمجهود ما نسب إليه من التردد.

(ف ح ٢ / ٣٦١)

(١) راجع الخاتمة التخلق والتحقق.

(٢) الضمير يعود للفعل قبله من قبيل قوله تعالى: «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم».

المحب مهتوك الستر، سره علانية، فضيحة الدهر، لا يعلم الكتمان:

قال المحب الصادق:

من كان يزعم أنْ سيكتم حبه — حتى يشككك فيه فهو كذوب
الحب أغلب للفؤاد بقهره — من أن يُرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فإنه — لم يبد إلا والفتى مغلوب
إني لأحسد ذا هوى متحفظاً — لم تتهمه أعين وقلوب

الحب غلاب، لا يبقي ستراً إلا هتكه، ولا سراً إلا أعلنه، زفراته متصاعدة، وعبراته متتابعة[1]، تشهد عليه جوارحه بما تحمله من الأسقام والسهر، وتَنُم به أحواله، إن تكلم تكلم بما لا يعقل، ما له صبر ولا جَلَد، همومه مترادفة، وغمومه متضاعفة، قالت المحبة:

أبى الحب أن يخفى وكم قد كتمته — فأصبح عندي قد أناخ وطنبا
إذا اشتد شوقي هام قلبي بذكره — وإن رمت قرباً من حبيبي تقرّبا
ويبدو فأفنى ثم أحيا بذكره — ويسعدني حتى ألَذّ وأطربا

المحب لله ـ إذا أحب الله العبد أوحى إلى المَلَك أن ينادي به في السموات، إن الله أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، فتقبله البواطن، وإن أنكرته الظواهر من بعض الناس فلأغراض قامت بهم، فإنهم في هذا الشأن مثل سجودهم لله، كل من في العالم ساجد لله، وكثير من الناس، وما قال كلهم، هكذا حب هذا العبد في قلوبهم، وإن وضع له القبول في الأرض، فتحبه بقاع الأرض كلها وجميع ما فيها، وكثير من الناس على أصلهم في السجود لله سواء.

(ف ح ٢ / ٣٦١ ـ مسامرات ح ١ ـ ف ح ٢ / ٣٦١)

---

(١) يقول الإمام البرعي:

يُخفي الغرامَ تجلدي فتذيعه — عبرات جفن عن صبابة صبابي

وللإمام البوصيري:

أيحسب الصب أن الحب منكتم — ما بين منسجم منه ومضطرم

المحب لا يعلم أنه محب، كثير الشوق لا يدري لمن؟ عظيم الوجد لا يدري فيمن؟ لا يتميز له محبوب:

القرب المفرط حجاب، فيجد آثار الحب وقد لبسته صورة محبوبه مما يحكم في خياله، فيطلبه من خارج، فلا يجد ما عانق من صورته في نفسه، لكثافة الظاهر عن لطف الباطن، المحب مع المعنى الذي يأخذه من المحبوب ويرفعه في نفسه، وذلك المعنى المرفوع عند المحب منه، هو الذي يقلقه ويزعجه، فهو فيه ولا يدري أنه هو فيه، فلا يطلبه إلا به، اللطيف يغيب عن الحواس، يقول ولا يعقل ما يقول، ولا بقوله قلبي عند محبوبي.

ضاع قلبي أين أطلبه ما أرى جسمي له وطنا

ولا بقوله محبوبي في قلبي. لا أدري في أي الحالتين هو أصدق، يجمع بين الضدين، هو عندي ما هو عندي، هذا ألطف ما وجدته في الحب، وهو أن تجد عشقاً مفرطاً، وهوى وشوقاً مقلقاً، وغراماً ونحولاً، وامتناع نوم ولذة بطعام، ولا تدري فيمن؟ ولا بمن؟ ولا يتعين لك محبوبك، هذا ألطف ما وجدته ذوقاً، ثم بعد ذلك، إما أن يبدو لك تجل في كشف، فيتعلق ذلك الحب به، أو ترى شخصاً فتجد الميل إليه بذلك الهوى الذي عندك، فتعلم أنه صاحبك، وهذا من أخفى دقائق استشراف النفوس على الأشياء من خلف حجاب الغيب، فتجهل حالها، ولا تدري بمن هامت؟ ولا فيمن هامت؟ ولا ما هيمها؟ ويجد الإنسان ذلك في القبض والبسط الذي لا يعرف له سبباً، فعند ذلك يأتيه ما يحزنه، فيعرف أن ذلك القبض كان لهذا الأمر، أو يأتيه ما يسره، فيعرف أن ذلك البسط كان لهذا الأمر، وذلك لاستشراف النفس على الأمور، من قبل تكوينها في تعلق الحواس الظاهرة، وهي مقدمات التكوين، ولما ذقنا هذا المقام قلنا فيه:

علقت بمن أهواه عشرين حجة ولم أدر من أهوى ولا أعرف الصبرا
ولا نظرت عيني إلى حسن وجهها ولا سمعت أذناي قط لها ذكرا
إلى أن تراءى البرق من جانب الحمى فتعمني يوماً وعذبني دهرا

ولنا أيضاً في هذا المعنى ذوقاً، فإنا لا نعبر إلا عما ذقناه:

علقت بمن أهواه من حيث لا أدري ولا أدري من هذا الذي قال لا أدري
فقد حرت في حالي وحارت خواطري وقد حارت الحيرات فيّ وفي أمري

فبينا أنا من بعد عشرين حجة | أترجم عن حب يعانقه سري
ولم أدر من أهوى ولا أعرف اسمه | ولا أدري من هذا الذي ضمه صدري
إلى أن بدا لي وجهها من نقابها | كمثل سحاب الليل أسفر عن بدر
فقلت لهم: من هذه؟ قيل: هذه | بنية عين القلب بنت أخي الصدر
فكبرت إجلالاً لها ولأصلها | فليلي بها أربى على ليلة القدر

ولنا في هذا المعنى ذوقاً في أول دخولي إلى الشام، وجدت ميلاً مجهولاً مدة طويلة، في قصة طويلة إلهية متخيلة في صورة جسدية، فقلنا نخاطبها في ذلك بالحال ولسانه:

أقول وعندي من هواكِ الذي عندي | مقالة من قال الحبيب له قل لي
ولما دخلت الشام خولطت في عقلي | فلم أر قبلي في الهوى عاشقاً مثلي
عشقت وما أدري الذي قد عشقته | أخالقي المحبوب أم هو من شكلي
ولا سمعت أذناي قط بذكره | فهل قال هذا عاشق غيرنا قبلي
فجبت بلاد الله شرقاً ومغرباً | لعلي أرى شخصاً يوافقني علي
فلم أر إلا ذا حبيب معين | يلازمه طبعاً ملازمة الظل
فقلت إلهي إن قلبي مهيَّم | ولم أدر فانظر في مقامي وفي ذلي
فنادى منادي الحب من بين أضلعي | لقد غصت يامسكين في أبحر الجهل
ألا فاستمع قولي وخذ سر حكمتي | فإني من أهل التعاليم والفضل
بسبع وعشر ثم خمسين بعدها | إذا أنت حصلت اثنتين على وصلي[1]
يقوم لكم شكل بديع مربع | تماماً على الوصل الذي فيه والفصل
كمثل اسمه الله بياناً محققاً | فكان اسم محبوبي على صورة الأصل
فذاك اسم من تهواه إن كنت عالماً | وهذا من العلم المضاف إلى النحل[2]

---

(١) يشير إلى اسم «زينب» بحساب الجمل أي ٦٩ ز ي ن ب
وأما أسم «الله» في البيت بعده فهو ٦٦. ٧ ١٠ ٥٠ ٢

(٢) يشير إلى علم الوحي، وهو قوله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ ولم يقل: ﴿ما كان لرسول أو لنبي﴾ وقوله: ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾

فإن كنت ذا فهم فلا تبتغي سوى ... مثلثة التربيع جامعة الشمل
فثليثها بيت وبيت مصحف ... لها حسن إدلال يدل على دلي
فبيت إلى لعين عين وثم بيت لماجد ... هما أهل بيت للسماحة والبذل[1]
وأوله حرف نزيه مسبع ... من الستة الأعلام من أحرف الفصل[2]

وهذا ألطف ما يكون من المحبة ودونه حب الحب.

المحب الله ـ تجلى الله لآدم ويداه مقبوضتان فقال: يا آدم اختر أيتهما شئت، قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة، فبسطها فإذا فيها آدم وذريته ـ الحديث ـ فآدم في القبضة، وآدم خارج القبضة، هكذا صورة المحبوب مع المحب، هو فيه ما هو فيه.

والحب نعوته كثيرة لا تحصى، وليس لها حد فيُبْلَغ بالبحث والاستقصاء، غير أن مشارب الحب متنوعة باختلاف المحبوب، فإن عقلت عني فقد رميت بك على الطريق، فإياك والتشبيه، فالحب والوجد والشوق والكمد حقيقة واحدة، لها نسب مختلفة لاختلاف المتعلق، فهي نعوت تحكم سلطانها فيمن قامت به، لا يرجع منها إلى المحبوب نعت، ولا له فيها حكم، إلا أن يكون محباً، فافهم، وظهور هذه النعوت في الكون معلومة، أما نسبتها للحق من كونه محباً، فهي مجالي الحق للعارفين المحبين في منصات الأعراس، لإعطاء نعوت المحبين في المحبة، والمنصة هي مجلى الأعراس، وهي تجليات روحانية إلّية[3].

(ف ح ٢ / ٣٦١، ٣٢٣، ٣٦١؛ ٣٥٠، ١٣٠)

---

(١) هكذا في الاصل.
(٢) حرف الزاي ـ الأحرف الستة: الألف والدال والذال والراء والزاي والواو. قوله: «مسبع» فإن الزاي في حساب الجُمّل سبعة.
(٣) إلّية يعني إلهية.

روح المعاني

تحقيق أدبي لشعر بعضهم في الحب:

لتحقيق الفرق بين المغنى والمعنى، وبين الإيقاع وذوق السماع، نقدم هذا التحليل على ميزان الحب، قال بعضهم:

ناشــدتــك الله نسـيـم الصبـا　　　من أين هذا النَفَس الـطيـب
هل أودعت برداك عند الضحى　　　مكــان ألقت عقــدهــا زينب
أو ناسمت ريــاك روض الحمى　　　وذيلهــا من فوقهــا تسحب
لهــات أتحــفــني بأخبــارهــا　　　فعــهــدك الـيــوم بها أقــرب

هذه الأبيات على لطافتها ورقتها، من أكثف ما قيل في عشق الأرواح، لأن نسيم الأرواح ألطف من نسيم الرياح، لأنها بعيدة المناسبة عن عالم الطبيعة، والرياح ليست كذلك، فالأرواح إذا تنسمت لا تسوق إلا طيباً، فإنها تهب من الحضرة الذاتية من الغيب الأقدس، فلا تأتي إلا بكل طيب وطيبة، والرياح ليست كذلك، لأنها من عالم الطبيعة، فإن مرت على خبيث جاءت بخبيث، وإن مرت بطيب جاءت بطيب، ونسيم الأرواح إذا مر بخبيث رده طيباً، وإذا مر بطيب زاده طيباً، فلو كان هذا القائل عاشقاً حقيقة لا يتكلم بدعوى زور، لم يجعل الطيب من زينب وإن كانت طيبة، فلو ذكر أن طيبها زاد به طيب المكان طيباً، وجعل محبوبته تَنُمُّ بأسرارها الرياح، فليست بمنيعة الحمى، وعالم الطبيعة يخترقها وهو الريح، وأخذ يهجو الريح حيث تعجب من أين له هذا النفس الطيب؟ فلو ساق الطيب بطريق المفاضلة، بأن يقول: من أين هذا النفس الأطيب؟ فإنه لم يكن الريح بأمر زائد على نفس محبوبته إذا حققت، لأنها عين الطيب حيث ظهر طيب.

وسألني بعض أصحابي أن أشرح له هذه الأبيات لو قالها عارف من المحبين الإلهيين، فأجبته إلى ذلك، فأنا أشرحها إن شاء الله.

قوله يخاطب نسيم الصبا: «ناشدتك الله» اعلم أن الصبا هي ريح القبول، والصبا الميل،

والميل قبول، وسميت الصبا قبولاً، لأن العرب لما أرادت أن تُعَرِّف الرياح، حتى تجعل لها اسماً تذكرها بها لتعرف، استقبلت مطلع الشمس، فكل ريح هبت عليها من جهة مطلع الشمس استقبلته، إذ كان وجهها إلى تلك الجهة، فسمتها قبولاً، وما أتى إليها من الريح عن دبر في حال استقبالها ذلك، سمته دبوراً، وهي الريح الغربية، وما أتاها منها في هبوبها عن الجانب الأيمن، سمتـه جنوباً، وعن جانب الشمال سمته شمالاً، وكل ريح بين جهتين من هذه الجهات تهب سمتها نكباء، من النكوب وهو العدول، أي عدلت عن هذه الأربع الجهات.

والنسيم أول هبوب الريح، والشيء المستلذ إذا فاجأك ابتداء، فهو ألذ من استصحابه، مثل قوله: أحلى من الأمن عند الخائف الوجِلِ، ولهذا نعيم الجنان جديد في كل نفس، فلذلك ما ناشد إلا النسيم لالتذاذه به، وجعله نسيم الصبا، لأنها ريح شرقية قبول، فأعطته الريح من أخبارها بما جاءت به من طيبها، ما يعطيه قبولها لو أقبلت، ورؤيتها لو طلعت عليه، كما تطلع الشمس، لأن الصبا ريح شرقية، والشروق طلوع الشمس، والإشراق ضوء الشمس، وقوله: «ناشدتك» أي طالبتك مقسماً بالله، والناشد الطالب، فهو كالمستفهم، وهذا يدلك على قلة معرفته بمحبوبه، حيث جعل له أمثالاً، لقوله: «من أين هذا النفس الطيب؟» فإنه ثَمَّ من له أنفاس طيبة، فلو استفرغ في شغله بمحبوبه، ولم ير مشهوداً له سواه، ما استفهم، إذ كل من استفهم فقـد أحضر ذلك في ذهنه، فهذا شاعر أحضر الاشتراك في ذهنه، فشهد على نفسه بنقصان المعرفة إن كان عارفاً، ونقصان المحبة إن كان محباً عاشقاً، فإن أراد من المحبوب كثرة وجوهه، وتجليه في أعيان متعددة، كالأسماء الإلهية لله مع كونه ذاتاً واحدة، ومع هذا فله تسعة وتسعون اسماً فما فوق ذلك، فيريد في أي اسم كان لما هبت هذه الريح؟ وهي نسمة قبول إلهي، لطيفة الهبوب، أورثت في القلب لطفاً ورقة بهبوبها، فاستفهم الريح لما جاءت به من الطيب المستلذ، فقال:

هل أودعـت برداك عنـد الـضحى   مكـان ألـقـت عقـدهـا زينـب

اعلم أن هذا البيت من أدل دليل على أنه ليس بمحب، وأن هذا القول هو إلى هجاء المحبوب أقرب منه إلى الثناء والمدح، وذلك أنه لما جاءته الريح بهذا النفس الطيب، أضاف ذلك الطيب إلى ما حصل للمكان الذي ألقت عقدها زينب فيه، فهو ثناء على العقد، فإنه يريد أن عقدها كان عنبرية، ذا طيب، فطاب المكان بذلك العقد، وما ذكر أن العقد إنما اكتسب الطيب

من روائح زينب أو عرفها أو أنفاسها، فلو سلك في كلامه أن طيب المكان مما تنفست فيه زينب، فلو قال مثل ما قلنا:

هل أودعت برداك عند الضحى ... طيب مكان طيبت زينب
أنفاسه من طيب أنفاسها ... فطيبها من طيبه أعجب

ولنا في هذا المعنى في غير هذا الروي

ما الطيب في المسك إلا طيب رياها ... والنور في الشمس إلا من محياها
الخلد مأوى الحسان الحور تسكنه ... وذاتها لجنان الخلد مأواها

أما قوله بعد هذا:

أو ناسمت رياك روض الحمى ... وذيلها من فوقها تسحب

فهذا مثل الأول، جعل الطيب للروض من ذيل زينب، لما سحبته على ذلك المكان طاب من طيب ذيلها، وطيب ذيلها من طيب طيبت ثيابها به، مثل العقد سواء، فما ذكر ما يدل على أن طيب هذه الأماكن من طيب أنفاسها، وإذا كان هذا، فلا يطيب إلا مَنْ ليس بطيب أو ليس له ذلك الطيب، ولذا قلنا لو قال: النفس الأطيب لا الطيب، لكان أشعر وأثبت في المدح، ثم قوله للنسيم:

فهات المحفي بأخبارها ... فعهدك اليوم بها أقرب

كلام غير محقق، فإن نسيم الريح ما له عهد قريب، إلا بالمكان وروض الحمى لا بزينب، والطيب للمكان من العقد، وللروض من الذيل، فلم ينقل هذا النسيم شيئاً من طيبها المختص بذاتها، ولو كانت مشهودة للنسيم حين هب على المكان والروض، بقوله: وذيلها؛ فذكر ما يدخله الاحتمال في الحال، فإنه يحتمل أن يكون الحال في قوله: «وذيلها» أي في حال مرورها أكسبت هذا الروض الطيب من ذيلها، ويحتمل أن يكون شهود الريح لها في حال مرورها على روض الحمى . وهذا بعيد والأول أقرب، فإنه لو مر بها مشاهداً لها في حال انسحاب ذيلها على الروض، لنقل طيب ذيلها لا طيب الروض من ذيلها، فدل أنه ما شاهدها نسيم الريح . وإذا لم يشاهدها فليس عهده بها قريباً، وإنما عهده قريب بالمكان الذي مرت عليه، ثم فيه من النقص بقوله: «أقرب» وصفها بالأمر العام في كل طيب، إذ المكان الذي يبقى فيه الطيب، إنما يكون قريب العهد بالطيب، في جلوسه فيه أو مروره عليه، وهذا ليس بمخصوص بها، بل لو قال:

إن طيبها في المكان لا يزول بعد أن اكتسبه منها، وأنه بها بعيد عهد، ومع هذا فالطيب باق لقوة سلطانه، لكان أشعر، والنسيم ما نقل إلا طيب المكان والروض، فكان ينبغي أن يصدق، فكان يقـول: «فعهدك اليوم به أقرب» يعني بالمكان أو بكل واحد منهما، يعني الروض والمكان، أو يقول: «بهم أقرب» فكذب بقوله: «بها أقرب»؛ ثم إنه لا يلزم طيب المكان ولا طيب الروض من إلقاء العقد ولا من طيب الذيل، قد يكون طيب الروض من الزهر، وطيب المكان من أمر آخر، مع وجود العقد فيه وانسحاب الذيل على الروض، فهو قاصر بكل وجه.

فهذا شعر لطيف اللفظ مليح، وهو بالمعنى ليس بشيء، لأن **جمال الشعر والكلام أن يجمع بين اللفظ الرائق، والمعنى الفائق**، فيحار الناظر والسامع، فلا يدري، اللفظ أحسن أو المعنى، أو هما على السواء؟ فإنه إذا نظر إلى كل واحد منهما أذهله الآخر من حسنه، وإذا نظر فيهما معاً حيراه، فما يستحسن مثل هذا الشعر إلا ذو قلب كثيف، فإن اللفظ لطيف والمعنى كثيف، وإذا كان المعنى قبيحاً عند الصحيح النظر، لم يحجبه حسن اللفظ عن قبح المعنى، فإن مثاله عندي مثال من يحب صورة في غاية الحسن، منقوشة في جدار، مزينة بأنواع الأصبغة، تامة الخلق، لا روح لها، فإن المعنى للفظ كالروح للصورة، هو جمالها على الحقيقة.
(ف ح ٢ / ٣٩٢)

أخبار بعض المحبين الإلهيين

من أخبار ذي النون المصري:

● كان ذو النون قاعداً وحوله الناس، وهو يتكلم عليهم، والناس يبكون وشاب يضحك، فقال له ذو النون: ما لك أيها الشاب، الناس يبكون وأنت تضحك؟ فأنشأ يقول:

كلهم يعبدون من خوف نار ... ويرون النجاة حظاً جزيلاً
ليس لي في الجنان والنار رأي ... أنا لا أبتغي بحبي بديلا

فقيل له: فإن طردك فماذا تفعل؟ فقال:

فإذا لم أجد من الحب وصلاً ... رمت في النار منزلاً ومقيلا
ثم أزعجت أهلها ببكائي ... بكرة في ضريعها وأصيلا
معشر المشركين نوحوا عليّ ... أنا عبد أحببت مولىً جليلا
إن لم أكن في الذي ادعيت صدوقاً ... فجزاني منه العذاب الوبيلا

(ف ح ٢ / ٣٤٧)

● قال ذو النون: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام، فبينا أنا أطوف، إذ أنا بشخص متعلق بأستار الكعبة، وإذ هو يبكي ويقول في بكائه: «كتمت بلائي من غيرك، وبحت بسري إليك، واشتغلت بك عمن سواك، عجبت لمن عرفك كيف يسلو عنك؟ ولمن ذاق حبك كيف يصبر عنك؟» ثم أنشأ يقول:

ذوقتني طعم الوصال فزدتني ... شوقاً إليك مخامر الأحشاء

ثم أقبل يخاطب نفسه فقال: أمهلك فما ارعويت، وستر عليك فما استحييت، وسلبك حلاوة المناجاة فما باليت، ثم قال: عزيزي ما لي إذا قمت بين يديك، ألقيت عليّ النعاس، ومنعتني حلاوة مناجاتك، لم قرة عيني لمه؟ ثم أنشأ يقول:

روعت قلبي بالفراق فلم أجد ... شيئاً أمر من الفراق وأوجعا
حسب الفراق بأن يفرق بيننا ... ولطالما قد كنت منه مروعا

قال ذو النون: فأتيت إليه فإذا به امرأة. (ف ح ٢ / ٣٤٨)

● قال ذو النون: كنت في الطواف فسمعت صوتاً حزيناً، وإذا بجارية متعنعه بأستار الكعبة وهي تقول:

أنـت تدري يا حبـيـبـي يا حبـيـبـي أنـت تدري
ونـحـول الجسم والـرو ح يبـوحـان بسري
يا عزيـزي قد كتمت الحـــب حتـى ضاق صدري

قال ذو النـون: فشجاني ما سمعت حتى انتحبت وبكيت، وقالت: إلهي وسيدي ومولاي، بحبك لي إلا غفرت لي، قال: فتعاظمني ذلك، وقلت: ياجارية أما يكفيك أن تقولي بحبي لك حتى تقولي بحبك لي، فقالت: إليك عني يا ذا النون، أما علمت أن لله قوماً يحبهم، قبل أن يحبوه، أما سمعت الله يقول: ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ فسبقت محبته لهم قبل محبتهم له، فقلت: من أين علمت أني ذو النون؟ فقالت: يا بطال جالت القلوب في ميدان الأسرار فعرفتك، ثم قالت: انظر من خلفك، فأدرت وجهي، فلا أدري السماء اقتلعتها أو الأرض ابتلعتها. (ف ح ٢ / ٣٤٩)

● قال ذو النون: قلت لامرأة: متى يحوي الهموم قلب المحب؟ قالت: إذا كان للتذكار مجاوراً، وللشوق محاضراً، يا ذا النون أما علمت أن الشوق يورث السقام، وتجديد التذكار يورث الحزن، ثم قالت:

لم أذق طيب طعم وصلك حتى زال عني محبـتي للأنـام

قال فأجبتها:

نِعـم المحـب إذا تزايـد وصلـه وعـلت محبـتـه بعقـب وصـال

فقالت: أوجعتني أوجعتني، أما علمت أنه لا يوصل إليه إلا بترك من دونه؟
يقول الشيخ الأكبر قدس الله سره لو قالت لي مثل هذا قلت لها: إذا كان ثَمَّ.
(ف ح ٢ / ٣٤٩)

● كان شاب يحضر مجلس ذي النون المصري مدة ثم انقطع عنه زماناً، ثم حضر وقد اصفر لونه ونحل جسمه، وظهرت آثار العبادة عليه والاجتهاد، فقال له ذو النون: يا فتى ما الذي أكسبك خدمة مولاك واجتهادك، من المواهب التي منحك بها ووهبها لك واختصك بها؟

فقال الفتى : يا أستاذ وهل رأيت عبداً اصطنعه مولاه من بين عبيده، واصطفاه وأعطاه مفاتيح الخزائن، ثم أسر إليه سراً، أيحسن أن يفشي ذلك السر؟ ثم أنشأ يقول[1]:

من ساروه فأبدى السر مجتهداً لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وباعدوه فلم يسعد بقربهم وأبدلوه من الإيناس إيحاشا
لا يصطفون مذيعاً بعض سرهم حاشى ودادهم من ذلكم حاشا

يقول لا يصح الاجتهاد في سر المحبوب من المحب، بل ينتظر أمر محبوبه، فإن أمره بإذاعته أذاعه، وإن لم، فالأصل الكتمان[2]. (ف ح ٢ / ٣٤٨ - مسامرات ح ٢)

■ ويقول الشيخ الأكبر قدس الله سره عن نفسه: لقد منحني الله سراً من أسراره - بمدينة فاس سنة أربع وتسعين وخمسمائة - فأذعته، فإني ما علمت أنه من الأسرار التي لا تذاع، فعوتبت فيه من المحبوب، فلم يكن لي جواب إلا السكوت، إلا أني قلت له: تول أنت أمر ذلك فيمن أودعته إياه، إن كانت لك غيرة عليه، فأنت تقدر ولا أقدر، وكنت قد أودعته نحواً من ثمانية عشر رجلاً، فقال لي: أنا أتولى ذلك، ثم أخبرني أنه سله من صدورهم وسلبهم إياه، وأنا بسبتة، فقلت لصاحبي عبد الله الخادم: إن الله أخبرني أنه فعل كذا وكذا، فقم بنا نسافر إلى مدينة فاس حتى نرى ما ذكر لي في ذلك، فسافرت، فلما جاءتني تلك الجماعة، وجدت الله قد سلبهم ذلك وانتزعه من صدورهم، فسألوني عنه فسكت عنهم.

وهذا من أعجب ما جرى لي في هذا الباب، فلله الحمد حيث لم يعاقبني بالوحشة، التي قالها هذا الشاب لذي النون. ولما كان طريق الله ذوقاً، تخيل هذا الشاب أن الذي عامله به الحق، هكذا يعامل به جميع الخلق، فذوقه صحيح وحكمه في ذلك على الله ليس بصحيح، وهذا يقع في الطريق كثيراً إلا من المحققين، فإنه لا يقع لهم مثل هذا، لمعرفتهم بمراتب الأمور وحقائقها، وهو علم عزيز المنال. (ف ح ٢/ ٣٤٨)

---

(١) الشاب هو محمود الورّاق (راجع كتاب بيان أحوال الصوفية/ لأبي عبد الرحمن السلمي).
(٢) ولبعضهم:

من أطلعوه على سرٍ فباح به لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وعاقبوه على ما كان من زلل وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا

(كتاب مختصر الخلفاء)

● ولقي ذو النون رجلاً باليمن كان قد رحل إليه في حكاية طويلة، وفيها ثم قال له ذو النون: رحمك الله ما علامة المحب لله؟ فقال له: حبيبي إن درجة الحب درجة رفيعة، قال: فأنا أحب أن تصفها لي، قال: إن المحبين لله شق لهم عن قلوبهم، فأبصروا بنور القلوب عز جلال الله، فصارت أبدانهم دنياوية، وأرواحهم حجبية، وعقولهم سماوية، تسرح بين صفوف الملائكة، وتشاهد تلك الأمور باليقين، فعبدوه بمبلغ استطاعتهم حباً له، لا طمعاً في جنة، ولا خوفاً من نار، فشهق الفتى شهقة كانت فيها نفسه.

قلنا: كان هذا القائل من العارفين، فإنه ذكر ما يدل على ذلك، وهي ثلاثة ألقاب، ليس في الكون إلا هي، فقال: أبدانهم دنياوية، لأنه قال ﴿وفي الأرض إله﴾ فلا بد أن يترك له من حقائقه من يكون معه في الدنيا، إذ كان الإنسان مجموع العالم، وليس إلا بدنه، لأنه أقرب إليه من حبل الوريد، وهو عرق بدني، فلو مشى بكله لكان ناقص الحال؛ والثاني: عقولهم سماوية، لأن العقول صفات تقييد، فإن العقل يقيد إذ كان من العقال، والسموات محال للملائكة المقيدة بمقاماتها فقالت ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ فلا تتعداه، قد حبسه فيه من أوجده له، ولهذا فسره بأن قال: تسرح بين صفوف الملائكة؛ فهم بعقولهم في السموات، وما في الكون المركب إلا سماء وأرض؛ والثالث: أرواحهم حجبية، لأنه لما سوَّى سبحانه الصور البدنية احتجب بها، بل حجبها عن ظهوره في عينها ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ فظهرت أرواحهم عن هذا الروح الحجابي، فهم مشاهدون أصلهم، عالمون بأنه حجاب، ليعلموا من هو الظاهر في أعيانهم، ومن المسمى فلانا، ولم سمي؟ وهنا أسرار دقيقة. (ف ح ٢ / ٣٤٩)

● عن أبي الأشهب السائح قال: بينما أنا أطوف، إذا نحن بجويرية قد تعلقت بأستار الكعبة وهي تقول: يا وحشتي بعد الأنس، ويا ذلتي بعد العز، ويا فقري بعد الغنى؛ فقلت لها: ما لك؟ أذهب لك مال؟ أو أصبت بمصيبة؟ قالت: لا، ولكن كان لي قلب فقدته، قلت: وهذه مصيبة؟ قالت: وأي مصيبة أعظم من فقد القلوب؟ وانقطاعها عن المحبوب؟ فقلت لها: إن حسن صوتك قد عطل على سامعيه الطواف، قالت: يا شيخ، البيت بيتك أم بيته؟ قلت: بل بيته، قالت: فالحرم حرمك أم حرمه؟ قلت: حرمه، قالت: فدعنا نتدلل عليه على قدر ما استزادنا عليه، ثم قالت: بحبك لي إلا ما رددت عليَّ قلبي، فقلت لها: من أين تعلمين أنه

يحبك؟ قالت: بالعناية القديمة، جيّش من أجلي الجيوش، وأنفق الأموال، وأخرجني من بلاد الشرك، فأدخلني في التوحيد، وعرفني نفسي بعد جهلي إياها، فهل هذه إلا العناية؟ قلت: كيف حبك له؟ قالت: أعظم شيء وأجله، قلت: وتعرفين الحب؟ قالت: فإذا جهلت الحب فأي شيء أعرف؟ قلت: فكيف هو؟ قالت: هو أرق من السراب، قلت: وأي شيء هو؟ قالت: عجنت طينته بالحلاوة، وخمرت في إناء الجلالة، حلو المجتنى ما أقصر، فإذا أفرط عاد خبلاً قاتلاً، وفساداً معضلاً، وهو شجرة، غَرْسُها كربة، ومجتناها لذيذ، ثم ولت وأنشأت تقول:

وذي قلق لا يعرف الصبر والعزا ... له مقلة عبرا أضر بها البكا
وجسم عليل من شجا لاعج الهوى ... فمن ذا يداوي المستهام من الضنا
ولاسيما والحب صعب مرامه ... إذا عطفت منه عواطف بالفنا

(مسامرات ح ١)

● **قال الجنيد**: حججت على الوحدة، فجاورت بمكة، فكنت إذا جن الليل دخلت أطوف، فإذا بجارية تطوف وهي تقول:

أبى الحب أن يخفى وكم قد كتمته ... فأصبح عندي قد أناخ وطنبا
إذا اشتد شوقي هام قلبي بذكره ... وإن رمت قرباً من حبيبي تقرّبا
ويبدو فأفنى ثم أحيا بذكره ... ويسعدني حتى ألذ وأطربا

قال: فقلت لها: يا جارية، أما تتقين الله في هذا المكان؟ تتكلمين بهذا الكلام، فالتفتت إليَّ وقالت: يا جنيد !

لولا التُقَى لم ترني ... أهجر طيب الوسن
إن التقى شردني ... كما ترى عن وطني
أفرّ من وجدي به ... فحبه هيمني

ثم قالت: ياجنيد ! تطوف بالبيت أم برب البيت؟ قلت: أطوف بالبيت، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: سبحانك ما أعظم شأنك في خلقك، خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار، ثم أنشأت تقول:

يطوفون بالأحجار يبغون قربة ... إليك وهم أقسى قلوباً من الصخر
وتاهوا ولم يدروا مِن التيه مَنْ هم ... وحَلّوا محل القرب في باطن الفكر
فلو صدقوا في الود غابت صفاتهم ... وقامت صفات الود للحق في الذكر

قال الجنيد فغشي عليّ من قولها فلما أفقت لم أرها. (مسامرات ح ١)

● ويقول الشيخ الأكبر في مثل هذه الحال:

كنت ليلة في الطواف، فطلبت قلبي فلم أجده، فجهدت أن أجده، فصعب علي الطواف بجسمي بقلب غير حاضر، وداخلني خوف، فنزلت أطوف في الرمل وحدي وأقول وأبكي:

جسم يطوف وقلب ليس بالطائف ... ذات تصد وذات ما لها صارف
يدعى وإن كان هذا الحال حليته ... هذا الإمام الهمام المهمم العارف
هيهات هيهات ما اسم الزور يعجبني ... قلبي له من خفايا فكره خائف

ثم وجدت لمحة برقت، فدنوت من البيت وأنا أقول:

أطوف على طوافي بالمعاني
فهتف هاتف خلف الستر ... فقال: فغايتك الوصول إلى الغواني،
فقلت: فكم من طائف ما نال إلا؟ ... فقال: ملاحظة من الحور الحسان،
فقلت: فكم من طائف ما نال إلا؟ ... فقال: عياناً في عيان من عيان،
فقلت: فأنبئني بحظي منه واصدق، ... فقال: كياناً في كيان من كيان،

فقلت:

فقد أودعته التوحيد عقداً ... وكان يمينه بدل الجنان

فقال:

ورب الراقصات[1] بقاع سلع ... ورب مثالث تتلو المثاني
لقد عاينته كالسلك فيه ... فابشر بالقبول وبالأماني

وطفت ليلة بالبيت فأدركني التعب، فقلت أعتب نفسي على البديهة من غير روية:

يا أيها البيت العتيق تعالى ... نور لكم بقلوبنا يتلالا
أشكو إليك مفاوزاً قد جئتها ... أرسلت فيها أدمعي إرسالا
أمسي وأصبح لا ألذ براحة ... أصِلُ البكور وأقطع الأصالا

(١) الراقصات هنا: الإبل التي تمشي الخَبَب شوقاً إلى الحبيب؛ والخبب: ضرب من العَدْو.

هذي الـركـاب إليكم سارت بنا شوقـاً ومـا ترجـو بذاك وصـالا
إن النيـاق وإن أضرّ بها الـوجـا[1] تسري وتـرفـل في السرى إرفـالا
قطعت إليـك سبـاسبـاً[2] ورمـالا وجـداً ومـا تشـكـو لذاك كلالا
ما تشتكي ألم الـوجـا وأنـا الـذي أشكـو الكـلال لقـد أتيت محالا

(مسامرات ح ١)

● الحب يخدر الحواس:

ذكر أن بعض المحبين جنى جناية، فجلده الحاكم مائة جلدة، فما أحس بتسع وتسعين منها، فما استغاث، فلما كان في السوط المكمل مائة استغاث، فقيل له في ذلك، فقال: العين التي كنت أعاقب من أجلها كانت تنظر إلي، فكنت أتنعم بالنظر إليها، فما كنت أحس بمواقع السوط من ظهري، فلما كان السوط الموفي مائة غابت عني، فأحسست بموقع السوط فاستغثت.

يقول الشيخ الأكبر رضي الله عنه: ورأيت المرأة الصالحة بمكة، فاطمة بنت التاج، ضربها أبوها ضرباً مبرحاً من غير جناية، فما أحست بذلك، وكانت تحس بشيء يحول بين ظهرها ومواقع السياط، فيقع السوط في ذلك الحائل، وتسمع وقع السوط بأذنها، وتتعجب حيث لا تحس به، وقد جرى لنا مثل هذا في بدايتنا في حكاية طويلة، فهذا المراد المحبوب، قد يعطيه الله اللذة دائماً بكل شيء يقوم به، من بلاء ونعمة، فإن النعيم ليس بشيء زائد على عين اللذة القائمة بالشخص، كما أن البلاء ليس بشيء زائد على وجود عين الألم، وأما الأسباب الموجبة لهما فغير معتبرة عندنا.

عَذُبَ العـذاب برؤيـة الأحبـاب إذ كانـت أعـينهم تشـاهـد ما بي
ليس العـذاب سوى فراق أحبتي إن الـلذاذة رؤيـة الأحـبـاب

(ف ح ٢ / ٥٢٤)

■ فرح محب الله بالله:

كانت فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي، وهي من المحبات العارفات بأشبيلية، تقول:

---

(١) الوجا: الحفا أو أشد منه من تتابع المسير.
(٢) السبسب: المفازة أو الأرض المستوية البعيدة.

عجبت لمن يقول إنه يحب الله ولا يفرح به، وهو مشهوده، عينه إليه ناظرة في كل عين، لا يغيب عنه طرفة عين، فهؤلاء البكاؤون كيف يدعون محبته ويبكون؟ أما يستحيون! إذا كان قربه مضاعفاً من قرب المتقربين إليه، والمحب أعظم الناس قربة إليه، فهو مشهوده، فعلى من يبكي؟ إن هذه لأعجوبة، وكانت تقول لي: إني والله متعجبة، لقد أعطاني حبيبي فاتحة الكتاب تخدمني، فوالله ما شغلتني عنه؛ وكانت تضرب بالدف وتفرح، فإذا قيل لها في ذلك تقول: إني أفرح به، حيث اعتنى بي وجعلني من أوليائه، واصطنعني لنفسه، ومن أنا حتى يختارني هذا السيد على أبناء جنسي !! وعزة صاحبي، لقد يغار عليّ غيرة ما أصفها، ما التفت إلى شيء باعتماد عليه عن غفلة، إلا أصابني ببلاء في ذلك الذي التفت إليه. (ف ح ٢ / ٣٤٧)

● طائر قتله الحب:

كان سحنون يتكلم ـ وهو جالس في المسجد ـ في المحبة، وجاء طير صغير قريباً منه، ثم قرب فلم يزل يدنو حتى جلس على يده، ثم ضرب بمنقاره الأرض حتى سال منه الدم ومات، هذا فعل الحب في الطائر، قد أفهمه الله قول هذا الشيخ، فغلب عليه الحال وحكم عليه سلطان الحب، موعظة للحاضرين وحجة على المدعين.

وأخبرني والدي رحمه الله أو عمي ـ لا أدري أيهما أخبرني، أنه رأى صائداً قد صاد قمرية، حمامة أيكة، فجاء ساق حر وهو ذكرها، فلما نظر إليها وقد ذبحها الصائد، طار في الجو محلقاً إلى أن علا ونحن ننظر إليه، حتى كاد يخفى عن أبصارنا، ثم إنه ضم جناحيه وتكفن بهما، وجعل رأسه مما يلي الأرض، ونزل نزولاً له دويٌّ إلى أن وقع عليها، فمات من حينه ونحن ننظر إليه، هذا فعل طائر، فيا أيها المحب أين دعواك في محبة مولاك؟! (ف ح ٢ / ٣٤٦)

● المحب يحيى به كل شيء

من ألطف ما روينا في حال المحب، عن شخص من المحبين دخل على بعض الشيوخ، فتكلم الشيخ له على المحبة، فما زال ذلك الشخص ينحل ويذوب ويسيل عرقاً، حتى تحلل جسمه كله، وصار على الحصير بين يدي الشيخ بركة ماء، ذاب كله، فدخل عليه صاحبه، فلم ير عند الشيخ أحداً، فقال: أين فلان؟ فقال الشيخ: هو ذا، وأشار إلى الماء ووصف حاله، فهذا تحليل غريب واستحالة عجيبة، حيث لم يزل ينحف عن كثافته حتى عاد ماء، وذلك لقوة

تحقق ذلك المحب، فكان أولاً حياً بماء، فعاد الآن يحيى به كل شيء، لأن الله قال: ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ فالمحب على هذا من يحيا به كل شيء.

(ف ح ٢ / ٣٤٦ - ح ٣ / ٤٣)

ذوق الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي في المحبة:

سبق أن أشرنا إلى هذا الموضوع، في كتابنا «ترجمة حياة الشيخ» ص ١٤٧[1]، وأشرنا عن بعض أذواق الشيخ في هذا الكتاب ص ١٥٥ إلى تجسد حبه له، وإلى تجسد بعض الأسماء والمعاني، في صور التجلي لجميلة، وعن حبه رضي الله عنه يقول:

مذ حلّ كاتــب حب الله في خلدي ... وخط سطراً من الأشـواق في كبدي
ذبت اشتيــاقــاً ووجــداً في محبتـه ... فآه من طول شوقي وآه من كمـدي
ياغـايـة السؤل والمأمـول ياسنـدي ... شوقي إليــك شديــد لا إلى أحــد
يدي وضـعـت على قلبي مخافـة أن ... يُشـق صدري لمّا خانـني جلدي
ما زال يرفـعـهــا طوراً ويخفضهـا ... حتى جعلت اليد الأخرى تشد يدي
مر الـفـؤاد من الـتركيب مرتحــلاً ... إلى الحبيب الـذي يُفنى وليس يديّ[2]
ما زلـت أطلبـه وجـداً وأنـدبـه ... بعـبرة حيرّتهـا زفـرة الخـلد
حتى سمـعـت نداء الحق من قلبي ... من كان عنـديَ لم ينـظر إلى أحـد
فمت بوجـدك أو مت إن تشأ طرباً ... فإن قلبـك لا يلوي على الجـســد
فقـمــت والشــوق يطويني وينشرني ... وصحت من شدة الأفراح وا كبدي
لما شهــدتــك يا من لا شبـيــه له ... لا فرق عنـديَ بين الغيِّ والـرشـد
فالــنــفس تعـرفــه علماً وتـبصره ... عينـاً وتشهــده في الـوقت والأبـد
من عاين الـذات لم ينـظر إلى صفة ... فإن فيهـا حجـاب الصف بالصفـد

(كتاب الإسراء)

فلقد أعطانا الله من المحبة الحظ الوافر، إلا أنه قوانا عليه، والله إني لأجد من الحب، ما

---

(١) الطبعة الثانية ص (١٤٥).

(٢) يدي من الديّة.

لو وضع في ظني على السماء لانفطرت، وعلى النجوم لانكدرت، ؛ وعلى الجبال لسيرت، هذا ذوقي للمحبة، لكن قواني الحق فيها قوة من ورثته، وهو رأس المحبين ﷺ، إني رأيت في نفسي من العجائب ما لا يبلغه وصف واصف، والحب على قدر التجلي، والتجلي على قدر المعرفة، وكل من ذاب فيها وظهرت عليه أحكامها، فتلك المحبة الطبيعية، ومحبة العارفين لا أثر لها في الشاهد، فإن المعرفة تمحو آثارها، لسرٍ تعطيه لا يعرفه إلا العارفون، مؤيد باسمه القدوس، عن تأثير الكلام المحسوس، برهان ذلك، هذا الذي ذاب حتى صار ماء، لو لم يكن ذا حب ما كان هذا حاله، فقد كان محباً ولم يذب حتى سمع كلام الشيخ، فثار كامن حبه، فكان منه ما كان، فحب لا حكم له في المحب حتى يثيره كلام متكلم، حب طبيعي، لأن الطبيعة هي التي تقبل الاستحالة والإثارة، إذ قد كان موصوفاً بالحب قبل كلام الشيخ، ولم يذب هذا الذوبان الذي صيره ماء بعد ما كان عظماً ولحماً وعصباً، فلو كان إلهي الحب، ما أثرت فيه كلمات الحروف، ولا هزت روحانيته هذه الظروف، فاستحيي من دعواه الحب، وقام في قلبه نار الحياء، فما زال يحلله إلى أن صار كما حكى، فلا يلحق التغيير في الأعيان، والانتقال في أطوار الأكوان، إلا صاحب الحب الطبيعي، وهذا هو الفرقان بين الحب الإلهي وبين الحب الطبيعي، والحب الروحاني وسط بين الإلهي والطبيعي، فبما هو إلهي يبقى عينه، وبما هو طبيعي يتغير الحال عليه ولا يفنيه، فالفناء أبداً من جهة الطبيعة، وبقاء العين من جانب الحب الإلهي، جبريل لما كان حبه روحانياً، وهو روح، وله وجه إلى الطبيعة من حيث جسميته، لأن الأجسام الطبيعية الخارجة عن العناصر لا تستحيل، بخلاف الأجسام العنصرية، فإنها تستحيل لأنها عن أصول مستحيلة، والطبيعة لا تستحيل في نفسها، لأن الحقائق لا تنقلب أعيانها، فغشي على جبريل، ولم يذب عين جوهر جسمه، كما ذاب صاحب الحكاية، فغشي عليه من حيث ما فيه من حب الطبيعة، وبقى العين من حيث حبه الإلهي، فالمحب الإلهي روح بلا جسم، والمحب الطبيعي جسم بلا روح، والمحب الروحاني ذو جسم وروح، فليس للمحب الطبيعي العنصري روح يحفظه من الاستحالة، فلهذا يؤثر الكلام في المحبة في المحب الطبيعي، ولا يؤثر في المحب بالحب الإلهي، ويؤثر بعض تأثير في المحب بالحب الروحاني. (ف ح ٢ / ٣٤٦)

ولنا من الرموز العلوية ومن الإشارات الغزلية، وفيه تنبيه على قوله تعالى: ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وكون الحق ما ذكر في القرآن من الأسماء

التي هي الأمهات إلا ثلاثة: الله، الرحمن، الرب، وما عداها فهي نعوت لله، وقد يقع الرحمن نعتاً أيضاً، قولنا:

بذي سلم والدير من حاضر الحمى ظباء تريك الشمس في صور الدما
فأرقب أفلاكاً وأخدم بيعة وأحرس روضاً بالربيع منمنما
فوقتاً أسمى راعي الظبي بالفلا ووقتاً أسمى راهباً ومنجما
تثلث محبوبي وقد كان واحداً كما صيروا الأقنام بالذات أقنما [1]
فلا تنكرن ياصاح قول غزالة تضيء لغزلان يطفن على الدّما
فللظبي أجياداً [2] وللشمس أوجهاً وللدمية البيضاء صدراً ومعصما
كما قد، أعرنا للغصون ملابساً وللروض أخلاقاً وللبرق مبسما

ولنا في باب الأرواح واللطائف:

ناحت مطوقة فحن حزين وشجاه ترجيع لها وحنين
جرت الدموع من العيون تفجعا لحنينها فكأنهن عيون
طارحتها ثكلى بفقد وحيدها والثكل من فقد الوحيد يكون
طارحتها والشجو يمشي بيننا ما إن تبينُ وإنني لأبين
بي عالج من حب رملة عالج حيث الخيام بها وحيث العين
من كل فاتكة اللحاظ مريضة أجفانها لظبى اللحاظ جفون
ما زلت أجرع دمعتي من غلتي أخفي الهوى عن عاذلي وأصون

---

(١) يقول الشيخ في شرح هذا البيت في كتابه: «ذخائر الأعلاق» ما يلي: العدد لا يولد كثرة في العين، كما تقول النصارى في الأقانيم الثلاث، ثم تقول الإله واحد، كما تقول: بسم الرب والأبن وروح القدس إله واحد، وفي شرعنا المنزل علينا قوله تعالى ﴿قل ادعو الله أو أدعو الرحمن أيا ما تدعو﴾ ففرق ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ فوحد، وتتبعنا القرآن العزيز، فوجدناه يدور على ثلاثة أسماء أمهات، إليها تضاف القصص والأمور المذكورة بعدها، وهي الله والرب والرحمن، ومعلوم أن المراد إله واحد، وباقي الأسماء أجريت مجرى النعوت لهذه الأسماء،ولاسيما الأسم الله، فمن ذلك النفس هو ما ذكرناه في هذه الأبيات.

(٢) من الجيد وهو العنق.

حتى إذا صاح الغراب ببينهم | فضح الفراق صبابة المحزون
وصلوا السرى قطعوا البرى فلعيـ | ـسهم تحت المحامل رنة وأنين
عاينت أسباب المنية عندما | أرخوا أزمتها وشُدَّ وضين
إن الفراق مع الغرام لقاتلي | صعب الغرام مع اللقاء يهون
ما لي عذول في هواها إنها | معشوقة حسناء حيث تكون

ولنا أيضاً في هذا الباب:

بين النقا ولعلع | ظباء ذات الأجرع
ترعى بها في خمري | خمائلا وترتعي
ما طلعت أهلة | بأفق ذاك المطلع
إلّا وددت أنها | من حذر لم تطلع
ولا بدت لامعة | من برق ذاك اليرمع
إلّا اشتهيت أنها | لما بنا لم تلمع
يا دمعتي فانسكبي | يا مقلتي لا تقلعي
يا زفرتي خذ صعداً | يا كبدي تصدع
وأنت يا حادي اتئد | فالنار بين أضلعي
قد فنيتْ مما جرى | خوف الفراق أدمعي
حتى إذا حل النوى | لم تلق عيناً تدمع
فارحل إلى وادي اللّوى | مرتعهم ومصرعي
إن به أحبتي | عند مياه الأجرع
ونادهم مَنْ لفتى | ذي لوعة مودع
رمت به أشجانه | وسط خراب بلقع
يا قمراً تحت دجى | خذ منه شيئاً ودع
وزوديه نظرة | من خلف ذاك البرقع
فإنه يضعف عن | درك الجمال الأروع
أو عليه بالمنى | عساه يحيى ويعي

ما هو إلا ميت — بين النقا ولعلع
فمت أياساً وأسى — كما أنا في موضعي
ما صدقت ريح الصبا — حين أتت بالخُدَّع
قد تكذب الريح إذا — تُسْمِعُ ما لم تَسْمَع

ولنا أيضاً في هذا الباب:

أنجد الشوق واتهم العزاء — فأنا ما بين نجد وتهامْ
هما ضدان لن يجتمعا — فشتاتي ما له الدهر نظامْ
ما صنيعي ما احتيالي دلّني — يا عذولي لا ترعني بالملامْ
زفرات قد تعالت صُعداً — ودموع فوق خديَّ سجامْ
حنت العيس إلى أوطانها — من وجا السير حنين المستهامْ
ما حياتي بعدهم إلا الفنا — فعليها وعلى الصبر سلامْ

(مسامرات ح ١)

إياك يا أخي أن يسرع لخاطرك سوء الظن بالمقصود من هذا الغزل والنسيب، وارجع إلى شرح معانيها في الإلهيات والأرواح والمعاني، كما قصد القائل وأبان عن مراده بهذا الكلام في كتاب «ذخائر الأعلاق وشرح ترجمان الأشواق».

وفي الحب الإلهي يقول الشيخ رضي الله عنه:

لنا حبيب نزيه لا أسميه — وهو الحبيب الذي حار الورى فيه
إن قلت هذا فإن الحد يحصره — أو قلت هو فكلام لست أدريه
كيف السبيل إلى غيب وأعيننا — في كل حين تراه من تجليه
أو قلت عندي جاء الظرف يطلبه — والظرف حق ولكن ليس يحويه
ما إن رأيت وجوداً لست أدريه — إلا الذي أنا معنى من معانيه
قد حرت فيه وحار الكون فيّ وكم — أذناي قد سمعت من قولةٍ فيه
هذا الذي وجلال الحق أمرضه — فهل له عوض منه فيشفيه
هو الشفاء هو الداء فأين أنا — العين واحدة وكلنا فيه

ضمير أمرضه يعود إلى الكون. (ف ح ٣/ ٢٣٨)

الفرق بين المحب والعارف

اعلم يا وليَّ، بعد ما بيناه من صفة المحبة ولوازمها، وصفة المحب ونعوته، أن المحب قاصد بسيره وهمته، طالب سر الحياة بمقام الصفا من عين الجود، لتحيى بذلك نفسه، فالهمة لا تعجز عن الطلب ولا عن التعلق، ولكن ما كل ما يراد ويتعلق به يُنَال، مثل مقامات الأنبياء عليهم السلام، فلا يحجر على تعلق الهمم، والفائدة في تعلقها ـ وإن لم يحصل لصاحبها قدم في ذلك ـ قيل نيل الإشراف على المطلوب، والتنزه فيه، كمن يتنزه فيما هو خارج عنه بجسمه، وبصره يدركه، كتفرجنا في زينة الكواكب في السماء، ونحن بذواتنا في الأرض، والمحب إذا كان صاحب علم، هو أتم من كونه صاحب حال، فإن الحال في هذه الدار الدنيا نقص، وفي الآخرة تمام، والعلم هنا تمام، وفي الآخرة تمام وأتم، فالعلم أشرف المقامات، كما أن المحبة أشرف الأحوال، والمحب لله لا من المحال أن يكون غير عالم بالله، لأنه محب، والحب بذاته يطلب محبوباً، يتعلق به من قام به، حتى يسمى محباً، فلا بد أن يكون عالماً، غير أن العلماء من مراتب، منهم مؤمنون خاصة، فعلموه من جهة الخبر، والأخبار متقابلة، فحصاار المحب، فلم ينضبط له صورة في محبوبه، ومنهم من رجع في الخبر ما أعطاه الخيال، فأحب محدوداً متصوراً تعلق به، فلا يطلبه في الأشكال والأجناس، وهو يتجلى فيها، ومنهم العلماء به من حيث التجلي بالعلامة، فهم فيه بحسب علامتهم، ومنهم العلماء به عن نظر فكري، فلا يفيدونه ويؤمنون بكل تجلٍ يعطي التقييد والتحديد، فيفوتهم من الله خير كثير، فمحبوبهم أقرب إليهم من حبل الوريد، ولكن لا يعلمون أنه هو، فمحبوبهم لا يزال ظاهراً لهم، وهم لا يعرفونه، والمحب إذا لم يكن عارفاً، يخلق في نفسه صورة يهيم فيها ويعشقها، فما عبد ولا اشتاق إلا لمن هو تحت حيطته، ولا يزيله عن هذا المقام إلا المعرفة، فحيرة العارف في الجانب الإلهي أعظم الحيرات، لأنه خارج عن الحصر والتقييد، فإن العارف لا تحرق علومَه نارُ الحب المتأججة في ذاته، فإنها منه تكون،

وإذا تكون شيء عن شيء، لا يعدمه ذلك الشيء، فلما كانت العلوم والمعارف نتائج عن نيران الطب والشوق إليها، لم تفن بها، في حين أن المحب الغير العارف، لا عقل له، فإنه يخاف أن تحرق نيران محبته صورة محبوبه، ولهذا فإن قلب العارف قابل لتنوع الواردات عليه، وتنوع الواردات بتنوع أحواله، وتنوع أحواله لتنوع التجليات الإلهية لسره، فيأخذ علوم مشاهدة وكشف، لا علوم إيمان وغيب، فإنها عن تجليات صور، ولهذا كان العارف يتلقى تكليفات محبوبه، بالقبول والرضى والمحبة ورفع المشقة والكلفة، وهذا مخصوص بالمحمديين، وحالهم الستر والكتمان، فيظهرون في كل عالم بحسب المواطن، والمنكرون عليهم أحوالهم لا يعرفون جمال من تعشقوا به، فإنه غيب لهم، وليس عندهم إيمان، فإنه يتجلى إلى قلب من شاء من عباده بضرب من ضروب المعرفة، ليهيمهم ذلك التجلي فيه، فتهون عليهم الشدائد التي تجري بها الأقدار عليهم، ولقرب الحق من قلوب العارفين بالعلم المحقق الذي وجدوه، لهذا صحوا، ولم يهيموا فيه هيمان المحبين لله، من كونه تجلى لهم في جمال مطلق، وتجليه للعلماء في كمال مطلق، وأين الكمال من الجمال؟!! فإن الاسماء في حق الكامل تتمانع، فيؤدي ذلك التمانع إلى عدم تأثيرها فيمن هذه صفته، فيبقى منزهاً عن التأثير مع الذات المطلقة، التي لا تقيدها الأسماء ولا النعوت، فيكون الكامل في غاية الصحو، كالرسل وهم أكمل الطوائف، لأن الكامل في غاية القرب، يظهر به في كمال عبوديته، مشاهداً كمال ذات موجده، ولهذا قلنا: العارف لا يكون محباً، والمحب لا يكون عارفاً، لأن المحب يظهر سلطان حبه فيه، ويحكم على علمه، وتحكم فيه المحبة بآثارها ولوازمها، فيقال فيه: محب، وينسب إلى المحبة لا إلى العرفان ولو كان عارفاً، لأن الحال عليه أغلب، يقول ابن الفارض رضي الله عنه وهو من المحبين العارفين:

قل للذين تقدموا قبلي ومن ... بعدي ومن أضحى لأشجاني يرى
عني خذو وبيَ اقتدوا وليَ اسمعوا ... وتحدثوا بصبابتي بين الورى

ويقول أيضاً:

كل من في حماك يهواك ولكن ... أنا وحدي بكل من في حماكا
يحشر العاشقون تحت لوائي ... وجميع الملاح تحت لواكا

فهذا حب حكم في علم، والعارف علمه يسع حبه ويحتويه، فلا تظهر على العارف لوازم المحبة ونعوتها، فينسب إلى المعرفة لا إلى المحبة في حال كونه محباً ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ ومحمد ﷺ له من بين سائر الأنبياء مقام المحبة بكمالها، مع أنه صفيّ ونجيّ وخليل وغير ذلك من مقامات الأنبياء، والمحبة أعظم وأخص من الخلة، لأن الخليل يصحبك لك، والمحب يصحبك لنفسه، فشتان ما بين الخلة والمحبة، فالخليل يعتضد بخليله، والحبيب يبطن في محبه فيقيه بنفسه، فالحق مجن المحبوب، والخليل مجن لخليله، فزاد ﷺ على سائر الأنبياء أن الله اتخذه حبيباً، أي محباً محبوباً، ومع هذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله الزيادة في العلم، لأنه عين الولاية الإلهية، به يتولى الله عباده، وبه يكرمهم، وبه يعرفون أنه لا يُرف، ولهذا كان العلم أشرف من المحبة، وورثته ﷺ على منهاجه، جعلنا الله تعالى منهم.

(ذخائر الأعلاق ـ ف ح ٢/ ٣٥٧ ـ ح ١/ ٤٤٤ ـ ح ٤/ ٤٩٣ ـ ذخائر الأعلاق ـ ديوان ابن الفارض)

خاتمة

قال تعالى: ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال» وقد اتضح للقارىء أن الحب في الكون يستند إلى حقيقة الحب الإلهي، وأنه لولا أن الله سبحانه وتعالى أحب ووصف نفسه بالحب، لما صح ولا ظهر حكم للحب في الخلق، وأن الحب في الإنسان يظهر بأكمل آثاره ولوازمه، فإنه ورد في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خلق الله آدم على صورته» فلابد أن يكون الحب في الإنسان أكمل وأتم منه في سائر الخلق، ولذلك وصف الإنسان بالتخلق والتحقق، بكل ما وصف الحق به نفسه أو نُعِت به، مما تدل عليه أسماؤه سبحانه وتعالى، ومن ذلك الحب، فهو من صفات الحق ونعوته، وهو أصل في كل تخلق وتحقق، فما هو هذا التخلق والتحقق عند الصوفية الكرام؟ هأنذا أنقل إليك قول الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي فيه، فلا تحتاج أن تسأل أحداً عنه بعده أبداً.

التخلق والتحقق:

اعلم يا بني أشهدك الله ذاته في دار القدس، أن الإنسان إذا زكت خواطره وأحواله، وطابت أقواله وحسنت أفعاله، وكان هذا حاله، حتى قبضه الله إليه، فذلك الموفق السعيد، واعلم أنه إن لم تتفرغ الخواطر للسماع، لم تتفرغ الأعضاء للتخلق، وعلامة السامعين المحققين في سماعهم، انقيادهم إلى كل عمل مقرب إلى الله تعالى من جهة سماعه، أعني من التكليف المتوجه على الأذن من أمر ونهي، كسماعه العلم والذكر، والثناء على الحق والموعظة الحسنة والقول الحسن، ومن علامته أيضاً التصامم عن الغيبة والنميمة، والبهتان والسوء من القول، كالخوض في آيات الله تعالى، والرفث والجدل وسماع القيان، وكل محرم حجر الشارع عليه سماعه، فإذا صحت إجابة العبد للحق لما دعاه إليه - وهو حقيقة السماع - صح له إجابة الحق إذا دعاه، فمن لم يُحضِر عند الكلام سمعَه، لم يعرف

هل كفر به أم لم يكفر، ولا يصدق في دعواه أنه سمع، فإنه لا يغنيه سماع الأذن من الله شيئاً، والمجالسة والاستماع ينتجان عن المحبة، قال ﷺ : «المرء مع من أحب» وفي هذا سر صوفي، يريد ﷺ في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالطاعة والأدب الشرعي، وفي الآخرة بالمعاينة والقرب المشهدي، فمن لم يتحقق بما سمع وادعى أنه عقل فدعواه كاذبة.

وإذا تحقق العبد في مراعاة ما توجه عليه من التكليف في بصره، ووقف عند ما حده له الشارع، وصرّفه في بعض ما أباحه له، فذلك عندنا صاحب بصر على الحقيقة، كما كان الأول صاحب سماع على الحقيقة، وإن الله تعالى إذا حصل العبد من هذا الباب، ولم يتعد الحد المشروع له في بصره، إذا شاء يكرمه بكرامات يختص بها بهذا المقام، وينزله منازل مختصة به، لا ينالها أبداً إلا صاحب بصر، منة منه سبحانه وتعالى، والمنازل قطعاً لا تحصل إلا لأهل الوصول المحققين أهل العناية، وأما الكرامات فمن حيث هي كرامات هي لهم، ومن حيث هي خرق عوائد قد ينالها الممكور به والمستدرج، فإذا وقعت لك يا بني خرق عادة، فلا تحجبنك عن نظرك في نفسك، كيف هي مع الحد المشروع لك؟ فإن كنت من أهل الاتباع، وقام الوزن بين نفسك وما كلفت به، وجريت مع الشارع بالأدب والامتثال حيث سلك، فخذها كرامة واشكر الله تعالى عليها، وادعه واسأله أن لا يجعلها حظ عملك، وأن لا تكون من العاملين لها، وإن رأيت نفسك حائدة عن السنن، متعدية للحدود الظاهرة في الشرع، فلا تنظرها كرامة في حقك، وانظرها منبهة لك، إن لزمت بعدها الاستقامة، وإن لم تعقبها الاستقامة، فانظرها مكراً واستدراجاً، فاسأل الله الإقالة والرجوع، إلى الجادة والصراط المستقيم، فإن نبهك الله لهذا النظر، فهذه الكرامة التي يقال لها كرامة، وكل خرق عادة في ظاهر الكون فأعراض زائلة.

والتحقق في الباطن، نظير التخلق في الظاهر، فإذا لم يصح التخلق لم يكن التحقق، والتحقق له مقامات متفاضلة، وهو الذي أردناه بالمنازل، وهي درجة شريفة لا تنالها أبداً ما لم تلحق، ولا تلحق حتى تُمْحَق، ولا تمحق حتى تُحقَق، ولا تحقق حتى تَتَخلَّق، ولا تتخلق حتى توفق، ولا تُوَفَّق حتى تصحب ذا الخلق الموفق، فإن صحبته وفقت، وإن وفقت خُلِّقت، وإن خلقت حُقِّقت، وإذا حققت مُحِقْت، وإذا محقت أُلْحِقت، وإن ألحقت نفضت ما بيدك من الكائنات، وخرجت عن ملك يمينك وعن هذه الصفات.

(كتاب مواقع النجوم)

التخلق بالأسماء الإلهية:

اعلم أنه كما لا يجتمع الدليل والمدلول، لا تجتمع أنت وهو في حد ولا حقيقة، فإنه الخالق وأنت المخلوق - وإن كنت خالقاً -[1]، وأنت المملوك وإن كنت مالكاً، فلا يحجبنك الاشتراك في الأخلاق، فإنك المخلوق وهو الخلاق، وما عدا هذا مما تشير إليه الصوفية من التخلق، فهو تلفيق من الكلام، وقولهم في التخلق بالأسماء كذلك، فالتشبه بالحق هو المطلوب عند أكثر أهل الله، وأما عندنا فلا يصح التشبه بالله، ونحن قد أطلقنا مثل ماأطلقوه، ولكن عن علم محقق، وإطلاق مطلق بأدب إلهي عن تحقق، فهو خلق لا تخلق، قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فهي أخلاق لا تخلّق، فإن الذي هو له ما هو لك، وإن الذي هو لك ما هو له، فأنت لك بما أنت، وهو له بما هو، والحقائق لا تنقلب ولا تتبدل، فما تخلق متخلق بأخلاق غيره، وإنما أخلاقه ظهرت عليه لأعين الناظرين، ولا تحقق متحقق بحدود غيره، فإن الحد لا يكون لغير محدود، ولاسيما الحدود الذاتية، قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة» فقال الرجل: «يا رسول الله أشيء جبلت عليه» قال: «نعم» قال: «الحمد لله الذي جبلني عليهما» أو كما قال، فمن الأخلاق ما يكون في جبلة الإنسان، ومنها مكتسبة، فالمكتسبة هو الذي يعبر عنه بالتخلق، وهو التشبه بمن هو فيه هذه الأخلاق الكريمة، جبليّة في أصل خلقه، لذلك نرى العارفين من عباد الله، يجعلون بينهم وبين نعوت الحق عند التخلق بأسماء الله، ما وصف الله به الملأ الأعلى من تلك الصفة، فيأخذونها من حيث هي صفة لعبيد من عباد الله مطهرين، لا من حيث هي صفة للحق تعالى، فإن شرفهم أن لا يبرحوا من مقام العبودية، وهذا الذوق في العارفين عزيز، فإن أكثر العارفين يتخلقون بالأسماء الحسنى من حيث هي أسماء الله تعالى، لا من حيث ما ذكرناه من كون الملأ الأعلى قد اتصف بها على ما يليق به، فلا يتخلق العارف بها إلا بعد أن اكتسبت من اتصاف الملأ الأعلى روائح العبودة، فمثل هؤلاء لا يجدون في التخلق بها طعماً للربوبية التي تستحقها هذه الأسماء، فمن عرف ما ذكرناه، وعمل عليه، ذاق من علم التجلي ما لم يذقه أحد ممن وجد طعم الربوبية

---

(١) من قوله تعالى: ﴿تبارك الله أحسن الخالقين﴾ وقول عيسى عليه السلام ﴿أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير﴾.

في تخلقه، فإن الصدق في المحبة يجعل المحب يتصف بصفة محبوبه، وكذا العبد الصادق في محبته ربه يتخلق بأسمائه، فيتخلق بالغنى عن غير الله، وبالعز بالله تعالى، وبالعطاء بيد الله تعالى، وبالحفظ بعين الله تعالى، وقد علم العلماء التخلق بأسماء الله، ودونوا في ذلك الدواوين، وسبب ذلك لما أحبوه، اتصفوا بصفاته على حد ما يليق بهم.

(ف ح ٢ / ٢٤٣ - ح ٤ / ٤٢٢ - ح ٢ / ٢٤٣، ٣٩، ٥٩٦)

المحقق:

من شرط صاحب هذا المقام، أن يكون الحق سمعه وبصره ويده ورجله وجميع قواه المصرفة له، فلا يتصرف إلا بحق في حق لحق، ولا يكون هذا الوصف إلا لمحبوب، ولا يكون محبوباً حتى يكون مقرّباً، ولا يكون مقرباً إلا بنوافل الخيرات، ولا تصح نوافل الخيرات إلا بعد كمال الفرائض، ولا تكمل الفرائض إلا باستيفائها حقها.

(ف ح ٢ / ٢٦٨)

ليس بعد هذا البيان من بيان، فاعرف من تحب؟ وكيف تحب؟ وأين أنت من المحبة؟ جعلنا الله تعالى وإياكم من المحبوبين المحبين، اللهم ارزقنا حبك، وحب من يحبك، وحب كل عمل يقربنا إلى حبك، وزدنا علماً، بمنك وفضلك وكرمك، يا أرحم الراحمين آمين.

مدح الشيخ الأكبر للرسول ﷺ

اعلم أنَّ الأب الأول في الروحانيات هو أبو آدم، وأبو العالم، وهو حقيقة محمد ﷺ وروحه، فأصل أرواحنا روح محمد ﷺ، فهو أول الآباء روحاً، وآدم أول الآباء جسماً.

(كتاب الاسفار / سفر الابتلاء - ف ح ٣/ ٥٠ - ح ١/ ٥)

ألم تر أن الله أكرم أحمدا ... ونادى به حتى إذا بلغ المدى
تلقاه بالقرآن وحياً منزلاً ... فكان له روحاً كريماً مؤيدا
وأعطاه ما أبقى عليه مهابة ... فأورثه علماً وحلماً وسؤددا
وأعلى به الدين الحنيفي والهدى ... وصيره يوم القيامة سيدا
وهيأ يوم الفصل عند وروده ... له فوق أدنى في التقرب مقعدا
وعيّن يوم الزور من كل حضرة ... له في كثيب المسك نزلاً ومشهداً
فياخير خلق الله بل خير مرسل ... لقد طبت في الأعراق نشئاً ومحتدا
تحليت للإرسال في كل شرعة ... ليظهرن آيات ويقدحن أزندا
ففي قولكم لما دعيت مذمما ... وقد كان سمّاك الإله محمدا
فياخير مبعوث إلى خير أمة ... لوَ أنك في ضيق لكنتُ لك الفدا
ولما دعوتَ الله غيرة مؤمن ... على من تعدّى في الشريعة واعتدى
أتاك عتاب الله فيه ولم تكن ... أردتَ به إلاّ التعصب لله هدى
بأنك قد أرسلتَ للخلق رحمة ... ومن كان هذا أصله طاب مولدا
مدحتك للأسماع مدح معرِّف ... وقمت به في موقف العدل منشدا
وها أنا أتلو في مديحك ألسُناً ... تعز على من كان في العلم قد شدا
ولم أغل بل قلت الذي قال ربنا ... وجئت به فضلاً مبيناً لأرشدا

مدحتك بالأسماء أسماءِ ربنا ... ولم ألتفت عقلاً ورأياً مسدّدا[1]
بأنك عبد الله بل أنت كونه ... وأنت مضاف الكاف شرعاً وما عدا[2]
فعينك عين السر والسمع سمعه ... وأنت الكبير الكل للعين إن بدا
وأنت الذي أكني إذا قلت كنية ... وأنت الذي أعني إذا ما تمجدا
لقد خصك الرحمن بالصورة التي ... روينا ولم ينزل لنا ذكرها سدى
ولما اصطفاك الله عبداً مقرباً ... أراك الذي أعطى عليك وأشهدا

(ديوان / ١٢٧)

وله أيضاً في الديوان / ٥٢ :

ياصفوة الدين أنت الدين أجمعه ... طابت بذكرك أعراف وأفواه

وله أيضاً في الديوان / ٣٤٤ .

مدحت المصطفى فمدحت نفسي ... ولي قسم وما جاوزت قسمي
فأعمالي ترد علي منه ... ولو أرمي فعيني منه أرمي

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في حق رسول الله ﷺ « بالمؤمنين رؤوف رحيم » وهما من أسماء الله تعالى .

(٢) « مضاف الكاف » يعني به قوله تعالى « ليس كمثله شيء » باعتبار الكاف كاف الصفة والمثل هو قوله ﷺ « خلق الله آدم على صورته » فالصورة هي المثل .

دعـــاء

ليلة النصف من شعبان

بسم الله الـرحمن الـرحيم ، اللهم إذا تجليت في هذه الليلة على خلقك ، فَجُدْ علينا بمنك وكرمك وعتقك، وقدم لنا من الحلال واسع رزقك ، واجعلنا ممن عبدك وقام بحقك، اللهم مَنْ قضيت عليه في هذه الليلة بطول حياتـه فاجعـل مع ذلك نعمتك، ومَنْ قضيت عليه بوفاته فاجعـل مع ذلك رحمتك، اللهم بلغنا ما لا تبلغ الآمال إليه يا خير من وقفت الأقدام بين يديه، يا رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محي الدين ابن العربي